

المجاهدين

سيرة قومية



الطبعة الأولى: ١٩٨٠
الطبعة الثانية: ١٩٨١

المجاهدين
سيرة قومية

الكتاب: أحمد بهاء الدين - سيرة قومية
الكاتب: د. مصطفى عبد الغنى

الناشر: هلا للنشر والتوزيع
ت: ٣٠٤١٤٢١ تليفاكس: ٣٤٤٩١٣٩

رقم الايداع: ٩٦/١٠٢٦١
الترقيم الدولي: ISBN 997-5784-00x

الجمع والتنفيذ الفنى:
المركز العربى للنشر والترجمة والحعاية ت: ٥٧٥١٨٨٤

المعبر حياء الدين

سيرة قومية

تأليف :

و. مصطفى محمد الغني

الناشر

هلا للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

المحتويات

٧ مقدمة
١٥ الفصل الأول: النهضة والمؤثرات
١٧ أولاً: النهضة الأولى
٢٥ ثانياً: المؤثرات
٣٥ ثالثاً: الخصائص المميزة
٦٣ الفصل الثاني: فكر التنوير
٦٥ أولاً: التنوير العربى
٧٧ ثانياً: العقل والحرية
١٠٧ ثالثاً: قضية المرأة
١٢٣ الفصل الثالث: الدولة العصرية
١٢٧ أولاً: الفجوة الحضارية
١٣٧ ثانياً: الأيديولوجيا والتكنولوجيا
١٤٧ ثالثاً: الدولة العصرية
١٦١ الفصل الرابع: المثقف والسياسة
١٦٤ أولاً: المثقف وعبدالناصر
١٧٩ ثانياً: الكاتب والسادات
٢٠١ ثالثاً: السياسة والانفتاح

٢١٧	الفصل الخامس: القضية العربية
٢١٩	أولاً: الوحدة العربية
٢٦٣	ثانياً: قضية فلسطين
٢٨٩	ثالثاً: الاستعمار الأمريكى
٣٢١	الفصل السادس: جريمة العصر
٣٢٣	أولاً: اليهود السوفييت
٣٤٣	ثانياً: جريمة العصر
٣٦١	وثائق
٤٢٧	المصادر والمراجع

مقدمة

ليست هذه سيرة ذاتية، وإنما هي سيرة قومية، تستمد مشروعيتها من وعى صاحبها.

وهي بهذا الشكل لا تهتم بحياة الكاتب - وإن كانت لا تغفلها - وإنما تدرس كتاباته، وتتفهم رؤيته، وتحدد مواقفه ليظل لها/ لنا القدرة على التعامل مع رؤيته - أولاً - وتفهم موقفه - ثانياً - ثم نحكم لها، أو عليها، بعد ذلك، في الإطار الذي اختارته.

وهي، بهذا الشكل، تعيدنا إلى صاحب السيرة، لنسأل:
لماذا أحمد بهاء الدين؟

(٢)

الإجابة على هذا السؤال تدفعنا إلى عاملين اثنين:

- ذاتي

- قومي

أما العامل الذاتي، فيوجز في تكوين أحمد بهاء الدين، وهو تكوين يرتبط صاحبه بمجمعه ارتباطاً عضوياً، وهو ارتباط ناتج عن تكوينه الخاص،

لكنه مؤكد له ومفسر في آن واحد.

من ذلك، ما يذهب إليه أحمد بهاء الدين حين يعلق على رأى من يرى أن الحياة هي (العيش الرخى والبال الرضى..)، فيقول عنه:

«... كأن يقدم للناس نصائح للاحتفاظ بشبابهم، فلم يبق إلا أن يشير إلى فوائد النوم المبكر وحمامات البخار!!.. ولست أدرى كيف ظل يحمل قلمه أكثر من ثلث قرن، ولا ورغم أنه ترك الخلق للخالق، فلم ينتقد ولم يعترض، ولا يدخل في جدال أو يلج في مناقشة!!..»

فأحمد بهاء الدين هنا، في كتابه المبكر، الذي اختار له عنوان (مبادئ وأشخاص) يغضب ويستاء ممن ليس له مبدأ في الحياة، ويرضى ويرتاح لمن يعمل لوطنه انطلاقاً من ظروف الحياة حوله في بلاد ما زالت تعاني من الشظف والجهل والظلام وتخلف المفاهيم.. وهو لذلك، يرفض النموذج المشار إليه، في حين يقبل على نموذج آخر، فيشدد على مذهب طه حسين في الحياة، أبعد من العيش الرخى والبال الرضى، وهو يسهب هنا فيقول:

«فهو يرى ظروف الحياة من حوله سيئة، بل يثبت من صميم هذه الظروف السيئة، ويجد نفسه في صباه ضحية لها.. يجد نفسه ضحية ظروف مصر كلها من الجهل والفقر والمرض و.. فحياته كانت حرباً مباشرة ضد هذه الأشياء جميعاً، ومعركته كانت أعنف بكثير من معركة غيره..»

مقدمة

ويضرب لنا أحمد بهاء الدين، في غير مرة، نماذج لهذا المثقف الواعى الملتزم بقضايا وطنه، ويعدد أمثلة على هذا الوعى حين يفرق بين السينما الإيطالية الواعية والأمريكية الاستهلاكية؛ فالإيطاليون استخدموا السينما فى وضع مشكلات مجتمعهم تحت عدسة البحث، مشدداً - هذا - على الدور الإيجابى الذى لا بد أن تلعبه السينما فى خدمة المجتمع وتغييره ..

لقد عاش الواقع العربى وامتك القدرة على التعامل معه ..

عرف (تحديات) كثيرة واجهت بلاده فى النصف الثانى من هذا القرن، فامتلك (الاستجابة) العفوية فى التصدى لها .. وهو ما يتعد بنا من الذات إلى العام .

(٣)

عاش أحمد بهاء الدين فى هذا الواقع العربى فى أسوأ فترة من فترات الأقطار العربية، وعان تناقضاته وثنائياته المتكررة:

ازدهار أول وحدة عربية فى التاريخ المعاصر ٥٨ - ١٩٦١ وانكسارها

وصول بعض الأقطار العربية إلى قمة الوعى القومى وإلى منتصف الستينات، ثم هبوطها إلى قاع النكسة (الهزيمة) ١٩٦٧ .

ارتفاع أصوات بعض العرب حين كانت الفترة تؤرخ لزمن السياسة الهزلية فى مؤتمرات القمة منذ بدايات الستينات .

صعود نجم المقاومة الفلسطينية ثم بداية المصادمات والمجازر العربية

المتكررة لها منذ عام ١٩٦٩ .

تبني الأنظمة العربية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وفي الوقت نفسه رفض دعمها للمقاومة الفعلية كما حدث في عام ١٩٧٠ .

صعود المد القومي منذ أكتوبر ١٩٧٣، خاصة.. ثم انحساره مع زيارة القدس واتفاقية فصل القوات في آخره .

تدمير إسرائيل للمفاعل الذري العراقي ١٩٨١ والاعتداء على منظمة التحرير في تونس، ولم يؤخذ موقف عربي موحد .

غزو إسرائيل لبيروت العربية في عام ١٩٨٢، ولم نسفح إدانة عربية على مستوى الحدث المفزع .

حرب العراق مع إيران، وفي الوقت نفسه تشرذم الأقطار العربية اعتداء أمريكي على الأراضي الليبية في عام ١٩٨٦ في حين لم يعل صوت عاصمة عربية يرفض الاعتداء ويشجبه .

تدشين سياسة المحاور: المجلس الخليجي ٨١، المجلس العربي ٨٩، المجلس المغاربي، في حين كانت روافد الواقع العربي تلقى في تيار أزمة الخليج الثانية ٩٠ / ١٩٩١ .

دعوة عبدالكريم قاسم لصنم الكويت وتهديدها عام ١٩٦١، وإعادة نفس السيناريو عام ٩٠ / ٩١ .

وكان المنفذ في الحاليتين هو الغرب (سواء أكان الاسم هو إنجلترا أو أمريكا) .

وهذا هو العمل الآخر - القومي - الذي أسهم في تكوين أحمد بهاء الدين وتحريره من كثير من الخرافات الإقليمية..

(٤)

في هذا الزمن العربي حاولنا أن نقرب من السيرة.. كانت المحاولة تبدأ من المحطات الأولى: النشأة والمميزات، الفصل الأول.

ثم تمهلنا طويلاً عند مشروعه التثويري على كل الأصعدة: العقل، الحرية، الاجتهاد.. إلى آخره.. في منظومة واحدة تسعى إلى استكمال دائرة «القوانين، التاريخية لحركة المد العربي أو جزره، الفصلين الثاني والثالث.

كما أشرنا إلى موقف المثقف العربي من السلطة من حيث أن كثيراً من القضايا الفكرية ترتدى زى السياسة وتستخدم رموزها، الفصل الرابع.

ونمهلنا - أكثر - عند عديد من القضايا التي تمثل جوهر التجربة القومية، كالوحدة العربية وقضية فلسطين، والاستعمار الأمريكي، الفصل الخامس.

كان لابد أن نمضى إلى تراكم الأحداث في حركتها الإيجابية أو السلبية في الثمانينات، حيث عرف من القضية القومية، هجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين في زمن انتهاء الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفييتي..

واشتعال القوميات.. وما إلى ذلك. شارك في حركة القوى الداخلية والخارجية بقدر واحد، وهو ما جعل أحمد بهاء الدين يسقط في حالة من عدم التصديق التي تماس مع درجة عالية من درجات الحيرة والمرض والكآبة. مما انتهى به إلى السقوط في أسر المرض.

وهو موضوع الفصل الأخير.

وهو الفصل الذي كانت كل ارهاصات حرب الخليج قائمة فيه..

فحرب الخليج لم تبدأ - في رأيي - من انكسار السبعينات، ولا - حتى - من هزيمة ٦٧، وإنما منذ وعينا الصراع مع العدو الغربي - اليهودي - وكان وعينا ناقصاً مشوهاً..

وهو ما يتوقف بنا عند بعض ملامح المنهج

(٥)

ومنهجى النقدى، فى إيجاز، يتحدد فى عدة نقاط:

- نهتم، أولاً، بالسيرة القومية وليس بالسيرة الذاتية فقط، إذ لا يبقى لدى كاتب مثل أحمد بهاء الدين مساحة، أية مساحة، بين الخاص والقومى.
- نهتم، ثانياً، بالبعد الزمنى وليس بالموضوعى وحده، إذ لا يبقى لدى كاتب مثل أحمد بهاء الدين، مساحة، أية مساحة، بين الزمنى والموضوعى.
- نهتم، ثالثاً، بأسلوب بحثى استفدت فيه بأساليب أو مناهج بحثية كثيرة، وطورته من داخل السيرة هنا لا من خارجها، إذ لا يمكن لباحث أن

يتمهل عند فلسفة أى منهج أو أسلوب دون أدواته .

وبعد، فهذه سيرة قومية آثرت من خلالها أن أعيد جزئيات الحدث وتفكيكه فى ضوء الوعى النقدى، ثم أعيد تركيبها عبر شخصية قومية، تعد من بين أهم رموزنا وأنبلاها على الإطلاق..

فإلى مثل هذه الشخصية، القومية، الواعية.. أهدى هذه السطور..

وإلى كل عربى قومى حريص على وعيه العربى فى هذا العصر الذى لم يعد يهتم بأية إقليمية محددة، وإنما بوحدة عربية تسعى لتثبيت وجودها فى هذا النظام العالمى الجديد...

المؤلف

الفصل الأول

النشأة والمؤثرات

أولاً

النشأة الأولى

النشأة الأولى

(عرفت «محرمات، الاشتراكية،
والوحدة العربية، والإصلاح الزراعي،
والدعوة إلى الاستقلال الوطني،
وبناء القطاع العام)

ولد أحمد بهاء الدين لاسرة تنتمى الى الطبقة الوسطى، خرج عائلها من
احدى قرى أسيوط بجنوب مصر (الدوير) تحت تأثير الوظيفة، إذ كانت
طبيعة عمله بوزارة الأوقاف تحتم عليه التنقل المستمر بين محافظات
مصر، وانتقل إلى أكثر من مدينة حتى حط الرحال فى مدينة الإسكندرية
حيث ولد أحمد الابن الثانى للأسرة، وكان هو الولد الوحيد لخمس شقيقات
وأشقاء.

. ويتحدد تاريخ ميلاده فى ١١ فبراير عام ١٩٢٧ .

وقد أمضى الابن الوحيد المدلل سنواته الأولى بالإسكندرية، حيث بدأت
ميوله تتم عن انشغال بما حوله بشكل مغاير لأقرانه، فتحكى شقيقته أنه
كان دائم السؤال عن الأحداث السياسية التى كانت تغلّ بها مصر فى
الثلاثينيات، وكان لا يكف عن شراء ما يستطيعه من الصحف السيارة.
وينكب عليها طويلاً، ثم يقوم برفع المقالات السياسية التى يشغف بها فيعلقها
أو يقوم بتثبيتها فى جدار حجرته الخاصة، وكثيراً ما كانت تفاجئه وحيداً

وهو يتحدث عن قوتين سياسيتين تتصارعان رغم هدوئه الشديد.

وقد نمت هذا الإحساس السياسى لديه أن أباه كان ينتمى للحزب الجماهيرى (الوفد) فى حين أن أعمامه وعشيرته ينتمون إلى حزب الصفاة (الأحرار الدستوريين).

ولأن حماس الأب، المتعصب للوفد، كان يتعارض مع مصالح الأهل فى الريف، فقد كان يرى - دائماً - العراك بين الأب وأعمامه، فإذا سقطت وزارة للوفد كان حماس الأب يصل إلى حد أنه لا يذهب لعشيرته. بل ينصرف عنهم تماماً إلى مشربه المفضل، وكان يستمر هذا الحال لسنوات فى قطيعة مبعثها الانتماء الحزبى أو السياسى. (الأهرام ١٩٨٨/١٠/١٩).

وقد كان ذلك ينعكس على وجدان الصبى، سواء فى الانتماء السياسى منذ فترة مبكرة، وهو الانتماء الذى قد يجشمه - كما سنرى - عدااء طبقات كثيرة، كما ينعكس فى ارتباطه بحزب الوفد بوجه خاص، وهو الحزب الذى عرف منذ فترة مبكرة - بوجه خاص - باهتمامه الكبير بالقضايا العربية، وكان موقعه على رأس الحركة الوطنية المصرية وجهاده ضد الاستعمار يزيده قريباً من حركات التحرر فى البلاد العربية، إذ كان «بشعبيته سريع الاستجابة لمشاعر الجماهير العاطفة على قضية فلسطين. (طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، دار الشروق ط ٢، ص ٢٤١).

ومهما يكن، فإن نشأة أحمد بهاء الدين تعكس صورة للمثقف العربى الذى عرف المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الثانية. وفى هذه الفترة

النشأة الأولى

الفؤارة كان قد عرف كلية الحقوق، وتخرج فيها عام ١٩٤٦، وحين كان ينتقل كموظف بين وزارة التربية والتعليم والنيابة الإدارية ومجلس الدولة كان يشهد هذه الفترة التي شهدت الطبع المتناقض للأوضاع بفعل تعامل العالم العربى مع النظام الرأسمالى العالمى.

إذا أنه فى حين كانت المنطقة العربية - وخاصة مصر - قد ارتبطت بسياسة الحلفاء بعد انتهاء الحرب وعانت من التطور الجينى للاقتصاد وارتباط عدد كبير من السياسيين والأحزاب المناوئة للاستعمار، فإن المنطقة العربية شهدت أعلى درجات التمرد على هذا الواقع، وبدأنا نسمع صيحات تأميم البنوك، والأخذ بنظام الإصلاح الزراعى، ومجانية التعليم. وما إلى ذلك مما وجد له مآخاً مواتياً فى ذلك الوقت.

فى هذه الفترة، تحددت اهتمامات أحمد بهاء الدين أكثر، فوجد نفسه غير ميال للعمل كموظف فى نمو إحساسه بالقضايا العامة، فأتجه بكلية إلى الصحافة، وسرعان ما وجد متنفساً فى مجلة (الفصول) التى كان يصدرها الكاتب المعروف «محمد زكى عبدالقادر»، وقد شغل فى هذا الفترة - فضلاً عن تعرفه بالكتاب والقضايا المصرية والعربية - بإطلاعه الفائق، إذ كان يشاهد منكباً طيلة ساعات النهار فى دار الكتب المصرية، ليعيد قراءة كل الصحف التى صدرت منذ زهاء نصف قرن، كما شغل بالكتابة فى القضايا الكثيرة التى كانت تعاني البلاد منها.

وأثرت المدنية كثيراً فى أحمد بهاء الدين، مما انعكس على اهتماماته التنويرية فيما بعد.

إذ تعرف - فضلاً عن الصحف والمجلات والندوات - على وسائل ثقافية، كالسينما والمسرح، ومعارض الفن التشكيلي. ويبدو أن الحركة التشكيلية لعبت دوراً كبيراً في تكوينه لما يعود إلى علاقته بحركة التروتسكيين في مصر في ذلك. وهي جماعة كانت تهتم بالسياسة لكي تولى اهتماماً فائقاً بالفن السيريالي الغربي وطلاته.

أيضاً تأثر كثيراً بالتاريخ وقرأ عنه وفيه كثيراً، ليس على سبيل القص والمعرفة.. وإنما للدرس والفهم. فالتاريخ عنده هو الفرق بين الإنسان الواعي، وغير الواعي،.. (أيام لها تاريخ، المقدمة)، وبلغ شغفه للتاريخ أن سجل في باريس رسالة لنيل الدكتوراه..

غير أن شغفه بالفن والتاريخ لم يمنعه من الإغراق في العمل الصحفي.

إذ أدركت السيدة روزاليوسف في ذلك الوقت قيمة هذا الفتى المتحمس، وأيقنت أنه في (مفترق الطرق)، فأخذت بيده، وتركته يعمل في الصحافة، مشرطة عليه ألا يهتم كثيراً بالفن، ويترك دراسة التاريخ، ويخلص للصحافة، وهو ما انتهى إليه بالفعل. (مجلة الشباب ٦/١/ ١٩٨٨).

لقد امتدت فترة النشأة إلى ثورة ١٩٥٢، حتى مارس في كل هذه السنوات ألواناً كثيرة أثرت فيه كثيراً، فقد عرف (محرمات) كثيرة لم تكن ليسمح لأحد من الاقتراب منها في سنوات الأربعينات، يقول:

أذكر أنني طيلة الأربعينات كنت أجرب (محرمات)

النشأة الأولى

الاشتراكية، والوحدة العربية، وقضايا الإصلاح الزراعي، والدعوة إلى سياسة الاستقلال لوطنى، بل كنت من أوائل من دعوا إلى سياسة بناء القطاع العام، وأذكر جيداً أن أول ما كتبت - بعد تخرجى من الجامعة - مقالة - دعوت فيها إلى تأمين محصول القطن وتأمين البنك المركزى. (اسمه الأهلى يومذاك) .. بل أننى فى هذه الفترة كنت أرقب حركة الاستعمار الجديد - الأمريكى - بحزن، وفى هذه الفترة اعتملت داخلى كل ارهاصات كتابى عن الاستعمار الأمريكى (النقطة الرابعة)، الذى كتبتة بالفعل فى منتصف عام ١٩٥١. (محضر نقاش، ١٩٨٨/٣/٧) ..

بيد أن ثمة مؤثراً آخر لا يمكن إغفاله، أسهم فى نشأة أحمد بهاء الدين منذ فترة مبكرة، وهو مؤثر ارتبط باتجاهه الراديكالى الذى تطور فيما بعد، وأصبح أهم سمات فكره، ونقصد به ارتباطه بيسار حزب الوفد فى (الطليلة الوفدية) التى كانت أحد الأنظمة التابعة لحزب الوفد الأم، وإن كانت أكثر منه راديكالية.

ولا يجب أن نشير هنا إلى تأثير (الطليلة الوفدية) لدى أحمد بهاء الدين على اعتبار أنه يترجم تكوينه الراديكالى المتمرد فى هذه الفترة وحسب، وإنما يمثل ذلك أيضاً مفتاحاً لانتمائه العربى، فقد قصد (بالطليلة الوفدية) أن تكون أداة اتصال مع ... شعوب الدول العربية، (رابطة الشباب ٢٠ مارس ١٩٤٧).

وقد كانت صحيفة رابطة الشباب التابعة للوفد،، تتوسع في ذكر أخبار البلاد العربية وحركات التحرر فيها، وتهاجم خطط الاستعمار بشأنها، وتكشف سعى الولايات المتحدة للسيطرة على البترول العربي وعلى اتخاذ المملكة العربية السعودية ركيزة لها.

في هذه الفترة اقترب من محمد مندور، وتعرف على عبدالرحمن الشرقاوى، وصادق فتحى غانم، وتبادل الكتب مع نجيب محفوظ، إذ كان كل هؤلاء قريبين من «الطلیعة الوفدية» أهم تشكيل عربى وطنى فى ذلك الوقت. ويلعب دوراً رائداً فى التحرر الوطنى والاجتماعى.

وهنا، نستطيع أن نرصد عدة مؤثرات عديدة، راحت تصب فى تكوينه الفكرى، فنمد المجرى العريض وتعمقه ..

ثانياً

المؤثرات

«الرؤية المتأثرة بالقانون هي
الفرق بين أحلام اليقظة وأحلام
التطبيق، أو بين تهويمات الخيال
ورؤى الواقع،

أ - المؤثر الفردى

ربما كان أهم مؤثر لدى أحمد بهاء الدين - غير اعتدال الوعى - أنه
كان «فردى النزعة»، وهى سمة لا نخطئها لديه، وهو السبب الذى جعله
- فيما نظن، رغم تمرده - أقرب إلى الإصلاحى الهادئ، أكثر منه إلى
الثورى العنيف.

لقد اتسم التطور العام لديه بالميل إلى القانون - دراسة وتأثراً - بما
يمنحه لصاحبه من هدوء وميل للتفكير على أرض واقعية، يقول بعد أن
يسهب حول تأثير القانون فى طبيعته :

«إن الرؤية المتأثرة بالقانون هي الفرق بين أحلام اليقظة
وأحلام التطبيق، أو بين تهويمات الخيال ورؤى الحقيقة،
(شرعية السلطة ص ٢٠) .

فالمعروف أن دراسة القانون تهب صاحبها هذا الفكر الهادئ المتميز،
وهو بالنسبة لأحمد بهاء الدين ليس أكثر من أسلوب أفاده كثيراً، لكنه

ترجيحاً لفكرة الفردية، فإنه لم يستخدمه في مهنة المحاماة، ليس لكونه لم يصل السن القانونية إبان تخرجه من كلية الحقوق، وإنما لأن طبيعته تأبى عليه الدخول إلى المحاكم والتعرض بصوت عال لهذه القضية أو تلك، ويصبح القانون هنا علاقات بين المتهم والقاضى ..

وربما ارتبط ذلك بنزعة أخرى لديه، هي الاعتدال.

فرغم أن كتاباته أحياناً تشي بقدر كبير من الغضب، فإن سمة الاعتدال تظل أكثر ما تؤثر في تكوينه، وليس من المصادفة أنه يذكر أنه دائم العود إلى كتابات (نهر) أكثر من كتابات أى شخص آخر (أخبار ١٩٩٣/٦/١٨). في حين يصف فكر نهر وابنته بالاعتدال والهدوء في أكثر من موضع.

وقد يرتبط ذلك أن إعجابه بالقانونى المعروف عبدالرازق السنهورى فاق سواه، فهذا الرجل عنده اتسم بالرزانة والهدوء الشديدين مع تمكين كبير للقانون، ولم تقلل أحكامه العاتية على رئاسة مجلس الدولة ضد الملك من سمة الهدوء لديه، وكثيراً ما أشاد بالسنهورى في هذا الصدد.

وعلى ذلك، فإن بهاء الدين يتحول رويداً رويداً، لطبيعته، إلى المفكر أكثر منه إلى (الانتلجنسى) أى «المثقف الثورى»، وهو ما نجد له تفسيرات كثيرة في تكوينه ومواقفه (*).

The intellectuals, A Constrovesial Portrait Corge, B. De (*)
HusAzar, P.32.

ب - جيل الرواد

ولأن أحمد بهاء الدين شهد الأربعينات وتأثر بها، فمن الطبيعي أن يكون تأثر جيل الأبناء بالآباء مؤكداً، ورغم أن الجيل السابق كان يختلف في عديد من المواقف والتوجهات مع الجيل التالي، فإن بهاء الدين كان أكثر ما تأثر برموز هذا الجيل.

لقد تأثر بطله حسين، وعباس العقاد، وعلى عبدالرازق، ومحمد حسين هيكل، وعبدالرازق السنهورى، وتوفيق الحكيم.. مروراً بمحمد مندور، وفتحى رضوان، وزكى عبدالقادر.. وغيرهم..

لقد اختلف مع طه حسين وتوفيق الحكيم، ولم يتردد فى مهاجمتهما فى السبعينات إبان إثارة قضية عروبة مصر، لكنه ظل يتحدث عنهما باحترام شديد، واختلف مع العقاد - كما سنرى - وكان حاداً عنيفاً معه، بقدر حدة هذا الأخير وعنفة، لكن ذلك لم يمنعه فى مواضيع أخرى من إظهار تقديره له، غير أن السنهورى كان أكثر ما نال تقدير أحمد بهاء الدين، وكثيراً ما تحدث عنه بإجلال شديد، يقول عنه بعد الإشادة بكتبه وفضله:

«إن هذا الرجل قد (تشرب) روح القانون، حتى عقله لا يتحدث ويعمل فى الكبيرة والصغيرة إلا وقد نهل من هذا المنبع .. (و) .. أى حكاية يأتى ذكرها، لا تلبث إذا علق عليها أن تجدها وكأنها كانت كومة من الأشياء، وقد انتظمت فجأة ووضعت كل جزئية فى

مكانها بسحر ساحر. (شرعية ص ٢٥).

وبدهى هنا أن السهوى كان أقرب إليه بحكم تقارب الطبيعتين فكلاهما يقترب من فكرة الإصلاح، وكلاهما يحب التغيير الهادئ الرزين. وتلح علينا دائماً في معرض الإشارة إلى تكوينه أنه كان شديد الاعتدال، هادئ التكوين، ومن هنا أيضاً، كان قد اختلف مع زكى عبدالقادر وعمل معه فترة طويلة لتقارب المشارب والاتجاهات.

وفى هذا لا نستطيع المرور على جيل آخر من علماء الدين اختلف مع بعضهم، غير أن تأثيرهم فيه كان أكبر من أن ينكر، من أمثال أساتذته فى كلية الحقوق فى الأربعينات: الشيخ عبدالوهاب خلاف والشيخ على الخفيف، ثم الشيخ محمد أبو زهرة.. وهو ما سيبدو فى الحقة التالية.

ج - روح القانون

ولابد من تخصيص حيز للتمهل عند القانون لعمق التأثير به، ومن ذلك أنه حين احتفلت جامعة القاهرة بمرور مائة سنة على إنشائها، يتذكر أن الأثر الذى تتركه كلية الحقوق فى نفس تلميذها لا ينمحي..

«إننى إذا كنت قد تركت العمل بالقانون إلى مهنة الكتابة والصحافة بعد حوالى خمس سنوات فقط، إلا أننى اكتشفت فجأة، أننى ما زلت أشتغل بالقانون من ناحية.. (و) .. لأننى دائماً أجد نفسى متلبساً بالتفكير فى أى موضوع

المؤثرات

بطريقة (قانونية) .. أو بطريقة متأثرة بالفكر القانوني إلى حد بعيد. (ص ١٩ ، ٢٠) .

وهذا التأثير بروح القانون لدرجة العشق يعود إلى تكوينه الآخر المرتبط بوعى المثقف، فهو يرى أن قضية القانون هي (الحق والواجب) . ويضيف:

«لا أذكر مهما حاولت التذكر أن أمراً استبد بي منذ البداية، أكثر من تلك القضية: الحق والواجب، الظلم والعدل. وبالتالي الإدارة في كل هذا هي القانون» . (٢١) .

وهو بعد أن يفسر أنه لم يستطع أن يمارس القانون داخل المحاكم لتكوينه «الانطوائى»، يرى أنه حين قفز من زورق الحمامة إلى زورق الصحافة، والكتابة، إنما كان يوالى البحث عن الحق والواجب والقانون بمعانيها الأوسع. (٢٢) .

إنه يرى أن تأثير القانون عليه فاق أى تأثير آخر.

فقد تعلم طريقة خاصة في التفكير، ومن يجوب الفكر والأدب يجريه، وقد ربطه التفكير القانوني بأرض واقعية معينة إلى آخر ما يصف به هذا المؤثر الهام في كيانه .

د - فكرة التنوير

ربما كانت فكرة التنوير لديه أكثر ما تميزه عن جيله، وهي وإن كانت

: سمة من سمات الجيل السابق عليه، فإنها أصبحت أكثر أهمية في النصف الثاني من القرن العشرين لتعاظم المد السلفي، واختلاط المفاهيم.

كانت فكرة التنوير لديه تتمشى مع احتياجات المرحلة، فيهتم بالتقدم، ويشدد على العقل، وينظر الحكماء الجدد من التيار السلفي بشجاعة، وقد كان مدركاً أن القرن الثامن عشر في أوروبا أكثر القرون تنويراً وإن كان يجب أن نعيش في قرننا العربي العشرين - كما سنفصل فيما بعد - ونحن نستعير العديد من الأفكار العصرية، ومن هنا تشرب كثيراً من أفكار المتنورين الغربيين: عقلانية لوك، قوانين روسو، حرية فولتير... وما إلى ذلك.

لقد تكون أحمد بهاء الدين أقرب إلى هذه الصفوة العلمية المتطورة التي نشأت في العالم عقب الحرب العالمية الثانية، والتي كانت نائمة على كل التقاليد والجمود مهما تكن هذه الصفات، وهي صفوة تقترب إلى حد بعيد من مصطلح الفن الطليعي Avant - Garde بما تعنيه من نزعة حادة للتغيير^(*).

ويبدو هذا منعكساً في أسلوب التعبير سواء في الأعداد الهائلة من الكتب التي لخصها وقدمها للقارئ بقدر كبير من التمرد، أو بعرضه لعدد من المسرحيات، بل والأفلام السينمائية بنفس المنهج، بل يبدو ذلك أكثر وضوحاً في تكوينه المشبع بالفن التشكيلي والرسم وحسه الفائق بفن الديكور

Confronce International Sociological association, Can- (*)
da1982.

المؤثرات

والأثاث، وانتقائه للأثاث القديم (محضر نقاش مع زوجته وزملائه لسنوات طويلة في عديد من المؤسسات الصحفية كالفنان حلمى التونى والكاتب مصطفى نبيل) .

ومراجعة اهتمامات أحمد بهاء الدين ومؤثراته الأولى ،يرينا أنه كان دائم ارتياد المعارض الفنية .. فيذهب من آن لآخر لمناطق مجهولة متخصصة فى (الأرابيسك) العربى القديم - حى العطارين بالإسكندرية . (مجلة نصف الدنيا ٢٥ فبراير ١٩٩٠) ، يختار أغلفة المجلات التى يشرف عليها بنفسه ، ويلمسة فنية بارعة ، يكتب فى العمران والموضة والإعلانات .. وما إلى ذلك من المؤثرات التنويرية الخالصة لديه ..

ويدهى أن هذا كله فى الإبداع، الذى يتميز به «المفكر» حين يمارس الكتابة، وهو ما نتهمل عنده أكثر ..

ثانياً

الخصائص المميزة

... هل هم يفضلون تسليم البلد...؟...
(أحمد بهاء الدين)

تمهيد:

الإبداع هنا، هو الخلق الفنى، وينصرف بمجالة إلى الأجناس الأدبية والفنية من شعر ورواية وقصة وتصوير وفن تشكيلي.. وما إلى ذلك.

والفكر، هو، التفكير التقريرى Convergent Thining، وينصرف بمجالة إلى النشاط الفكرى الخالص من تفكير تجريبى، وعلوم طبيعية أو رياضية أو بحث علمى.. وما إلى ذلك.

ومن الطبيعى أن ينتمى كاتب مثل أحمد بهاء الدين إلى جانب الفكر، حيث يمتلك نشاطاً فكرياً، استدلالياً.

غير أن التأمل الدقيق لخصائص الفكر لديه، على مدى نصف قرن، يشير إلى أنه ينتمى إلى الجانب الفكرى بقدر ما ينتمى إلى الجانب الإبداعى رغم تحدد الشكل الذى يكتبه، إذ أن كتاباته لا تخلو من شرارة إبداعية تسهم فى تحديد أفكاره، وتحدد المجال النفسى لديه، وترسم - أكثر - خصائص تكوينه الفكرى.

هذا يعنى أنه يمتلك خصائص الإبداع الفكرى الذى يجمع بين الإثنين: الحدس والاستدلال، ففى حين يجمع مع المتخيل، نراه يركن إلى العقل، بما يمكن أن نقول معه أنه يميل إلى معالجة موضوعه بقدر كبير من

العناصر التي يستطيع أن يصيغها في (صيغة) واحدة.

وتمدنا نتائج البحث العلمي في مجال السلوك النفسى بما يمكن أن يسهم في الاقتراب من هذه (الصيغة) والتعرف عليها، ذلك أن الإبداع لا يقتصر على الخيال والحدس وحسب، وإنما - أيضاً - يصل إلى البحث العلمى المجرد، بل إن الإبداع عند المفكر أو الباحث العلمى لا يقل أهمية ولا خطورة عن الإبداع في مجال البحث العلمى تفوق خطورته كل ما يمكن أن نتصوره من أهمية. . . وهو ما يقترب بنا أكثر من طبيعة هذا الإبداع.

(١)

وقبل أن نحاول تفسير هذا النشاط المميز من الإبداع، ثمة ملاحظة هامة لابد من الإشارة إليها، يقدمها لنا السلوك الإبداعى، وهى ترتبط بالنشاط البيولوجى، وهى تتلخص فى أن طبيعة التفكير الإنسانى فى المخ البشرى تشير فى مجملها إلى وجود نوعين من هذا النشاط، أحدهما يختص به الجانب الأيمن من المخ، والآخر يختص به الجانب الأيسر. . ونشاط الجانب الأيمن من المخ هو الذى يطلق شرارة الإبداع لأنه هو الجانب الذى يعمل بطريقة شمولية معتمداً على الحدس والخيال والصور الحسية، على حين يعمل الجانب الأيسر بطريقة منطقية استدلالية تتابعية. . (مجلة دراسات نفسية، القاهرة، ٩١/١/٩١، دراسة د، مصرى وعبدالله هاشم، ص ٩٧).

وهذا يعنى فى دراسة السلوك الإبداعى أن التحليل العلمى يظل للجانب الأيمن من المخ فى نشاطه المحدد، وفى نسق مفتوح، فى حين أن للجانب

الخصائص المميزة

الأيسر نشاطه المحدد فى نسق مقلق .

وفى حين يشغل الأول بالخيال التهويمى ولا يلتزم بالواقع، ولا يتوقف عند بناء منطقى أو نسق رياضى، فإن الآخر - الأيسر - يشغل بالقضايا المنطقية والرياضية، أو التى تصف الواقع وصفاً دقيقاً دون إدخال أى متغيرات خيالية، وقد توصل علماء النفس الإبداعى إلى عديد من النتائج التى تؤكد ثبات هذا المفهوم .

وهو ما يصل بنا إلى الملاحظة المحورية هنا، وهى أن أحمد بهاء الدين وإن امتلك جانبى المتخيل والفكر فى جانبى المخ، فإن الجانب الأيسر - كما سئرى - يكون لديه أكثر نشاطاً وأبعد أثراً .

وسوف ينصب جهدنا فى هذا على سمة التفكير التى تميزه عن سواه، وعديداً من الخصائص المميزة له، وما يستحوذ عليه فى هذا الصدد من قدرات، على أن تكون المقاييس التى نعتمد عليها مستمدة مما يلى:

أ - أعماله ومقالاته المتوالية .

ب - حواراته وخطوطه .

ج - ملاحظات خاصة لقريبى منه .

د - مقابلات مع زوجته وزملائه .

وقد يكون من المهم قبل أن نصل إلى الخصائص المميزة لديه أن نشير إلى ما يسمى فى هذا الخصوص (بالأساس النفسى الفعال) بما يقترب بنا أكثر من هذه الخصائص .

(٢)

لا يمكن أن يكون إنتاج أحمد بهاء الدين منفصلاً عن الخصائص التي أسهمت في تكوينه. ومن هنا، فإن التعرف على طبيعة هذه الخصائص يحيلنا إلى ما يطلق عليه (بالأساس النفسي) كنقطة ارتكاز لا بد من الاقتراب منها قبل كل شيء.

والأساس النفسي هي «الحالة النفسية التي تتكون لدى الإنسان على مدى حياته الطويلة وتكون مسئولة عن تشكيل كل تصرفاته ودفعها في طريق ذي مدى يتناسب مع فاعلية هذا الأساس، بل إن طبيعة العقل الإنساني نفسه، وما ينتج عن هذا العقل من آثار يجيء مشبعاً بخصائص الأساس النفسي الفعال وحاملاً بصماته..» (مصرى حنورة، سيكولوجية التذوق الفني، دار المعارف ٨٥، ص ٢٨).

وهو ما يقترب بنا من عالم أحمد بهاء الدين..

فالجانب الذهني يشير لديه إلى قدرات عقلية وذهنية عالية، مما يقترب فيها من خصائص النصف الأيسر من المخ ويعبر عنه بما يتميز به من استدلال وتجريد وتحليل نجدهما في أعماله الأولى خاصة.

ففي كتابه: «النقطة الرابعة» - ١٩٥١ - نجده حريصاً على رسم «سيمترية» دقيقة لهذا المشروع الأمريكي، وكأنه يصنع مشروعاً مطابقاً له ومغايراً معه في آن واحد بالشكل الذي يريدنا أن نفهمه به، ولا يلبث أن يوالى أفكاره المرتبة ليدلل على فساده، وقدر الأطماع الكثيرة التي تميز عصر هذا الاستعمار الجديد، وذلك تحت عنوان (البرنامج على حقيقته)،

الخصائص المميزة

ولا يلبث في نهاية الكتاب أن يستعيد ما فصله ويعيد بلورته مجعلاً ما أرادته منذ البداية في فصل محدد سماه (... بالأخير)، منتهياً بسؤال يحمل إجابته لهؤلاء المسؤولين فينا والذين يدعون للاستعمار الأمريكي بين ظهرانيها (.. هل هم يفضلون تسليم البلد...؟) (النقطة الرابعة ص ٩٢)

أما الجانب الوجداني، بما يلعبه في نسق مفتوح يسهل به التعامل مع خصائص انفعالية، وميول خاصة به لا يمكن أن نفصلها عن الجانب السابق له، وإن كنا نستطيع الاقتراب منها في هذا السياق من التوتر الزاحف المستمر، وهو ما نجده - على سبيل المثال - في مقالته (خطاب إلى المرأة المجهولة) الذي يبدو فيه متأرجحاً بين الجانبين: الحذر والاستدلال، وإن بدا الجانب الوجداني مسيطراً عليه وهو يكتب لهذه (القارئة) التي لا تنى تحرك البحيرة الجامدة في أعماقه، وقد لا يخلو من مغزى أن يبدأ رسالته بكلمة (يا آنستي) ويعيد نشرها بعد الصحيفة أو المجلة في كتابين نشرها له (مبادئ وأشخاص وأفكار معاصرة) ..

كذلك يبدو هذا الجانب بولعه الشديد بالجوانب الدافئة في المعارض التشكيلية التي كان يحرص على ارتيادها، ويسر لأحد زملائه الفنانين بأنه درس الفن لكنه يقف فيه عند المرحلة الانطباعية بوجه خاص (حلمي التوني، لقاء شخصي)، ولا يتردد أثناء إخراج المجلة التي يشرف عليها عن اختيار الألوان التي تشير إلى أثر هذا الجانب وأهميته لديه.

أما الجانب الجمالي، فهو يبدو في اختياراته الخاصة، فمن حوله كان يشير إلى استيلاء هواية ترتيب الصور وتنسيقها في الفضاء الجداري، كما

كان يحسن اختيار اسكتشات الفنانين ويحتفظ بالكثير منها، كذلك، كان يحرص على الذهاب إلى المناطق القديمة التي تعرف بأشكال الأرابيسك العربي وتطريزاته البديعة (حلمى التونى، عبدالغنى أبو العينين، لقاءان).

وهذا الجانب الجمالى هو الذى يقرب بينه وبين مدرسة من الفنانين الذين ظهرُوا فى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، وعرفُوا بأصحاب الفن الطليعى، حيث يعبر الفنان بألوانه المميزة عما كان يحس به من غربة فى المجتمع حينئذ.

أما الجانب الاجتماعى، فلنلاحظ الخبرة المميزة له فى المجال الاجتماعى، سواء بانتمائه إلى الطبقة الوسطى ممن كان يطلق على موظفيها (بالمستورين)، ثم انغماسه بشكل مستمر فى التيارات الاجتماعية التى ظهرت فى نهاية الأربعينيات، والمد الاشتراكى فى الخمسينيات، وكثيراً ما كان يردد أن أهم القضايا لديه كانت القضية الاجتماعية.

وقد أكد أحد تلاميذه أن العلاقات الاجتماعية، كانت تستحوذ على مساحة شاسعة فى فكره، حتى أنه كان دائم التعرف على زملائه، دائم الربط بين أسرته وعديد من الزملاء أو الأصدقاء اجتماعياً.

وعلى ذلك، فإن جوانب الأساس النفسى تأتى على اعتبار أنها بطانة للعمل الإبداعى، تترك بصماتها على العمل نفسه، بحيث يجرى متماسكاً. - كما تؤكد خبرات علم النفس - بما يضاف على خصائص الكاتب سمات (بهائية) خاصة به.

(٣)

وإذن، سوف نلاحظ أن خصائص أسلوب أحمد بهاء الذين يغلب عليها جانبي المخ، الأيمن والأيسر، الحدس والاستدلال، أيضاً، تم نسج خيوط الأساس النفسي في نسيج خاص به..

وقد تمكن من صياغة ذلك كله في أسلوب واحد بما يمكن القول معه أنه نجح في الوصول (بخطابه) إلى المتلقى..

وهو ما نحاول تفصيله في فكر أحمد بهاء الدين؟

تتعدد الخصائص المميزة له حتى يبدو أنه من الصعب الجمع بينهما، ومع ذلك، سوف نحاول أن نحدد أهمها على النحو التالي:

المغامرة الفكرية

تميز أحمد بهاء الدين بأنه مفكر مغامر، أي لا يتردد في طرح قضية غير مألوفة، وعلى قدر كبير من الجرأة على الآخرين دون تحسب للنتائج، وهو يفعل ذلك سواء في مواجهة علماء الدين التقليديين أو الجمهور الواسع..

ومن ذلك، حملته العنيفة على الفاسي.

وشمس الدين الفاسي هو المواطن السعودي الجنسية والمغربي الأصل، الذي جاء إلى القاهرة على اعتبار أنه رئيس المجلس العالمي للصوفية، بينما لا تزيد مكانته عن

درويش جاهل لا يملك غير أكوام من المال .

لقد كتب يهاجم هذا الفاسى هجوماً عنيفاً، ويهاجم شرطة المطار المصرى التى سمحت له بالدخول والخروج من وإلى البلاد، ويهاجم وزير الأوقاف المصرى .. فالأحداث المرتبطة باسم الناس وأمواله وأنباؤه تملأ الصحف، وثمن آثارها معتدة من لوس أنجلوس إلى فلوريدا إلى لندن إلى سيريلانكا والآن إلى القاهرة . «يومية مخطوطة لم تنتشر»، وبعد ذلك كله يتقدم لينشر فى جريدة الأهرام فى (يومياته) ويكون أن ترفض الأهرام النشر، فيغضب، وتطلب منه الجريدة (يومية) أخرى، فيرفض أن يكتب إلا بعد أن ينشر ما كتب، ويلهج أنصار الشيخ، وبعض المستفيدين بلوم الكاتب والهجوم عليه، ويعتصم لفترة فى منزله حتى يتم تطييب خاطره .

أيضاً، فإنه كان أول من طلع على الناس فى منتصف الستينات بكتاب جديد يشور فيه إلى أن الصراع بين العرب وإسرائيل إنما هو صراع حضارى فى المقام الأول، وليس عسكرياً، كما كان شائعاً. ولأن هذا الكلام لا يتردد لأول مرة، فقد كان وقتها غريباً على الأذان العربية، وقد اعتبر البعض - كما يقول - إن هذا الكلام ينطوى على دعوة للمهادنة ولو لفترة من الوقت .. (و) .. ذهل البعض لأنهم يكتشفون حقيقة جديدة رغم أنها محيطة بهم من كل جانب، ورفضها البعض (محاوراتى، ص ١٥٣)، ويذكر بهاء الدين هنا للتدليل على هذه المغامرة كان رفض أنور السادات بنفسه، رغم أن السادات عاد بعد ذلك بقرابة عشر سنوات ليردد مثل هذا الكلام فى زيارته للقدس .

الخصائص المميزة

ونحن لا نقارن بين الموقفين هنا، فلا علاقة بينهما، وإنما نشير إلى جسارة الكاتب في طرح فكرة كان البعض يعتبرها موقفاً مضاداً للتوجه العربى في ذلك الوقت، وقد كان عليه أن يعيد قول ذلك بعدها بسنتين على وجه التقريب، فعقب هزيمة ٦٧ بعدة أسابيع كان هو الصوت الذى ارتفع ليتحدث فى أعلام الدولة الرسمى - وقد كان مسئولاً عن مجلة «المصور» - عن (الفجوة الحضارية) بيننا وبين إسرائيل، بما يحمل ذلك من جرأة فكرية واستشراف لما سوف يأتى فيما بعد.

شجاعة التعبير

وهى اللمسة الثانية التى لا يمكن أن نخطئها فى أكثر من موقف. ومن ذلك، أنه لم يتردد فى السنوات الأولى من ثورة ١٩٥٢ من أن يتخذ موقفاً شديد الشجاعة غير متسق مع توجهات الدولة فى فترتها الأولى، بل إن شجاعته وصلت مداها عقب هزيمة ٦٧، وقد كان نقيباً للصحفيين المصريين، إذ أنه إبان مظاهرات الطلبة، والاضطرابات الشديدة، التى شهدتها البلاد إثر التحدث عن نكسة (لا هزيمة)، أصدر بياناً على مسئوليته الخاصة، ويخضوع أعضاء مجلس النقابة، تحدث فيه عن مبادرات يكفى أن نشير منها إلى الآتى:

«أولاً: الإسراع فى الحساب من كل المسؤوليات الكبرى،
وتقييم هذا الحساب حتى يشمل كافة القطاعات والمؤسسات
فى البلاد.

ثانياً: إعادة التنظيم السياسى واستكمالہ .

ثالث: توسيع قاعدة الديمقراطية والمشاركة فى اتخاذ

القرارات داخل التنظيم السياسى .

رابعاً: الإسراع بإصدار القوانين المنظمة للحريات العامة

والتي تكفل الضمانات الضرورية .

خامساً: إجراء الانتخابات للجان النقابية ومجالس النقابة

التي لم تنتخب بعد .

سادساً: ترتيب النتائج التي يجب أن تترتب على وجود

عدو يحتل جزءاً من أرض البلاد ، واستمرار حالة الحشد

فى مجالات الاستعداد النفسى والمادى والاقتصادى، على

أن تتحمل العبء كل الفئات التي يجب أن تتحملة، .

(بيان نقابة الصحفيين، محضر اجتماع ١٩٦٨/٢/٢٨ .

محضر اجتماع غير منشور، انظر الملاحق) .

وقد طالب هذا البيان بجملة أمور كانت تعتبر فى عرضها على القيادة

السياسية فى مثل هذا الظروف تهويراً شديداً. منها المطالبة برفع الرقابة على

الصحف، وتشير- بما لا يدع مجالاً للشك - إلى الجماهير على أنها قد

خرجت فى مظاهرات من أجل إزالة الفساد والتغيير الملح.. وقد كان لهذا

البيان أثر سىء لدى جمال عبدالناصر شخصياً، إذ كانت الظروف تحتم -

من وجهة نظره - الصمت قليلاً حتى يمكن الخلاص من بعض العناصر

التي تسعى إلى الفوضى العامة .

وهذه شجاعة فى التعبير عن الرأى فى أكبر أزمات حياتنا السياسية المعاصرة لا يمتلكها الكثير.

ومن ذلك، أيضاً، أنه عقب صدور قانون الانفتاح عام ٧٤، ورغم أنه كان أحد أهم المقربين من الرئيس السادات، لاحظ سوء تطبيق هذا القانون. والآثار التى سوف يلحق بها بالبلاد، فلم يتردد، وقد كان مسئولاً عن جريدة الأهرام، عن أن يكتب فى الصفحة الأولى مهاجماً هذا القانون الذى صدر بقرار جمهورى وبمباركة السادات نفسه، كان عنوان المقالة: «الانفتاح.. ليس سداح مداح» (١٢ يوليو ١٩٧٤)، فأثارت ضجة كبرى ضد النظام ومن رئيس الوزراء نفسه د. حجازى، الذى لحق به غضب شديد (محاورأتى مع السادات، ص ١٩٧٩).

وهو ما استتبع - بالتالى - غضب الرئيس السادات، الذى كان يعرف كيف يخفى غضبه أكثر من الآخرين، غير أنه من المؤكد أن هذا المقال كان من أهم الأسباب التى عجلت بغضب السادات منه فمنعه من الكتابة، ورفض كل محاولات من حوله لمقابلة أحمد بهاء الدين فيما بعد.

نستطيع أن نشير، فى نفس السياق، إلى جرأته الفكرية ضد من تحدث عن ليلة القدر بطريقة ميثولوجية تبتعد عن العقل المجرد، فراح يصف صحفى ومسئول مثل أحمد زين (بالأخبار) بأنه (الصحفى الدجال) الذى ضبط متلبساً بالتزوير (أهرام ٢/٣/١٩٨٢)، بل لم يتردد فى أن يعارض الشيخ الشعراوى بما له من رصيد هائل لدى الجماهير وسيطرة طاغية بحكم تفسيره البيانى وطريقته الخلافة فى السيطرة على أفئدة البسطاء، إذ راح

يناصبه العداء لأنه - أى الشعراوى - استنكر إدخال الكهرباء فى الريف المصرى، لأنه يسئ إلى الفلاح ويقتل من إنتاجيته .. إلى آخره، كذلك راح يهاجمه بعنف مرة أخرى لأنه استنكر الاستفادة بأعضاء الجسد طبياً فى العمليات الجراحية (فى ٣١/٣ - ١/٤ / ١٩٨٩). وهذه الشجاعة التى تصل إلى حد التهور أحياناً لمن تنقصه فى كثير من المواقف الأخرى .

وهما ما يقترب بنا من سمة وثيقة الصلة بها .

روح المقاتلة

فإلى جانب تهوره أو شجاعته (ولا فارق بينهما عنده)، كنا لا نخطئ صلابه الرأى، وروح المقاتلة إلى مدى بعيد .

وقد كان فى ذلك يوالى تحديه دون أن يفقد - مع مرور الزمن - الشجاعة التى تصل إلى حد القتال، ويرفض - فى المقابل - المهادنة فقط .

وربما كانت الأمثلة التى تشير إلى ذلك تقع فى دائرة رفض الخوف والخرافة، وإعلاء شأن العقل والاجتهاد، البشرى، أن أن موقفه «التنويرى»، أكثر ما يتميز فى هذا الصدد .

وحسبنا أن نذكر - على سبيل المثال - موقفه من حرية المرأة واستقلالها .. ودفاعه الشديد عنها، ورفضه العنيف لأى رأى يرفض هذا الموقف، وربما كان أبلغ مثال على ذلك موقفه من عباس العقاد،

الخصائص المميزة

واصطدامه به فى عنف شديد، لقد وصف العقاد فى سبيل ذلك بأنه «رهيب.. مخيف، ومكارثى»، بل وصفه وصفاً لا يجرؤ أحد على وصفه به حين قال عن أفكاره بأنها (هستيريا) .. وما إلى ذلك من الألفاظ رغم معرفته عنه أنه لن يتردد فى الرد عليه بعنف.

يقول بهاء الدين:

«الذى يعنى مثلى هنا.. هو تلك الهستيريا التى استولت على العقاد، فأصبح يرى أن كل من يخالفه فى رأى أو أن كل من يقذف محرابه بحصاه (شيوعى) .. وإن كل فكرة يرفضها، أو يعجز الإيمان بها .. شيوعية.

هذه الهستيريا تذكرنى أحيانا بوزير حربية أمريكا السابق. جيمس فورستال، الذى فقد عقله، ونقل إلى مستشفى المجاذيب، فكان كلما رأى مخلوقا أسرع يختبئ تحت السرير وهو يصيح: (الجيش الأحمر) .. فالعقاد لا يكاد يتعرض له أحد بالمناقشة حتى يسرع بالاختباء حول ستار من السباب ويصيح: الشيوعيين!... (مبادئ، ص ١٠٤).

والى مثل هذا يندفع أحمد بهاء الدين ليهاجم الشيخ محمد أبو زهرة، وقد كان يتمتع بنقوذ دينى كبير، كما كان من بين أساتذته فى كلية الحقوق حين كان يدرس، ومع ذلك، فحينما تعرض لرأى الشيخ فيه وفى المرأة، راح يهاجمه بطريقة وصلت فى العنف الشديد إلى أقصاها، إنه يكتب عنوان مقالته: «لا يا شيخ؟؟»، ثم يمعن فى العنف والسخرية من الشيخ مع

عناوين الفرعية:

، التخطيط كفر.. لأنه تدخل فى إرادة الله / النشرة الجوية
حرام.. لأنها تتجيم ورجم بالغيب / كل امرأة مستعدة لبيع
نفسها لولا مراقبة الرجل، .

ثم يصل فى تطاوله إلى درجة بعيدة، فهو يرى الشيخ من أولئك
(الناس) الذين يريدون أن يحتكروا تفسير الحياة، الذين يحسبون أن الآيات
القرآنية عجيبة فى أيديهم، يكتفونها كيفما تشاء لهم عقولهم.. المتحجرة فى
أغلب الأحيان..

ثم يصل فى ذلك إلى درجة أبعد من أن احترامه للشيخ لا يعود إلى
علمه أو موقفه، وإنما إلى سته فقط، وإنه من أولئك الذين عاشوا حياتهم
أسرى بين جدران كتب معينة محدودة، ثم يهاجمه بعنف حينما يقول:

«ألا تلاحظون معى أن هؤلاء المشايخ لا يكاد يعنيه شئ
فى الوجود إلا المرأة؟

ألا تلاحظون أنهم أكثر الناس تفكيراً فى المرأة؟

أليس هذا غريباً حقاً؟

ألا يحتاج هذا إلى محلل نفسى.. أكثر ما يحتاج إلى جدل
عقلى؟

الأغرب من هذا أن ما يعنى هؤلاء المشايخ من المرأة ليس
الإنسانة، ولكن (العورة)، المرأة فى عقلهم الباطنى مخلوقة
حقيرة مستعدة أن تبيع عرضها لأول عابر سبيل، إذا غفل

الرجل لحظة واحدة عن حراستها!!!..

المرأة فى مفهومهم لا تصلح إلا لشيء واحد، هو أن تسلم
نفسها للرجال..

... (و)

الجنس.. والجنس وحده يدوى فى تفكيرهم دائماً
ويستمرار..

تفكير مكبوت محصور منحرف... (أخبار اليوم
١٩/٨/٦١).

ويظل بهاء الدين ينازل الشيخ بشراسة فيتهمه معرضاً له فى فترة المد
الاشتراكى بأنه:

«لا يطبق حكاية الطبقة الواحدة.. وإن بلادنا فى عيون
الشيخ هى التى يجب أن تعود إلى الوراء، ولذلك فهو
يفضح نفسه، كما أنه يمجّد الفقر ويضرب أمثلة بهذا الشيخ
الى يرى أن النشرّة الجوية حرام. ويظل يوجه سلاح النقد
والتشهير..»

وينهى مقالته العنيفة بهذه الجملة:

«إن الذين يعملون على رقى بلادهم. وتحرير
مواطنيهم، وتطوير مجتمعهم، أعرف بروح دينهم
من محترفى التلاعب بالنصوص وتلبيسها معانى

مزورة ثلاثم عقدهم النفسية لا أكثر ولا أقل،
وهى الروح التى سرت دائماً فى مواقفه ومعاركه الفكرية..

الاستعداد للتنبؤ

كان حسه المرهف فى استشراف المستقبل ما لا يمكن إنكاره .
فإلى جانب عديد من المواقف الواعية كالتمهل عند (التحدى الحضارى) أو سقوط الأيديولوجيات .. وما إلى ذلك، فإن كتاباته فى أول الستينيات على أزمة الكويت وغزو العراق لها يثير كثيراً من التنبه إلى الموقف الذى اتخذته أحمد بهاء الدين، وهو موقف يحمل وعياً استراتيجياً لا يمكنه إغفاله .

إن التمهّل عند أزمة الكويت عام ٦١ وتهديدات عبد الكريم قاسم حملت (نبوءة) ما سوف يحدث - فيما بعد - فى أزمة الخليج ٩١ بما يقترب من التطابق فى الأحداث والنتائج والدلالات .

ومراجعة كتاباته فى هذه افتره من بداية عام ٦١ ومنتصفها يروعا حجم التفصيلات وقابليتها للتكرار فى أية فترة تالية .

لقد رأى بهاء الدين السيناريو الذى بدأه قاسم فى الستينيات، ومثيله فى التسعينيات، ووجد الشبه فى الملابس والمقدمات، ومن ثم انتهى إلى التطابق فى النتائج . فى حين أنه توقف عن الكتابة تماماً قبل الغزو العراقى الأخير بعدة أشهر بحكم مرضه .

وقد كانت درجة التحليل العلمى تدفع بنا إلى اجتزاء مساحات شاسعة منها بهدف التأكيد على (التنبؤ) لما حدث فيما بعد وإن كان هدفه المعلن هو التوقف عن الأزمة الأولى بغير التطرق لغيرها.

وبغريتنا هذا القدر من الوعى والاستشراف باجتزاء مقاطع كبيرة من كتاباته الأولى بدون تعليق لنقرأها، وكأننا نقرأ فى تفصيلات الأزمة الأولى الدور الأمريكى، فى الثانية، مع وضع فى الاعتبار أن الأمريكيين حين جاءوا فى المرة الثانية كان فى ركابهم حلفاؤهم وخاصة (الانجليز)، نقرأ بهاء فى الأزمة الأولى، يقول:

«الأمر لا يخرج عن احتمالين..

الأمر الأول أن يكون غلطة سياسية كبرى ونوعاً من عدم الحذق فى تقدير أثر كل حركة. وهذا على أى حال لا يقلل من مسؤولية الكارثة.

والأمر الآخر هو أن يكون للبريطانيين دور إيجابى فى دفع قاسم إلى اختيار هذا الأسلوب بالذات (هل نذكر جلاسبى وصدام؟).

وهى كلمة يجب ألا نطلقها بسهولة.

وأنا شخصياً لست ممن يحبون إذا احتاروا فى تفسير أى أمر أن يقولوا إن البريطانيين مسؤولون.. وانتهى الأمر.

ولكن احتمال قيام البريطانيين هنا بدور إيجابى فى دفع قاسم احتمال قائم بشدة، وإن المكاسب الضخمة التى

كسبها البريطانيون بهذه الأزمة في سهولة لا حد لها، لهم
إغراء ضخم بالبحث عن إصبع البريطانيين وراء هذه
الأزمة.

وتكن .. كيف ؟؟

لا يذهب أن يكون البريطانيون قد ذهبوا إلى قاسم وقالوا
له .. اصنع هذه الأزمة لكي نرسل قواتنا إلى الكويت ..

ولكن هناك أساليب أخرى في الوصول إلى نفس النتيجة .

فبالرغم من كل ما حدث في العراق إلا أنه من المعروف
والمؤكد أن أقوى جهاز بريطاني للمخابرات في المنطقة
كلها ما زال موجوداً في العراق إلى الآن .. وأن بريطانيا
ما زالت تتحكم في شبكة ضخمة من العملاء هناك ،
وبواسطة هؤلاء العملاء المندسين في أجهزة كبيرة ، ربما
تكون أقرب إلى اللواء قاسم مما يتصور ،

تستطيع بريطانيا أن (تحدث) تأثيرات معينة وأن تحرك
تيارات كثيرة ، تستطيع أن تلقى الفكرة وأن تقدم ما يعززها
من تقارير صحيحة أو زائفة .

ومن الممكن جداً أن تكون فكرة (غزو الكويت) قد ولدت
في بغداد بهذه الطريقة ..

وأن تكون قد عززت تقارير أو تأكيدات مضللة من رد فعل
البريطانيين إلى آخره .

ونستطيع أن نلاحظ في ذلك الوقت - كما لاحظ بهاء الدين - أن كثيراً

من الصحف الأوروبية نفسها أكدت أن الاستعداد البريطاني لإرسال القوات إلى الكويت بدأ قبل إعلان قاسم بقليل.

وكما أنه يمكن أن يكون للبريطانيين دور في ذلك. كذلك، من الممكن ومن الأسهل أن نتصور تدخلهم لدفع نغمة الدعاية العراقية إلى الحدود الحمقاء التي بلغت.. أى لاتخاذ أسلوب حرب الأعصاب المثيرة، بدلاً من الأسلوب السياسى المتزن..

والغرض، هو فرصة سانحة لكى يبعثوا بقواتهم المسلحة إلى الكويت (لقد ذكرت التقارير، بما فيها تقارير أجهزة المخابرات الأمريكية وأجهزة الكونجرس بمجلسه إبان أزمة الخليج ٩١ / ٩٢ هذا الدور لأمريكا) ولا يتوقف الأمر عند بهاء الدين فى كيفية بدء الإنجليز خداع حاكم العراق فحسب، وإنما وصلت البدايات المدبرة إلى غاياتها، حين هبطت القوات الإنجليزية إلى الكويت أو (غزو الكويت)، فتحددت الأهداف الاستعمارية فى عصر ما بعد الاستعمار. فى عدة أهداف يجمل بعضها الكاتب فيما يلى:

بالنسبة للأهداف القريبة المباشرة نجد أن بريطانيا قد تحقّق لها من الأهداف، ما يجب أن تقر به عينا، وتسعد. فهي قد حفرت فى نفوس الكويتيين - حكومة وشعباً - حفرة عميقة من الشك والارتياب فى جيرانهم. وأقنعتهم إقناعاً عملياً بأن استقلالهم - وثراؤهم - مهددان ومحوظان بالأطماع: وإنهم محتاجون إلى علاقات أخرى

. أقوى وأوثق مع بريطانيا بوصفها القوة التي تستطيع أن
تهب لنجدتهم بسرعة وبدون تحفظات.

وهي قد ألفت نفس الشك والقلق والخوف المبهم في نفوس
كثير جداً من الفئات في سائر الخليج العربي.. والخليج
العربي في قضايا كثيرة زاحفة، تتلمس طريقها إلى حلول
جديدة بدلاً من وضعها الراहत تحت الاستعمار (السابق)..

وكما حدد بهاء الدين المقدمات، ووصل إلى النتائج النهائية (الأهداف)،
فإنه انتهى إلى ضرورة أن تعود القوات الإنجليزية من حيث جاءت وتترك
الكويت، ولكن بعد أن تكون قد حققت ما تريد، فأهدافها قد تحققت كلها،
ولن يزيدها البقاء تحققاً.

إن التنبؤ بما سيحدث أو ما يسميه (الاحتمالات) كان يشي بقدرة الكاتب
المذهلة على ما سوف يأتي من أحداث، ورغم وجود العوامل المختلفة
كتأثير الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت - على سبيل المثال - غير أن
التحليل الأخير يشيد بالقدرة التي توصل بها إلى ما حدث وما (سوف)
يحدث.

وهو ما يقترب منه أكثر في مقالته التالية..

إنه يتحدث عن المشيخات والسلطات الجديدة في الخليج، ويتحدث عن
الخليج على أنه «أرض الصراع الجديد!!»، متقدماً خطوات أخرى حين
يتحدث عن الدولة الأجنبية الأخرى التي لها مصالح كبيرة في المنطقة،
وهي تمهد في فترة الستينات لتكون صديقة لعدد من أمراء هذه

الخصائص المميزة

المشيخات، وهذه الدولة هي التي يسميها «يونيتد ستيت»، «الولايات المتحدة الأمريكية».

وبهاء الدين لا ينسى في كل ذلك العرض التاريخي الذي يرى في مرآته ما يحدث في هذه الفترة منذ بداية الستينات، ثم ما سوف يحدث في هذه الفترة من بداية التسعينات.

كذلك لا يغفل عن ذكر أطماع إيران في هذه الفترة المبكرة في الخليج، حيث يسكن عرب كثيرون سوف يواجهون كثيراً من الامتحانات القاسية، وسوف يصادفون أنواعاً كثيرة من البلبلة الفكرية والمعنوية، كما يردد. (الأخبار ١٥/٧/١٩٦١).

على أن المهم في ذلك كله أن ما يشهده ويشهد عليه بهاء الدين لا يرتبط بأحداث سياسية استراتيجية تخلق من العقيدة العربية، وإنما يرى أن كل ذلك سوف ينعكس على مصير الوحدة العربية. يقول ضمن حقيقتين يشدد على الثانية منها (الأولى خروج البريطانيين):

— إن القومية العربية فكرة لا تقبل منطق الضم..

والقرارات التاريخية البالية.. إنما تقيد نفسها بمنطق واحد هو إرادة

الشعب !

وقد أضاف أحمد بهاء الدين إلى الخبرة السياسية الخبرة الجغرافية حين رحل إلى الكويت ليتولى مسئولية مجلة العربي، وقضى هناك قرابة خمس سنوات، عرف خلالها أكثر الواقع العربي من أخطر بؤرته اشتعالاً على الإطلاق (الخليج العربي) ..

وقد أخفى عن بهاء الدين - حين اشتعلت أزمة العراق الثانية - قضية غزو العراق، وما أعقبه من تفاقمات خطيرة على مصير المنطقة العربية بناء على أمر أطبائه، يقول محمد حسنين هيكل شاهداً على مشهد بهاء إيان مرضه:

«في يوم من الأيام، ورغم الحصار، بدأ أنه لمح صورة من صور الأزمة على شاشة التلفزيون وسألني بعدها وأنا جالس معه:

- هو فيه إيه .. فيه إيه ؟

وكرر تساؤلاته بإلحاح.. وفي جملة واحدة لخصت له تفاصيل ما جرى، وما جرى ابتداء من ضم الكويت، وحتى ضرب العراق، وظل صامتا لشوان ظننتها ساعات، ثم إذا به منفعل يقول:

- ليه .. ليه!

ثم فوجئت بدموعه.

(من مقدمة هيكل، يوميات هذا الزمان، أحمد بهاء الدين)، مركز الأهرام للترجمة، القاهرة، ١٩٩١).

كان حسه المرهف لما سيحدث هو الذي أجرى على لسانه السؤال: إذا كنت قد تنبّهت واستشرفت المستقبل، فلماذا يحدث ما يحدث الآن؟ وهي تساؤلات لم يجد في ظروفه تلك لها إجابة واحدة. ولذلك علاقة أكيدة بالسمة الأخيرة في شخصيته.

مواصلة الاتجاه

كان النشاط العقلي المستمر في قضية واحدة واستثمار تراكماتها يمضي عبر متصل أفقى ممتد يلخص هذه السمة: مواصلة الاتجاه ..

كان ذلك النشاط العقلي يتسم بالتنوع والتباين، وليس بالتوصيف والإحصاء، ومن ثم، فإن إنتاج «الخطاب» كان يتسم في النهاية بالوعى الشديد في تفهم ما يدور حوله واستيعابه .

إن مواصلة الاتجاه سواء على المستوى العقلي الخالص والإبداعي الخاص يمكن أن نثر عليه في عديد من القضايا التي تبناها، ولعل من أهم هذه القضايا، قضية عمره، ونقصد بها قضية تبنيه - مبكراً - للقضية الفلسطينية، وسوف نجد صدى اهتمامه يتسرب إلى كل كتاباته .

ولعل أهم موقف في ذلك تمثل في دعوته بمجلة المصور عقب هزيمة ١٩٦٧ مباشرة باقتراح مؤداه ضرورة إقامة دولة فلسطينية في الأرض التي لم تحتل بعد لتجد الحكومة الفلسطينية أرضاً تستطيع التوقف عليها والانطلاق منها لاستكمال تحرير الأرض .

وقد كان أول من تنبّه مبكراً إلى «الاستعمار الجديد - الأمريكي»، ولذلك كان أول من تنبّه إلى الحفاظ على ما تبقى من أرض فلسطينية .

ومن هنا، كان أول من دعا في ذلك الوقت تحت ببط عريض (مطلوب إقامة دولة فلسطينية) .

وبناء على رغبته راح يستقبل ردوداً كثيرة من عرب وفلسطينيين من

بينهم غسان كنفاني وكولوفيس مقصود وشفيق الحوت وأنيس صابع وغيرهم كثيرين ..

وجددير بالذكر أنه قد جاءه من جمال عبدالناصر حينئذ رسول يسأله من هو وراء هذه الدعوة، وأنه يتخوف من أن تكون الدعوة غير مدروسة، بما يعنى أن يقلع عنها لتلايهم أن الحكومة المصرية هي التي تتبنى هذا الأمر.

غير أنه لم يتراجع، ورد بأن ذلك يتم على مسؤوليته الخاصة.

بل زاد على ذلك ضرورة أن تعقد هذه الدولة الفلسطينية اتحاداً فيدرالياً مع الأردن ..

وربما لا نجد لمفكر أو مثقف مصري هذا الموقف المتصل لقرباية نصف قرن من الزمان في تبنى القضية الفلسطينية والزود عن فدايئها والدفاع عن قيادتها السياسية وزيارة الأرض الفلسطينية سرّاً كما هو الحال مع بهاء الدين ..

يتصل بهذا السياق - لضيق الحيز هنا - موقفه من الهجرة الإسرائيلية إلى فلسطين في السنوات الأخيرة من الثمانينات، وهي قضية تعود في بداياتها - بالنسبة لبهاء الدين -- إلى الخمسينات - حين لاحظ موقف أمريكا المشجع للعناصر الإسرائيلية ونجرتها الاستعمارية إلى الأرض العربية، وقد امتد هذا الموقف ليصل إلى الحقبة الأخيرة قبل مرضه، فرفض الهجرة، وراح يلوم الجميع: الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي والعرب... إلى آخره. وظل يوالى الدعوة لرفض الهجرة ويكتب

الخصائص المميزة

بياناً مسمىاً الهجرة (جريمة العصر) حتى سقط مريضاً لفكرته ..

ويمكن أن نشير إلى كثير من القضايا التي برهن فيها على وجود
عنصر (مواصلة الاتجاه) ، غير أن قضية الهجرة اليهودية لفلسطين التي
ترتبط بالقضية الفلسطينية ومأساتها في العصر الحديث .. تظل أهم هذه
القضايا .

الفصل الثاني

فكر التَّنْوِير

أولاً

التَّوِيرُ الْعَرَبِي

لماذا كان بهاء الدين
تنويرياً عنيقاً فى الثمانينات؟
لأن (موجة سوداء) من الأصولية المتخلفة
كادت تدهم المنطقة ..

يعد أحمد بهاء الدين أحد أهم رموز الجيل الرابع التنويرى بعد أجيال
ثلاثة سابقة، بدأها رفاة الطهطاوى، ووصل فيها طه حسين إلى الجيل
الثالث بينما مثل محمد عبده وتلامذته حبة العقد فى عقد التنوير، وما كدنا
نصل إلى الجيل الرابع حتى التقينا فى النصف الثانى من القرن العشرين
بزكى نجيب محمود وحسين مروة ولويس مرقص ومصطفى سويرف ثم
أحمد بهاء الدين ..

وقد كانت أهم سمات أحمد بهاء الدين، خاصة، تعرفه على أصول الفكر
الغربى بالقدر الذى تعرف به على أصول التطور العربى للتاريخ والمعرفة
الإنسانية، مما قرب به من صياغة فكرية ميزت خلفيته الفكرية فى تعامله
مع القيم التنويرية فى عصره .

وقبل أن نتمهل أكثر عند تطور فكره التنويرى وممارساته العملية عند
بهاء الذين يجب أن نسارع إلى توضيح ملاحظة هامة فى هذا الصدد .
وهى ملاحظة ترتبط بحركة التنوير فى حد ذاتها .

فمن المؤكد أن حركة التنوير عندنا كانت تغاير - في سياقها التاريخي والموضوعي - حركة التنوير في الغرب، فلم تكن حركة التنوير العربية محاكاة لمثيلتها في الغرب، ولا سياقاً موازياً في تشكيله ومعانيه لهذه الحركة هناك رغم ما يبدو من تقارب قيم التنوير وعناصرها في كل حركة، وإنما كان التطور الذي شهده التاريخ العربي مؤثراً بخصوصيته على حركة النمو السياسي والاجتماعي والفكري، بما ينفي خاصية (النقل) عن الغرب أو التأثير المباشر به.

وبواعث هذا الإدراك كثيرة، منها.. أن العقلانية - أحد رموز التنوير - ترتبط هناك بقيم الواقع الذي كان مفروضاً منذ نهايات القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، فقد كانت سياسة لويس الرابع عشر قائمة على الملكية القائمة على الحق الإلهي التاريخي مما احتاج الواقع المصاد له إلى فلسفة سياسة مضادة.

فالمفروض أن قانون العقل يعرف أسلوباً صالحاً للحياة، وجوهر هذا القانون هو المصلحة الشخصية المستنيرة، ولكن المصلحة الشخصية المستنيرة يجب أن يؤدي إلى خير المجموع.

إذن فالحكومات موجودة لدعم الحرية والأمن والتمتع بالملكية وغيرها من الحريات الفردية، وعلى ذلك يجب أن يهدف الإصلاح إلى تحقيق قيام حكم تمثيل مسؤول إلى تحقيق قيام حكم تمثيلي مسؤول وإلى الحد من المساويء والطغيان.

وعلى هذا، كان رد الفعل على الحكم المستبد، البحث عن فلسفة سياسة

مضادة لها سياق محدد، فى حين أنها ارتبطت عندنا، وإن بدا القرن الثامن عشر صالحاً لنا، بسياق مغاير، كان أهم ما فيه البحث فى مرآة الغرب عن قيم جديدة تخرجنا من عقود التخلف التى عشنا فيها، وفيما بعد من قبضة الغرب النموذج / المثال أو الغرب الاستعماري / الجديد أو القديم.

ولذلك فمن السهل العثور على الكتابات الفلسفية عندنا منذ قرابة قرنين من الزمان على أصداء فلسفة عصر التنوير الغربى والفرنسى بوجه خاص.

(لنذكر: مونتسيكو ١٦٨٩-١٧٥٥ بنظرية فصل السلطات وتمثيل الشعب، وفولتير ١٦٩٤-١٩٧٨ بموقفه من الكنيسة وقضيتى الحرية والمساواة والحكم الأفضل، وروسو ١٧١٢-١٧٧٨ بالحرية السياسية، وعقده الاجتماعى، وهولباخ ١٧٣٣-١٧٨٩ بتحليل نشوء المجتمع السياسى وأهمية القوانين .. وغيرهم).

هذه أسماء وعنوانات لعصر التنوير الغربى يصعب تجاهل ما خلفته من تأثير فى الكتابات العربية فى عصر النهضة العربية، لكنه التأثير المرتبط بالواقع العربى وخاصة الشخصية العربية ومشكلاتها الذاتية.

لقد كان المجتمع العربى يسعى إبان نهضته الحديثة للخروج من العصور المتخلفة وما يحاول أن يفرضه الغرب الاستعماري عليه، ومن هنا، التمس معنى التنوير هنا وهناك، وخضعت أفكار التنويريين لمثل هذا الالتباس خاصة أن الواقع لم يكن يسمح بالخروج عن هذا الإطار.

كان التنوير فى الغرب يعنى مؤثرات وأصولاً معينة، فى حين أن كان

عندنا يلتبس بأفكار مغايرة، لكنها لتعدو في مرجعيتها أن تعود إلى الغرب بقدر ما تعود إلى التطور الذي عرفته الأقطار العربية حين واجهت الغزو الخارجي، والتخلف الداخلي، و(الأزمة) التي وجد عالمنا العربى نفسه فيها منذ نهايات القرن الثامن عشر حين جاءت طلائع الحملة الفرنسية لأول مرة، والتي عكست على الجانب الآخر لدى الغرب شعوراً بالتفوق على الشعوب المتخلفة أسهم بدوره في تعميق الهوة بين العالمين (العربى/والغربى)، وقد أسهب أحمد بهاء كثيرًا حول هذا الشعور وتفاقمه وإن وصل إلى أقصاه والتعبير عنه عقب الحرب العالمية الثانية..

كان المجتمع العربى يشهد - حينئذ - حالة من التحرر الوطنى، وفى الوقت نفسه يشهد حالة من نمو قوى حاكمة جديدة تسعى لتأكيد سيطرتها على الحكم بتدعيم من الاستعمار الجديد، يصنفها د. عابد الجابرى بدول العسكر. أو الحزب الوحيد، القبيلة، الطائفة، الأحزاب المصطنعة.. (الدوة العلمية لدار الهلال ١٣ - ١٦ سبتمبر).

أيضاً كان هذا المجتمع يشهد زخماً من الأفكار العامة والأساطير بمعناها الخرافى، والميثولوجيا التى تتمسح بالدين وتتحدث عنه، والشباب المسوق - باسم السلفية - إلى أفكار غامضة.

وفى هذا كله يتراجع دور العلم بمعناه الفكرى.

ولأن المثقف لا يستطيع الخروج على النص فى الغالب فإنه يتحول إلى موظف فى النظام، وينحلى النظام/ المجتمع - بالتبعية - عن أهم قيم عصر التنوير: العقل والعدل وحرية التعبير وإنشاء الجمعيات والأحزاب

التنوير العربي

والشركات والتعاونيات والحق في المساواة وتكافؤ الفرص،، وما إلى ذلك رغم أن المجتمع نفسه يرفع شعار هذه المؤسسات.

ويزيد من قتامة الصورة عوامل متتالية: النكسات والهزائم العربية ضد القوى الإمبريالية مما يقرب - على العكس - من الإذعان للواقع، ويزيد ضراوة العدو الإسرائيلي على الحدود العربية من زيادة حجم التصديق، كذلك، فإن ضراوة الحقبة النفطية خاصة منذ أوائل السبعينات زادت من تأزم الواقع الاجتماعي مع قانون الانفتاح الاقتصادي وتسارع الربط في عجلة الرأسمالية الغربية.

وسط هذا كله، كانت الحركة التنويرية العربية تسعى للتغيير، لكنها، مع الزمن، لم تستطع أن تواجه ضراوة الرياح العاتية..

* * *

ف، هذا المناخ، الذي عرفته المنطقة العربية منذ قرابة نصف قرن - الفترة التي تمثل موضوع الدراسة، كان على أحمد بهاء الدين - بين مثقفين تنويريين قليلين - أن يواجهوا الرياح العاصفة، ويحاولوا أن يمثلوا الموجة المغيرة لتيار العصر العربي الرديء.

راح بهاء الدين يستعين - بموقف تنويري في هذا المناخ، وقد كان أكثر ما يميزه: الوعي بالتاريخ في استقراء الحاضر، والنظرة الكلية للأمور، وإثارة الحوار وسيلة للاقتناع والتعبير والتنبه إلى خطورة (إيقاع الكلمات) والإصطلاحات.

فمن ناحية، لم يستطيع أن يغفل التاريخ لاستلهامه والنظر في مرآته إلى قضايا الحاضر.

فالتاريخ هو ماضينا، موجود في نفوسنا شئنا أم لن نشأ.
ونحن لا نستطيع أن ننقطع عنه، ولو انقطعنا عنه لخسرنا شيئاً كبيراً.
(الثورة الاشتراكية ص ٢٦).

وكان إيمانه بالتاريخ قد وصل إلى درجة الاستعانة بالنماذج التاريخية خاصة، بل اختاره عنواناً لأحد كتبه (أيام لها تاريخ)، وهذا كان يعنى أنه كان واعياً لاستخدام التاريخ فكرياً وسياسياً كي يدفع قرائه لإنعاش صورته في أذهانهم وايصل منه إلى ما يريد في حاضره.

ومن ناحية ثانية، لم ينظر إلى أية قضية بشكل جزئى أو رؤية مبتسرة، وإنما كانت النظرة الشمولية النفاذة أهم ما يحرص عليه، فحين راح يعالج السطحية الفكرية فى إحدى الموضوعات راح يشير إلى ضرورة النظر إلى المشاكل على أنها أجزاء متصلة، واصفاً السطحية أنها النظر للمشاكل (على أنها كلها جسد واحد له نبض واحد). ومن هنا راح يتحدث عن قضايا كبيرة على أنها عناصر لقضية واحدة، إذ يمكن أن نبدأ من موضوع الوحدة العربية فنجد أنفسنا بعد لحظات فى قلب مشكلة التنظيم الشعبى.

أما الحوار، فقد كان أكثر ما يحرص عليه - كما سنرى - فى أية قضية، هو الدعوة للحوار الهادئ بعيد عن الانفعالية، والتعامل مع القضايا الدينية أو الميثولوجية بتعصب يعمى عن التبصر السليم، ولن تدب الروح

فى المسلمين ثانية إلا بالحوار القائم على كسب قلوب الناس وعقولهم وليس على كسب خضوعهم.

ومعاركه الكثيرة - كما سنرى - تشهد على ذلك.

كذلك ارتبط الحوار تأكيده لأكثر من مرة على أهمية استخدام الالفاظ - والمصطلحات، إذ كان دائم تذكير محاوره بان «استخدام الكلمات سلاح خطر ان لم نستخدمه بدقه وندقق على قواعد» (يوميات ١١/٦/٨٧)، راح يضرب على ذلك أمثلة كثيرة من الكلمات التى يمكن أن تستخدم استخداماً مغايراً لما يراد لها وهو ما كان أشار إليه منذ الخمسينات (مبادئ وأشخاص، مايو ٥٦، ص ١٠٣).

وهو ما يقترب بنا أكثر من موقفه بشكل عام من فكر التنوير العربى..

لقد تحدد موقف أحمد بهاء الدين من القضايا الفكرية الكبرى - أساساً - من موقفه مع الغرب.

كان موقفه من الغرب يتقدم موقف بعض جيل الرواد السابق عليه فى فترة مبكرة، فقد ذهب أبناء الجيل الثالث فى الثلاثينيات إلى قناعة مؤداها أننا يجب أن «نسير سيرة الأوروبيين أو نتبع طريقهم»^(*)

(*) لابد وأن نشير هنا إلى صاحب هذه الأفكار. د. طه حسين فى كتابه المعروف (مستقبل الثقافة فى مصر) القاهرة ١٩٣٨، ويقول ص ٣٥. «التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبيها فى الحكم ونسير سيرتها فى الإدارة، ونسلك طريقها إلى التشريع.. إلخ وإن كان الأنصاف يحتم علينا ذكر أن طه حسين نفسه تراجع عن بعض هذه الأفكار فيما بعد...».

فاقترب من الغرب بقدر ما اقترب من القيم الإيجابية في التراث العربي، فاتخذ موقفاً واعياً، وقد كان يمثل في ذلك نقلة إيجابية لجيله من التنويريين ممن كانوا يفهمون الغرب كما عبر هو ويحبون فيه أشياء ويكرهون أشياء، (المنقدي، الأردن، ٨٩/٣).

وهو ما صيغت به رؤيته من فكر التنوير، إذ كان دائم النظرة العصرية لأية قضية تعن له، فلا يتمسك بمفهوم مصطلح بحجة أنه جاء من التراث العربي، أو مفهوم محدد آخر بحكم مرجعيته الغربية. وإنما كان كثيراً ما يستخدم المصطلح التراثي انطلاقاً من الحاضر الذي يعيش فيه، وهو الحاضر الذي يستوجب منه التنبيه إلى ما يجب أن نلتزمه للعيش في العالم الجديد.

وعلى سبيل المثال، ففي حين نراه يركز على قيم العقل والديموقراطية والحرية والتقدم مما يستعيد معه معالم مناخ القرن الثامن عشر في الغرب، نراه يتهل عند قيم عربية خالصة من مثل التمسك بالعقل المجرد مما يسهم به في فهم الحاضر العربي، ويتحول واقع الديموقراطية إلى معنى الشورى، ويرتبط بها بفهم راديكالي جديد لا يخرج عن الصواب فيما تؤدي إليه، كذلك، يدعوا إلى التقدم في التاريخ إلى إعادة النظر إلى التاريخ الإسلامي مما يمكننا من رؤية الحاضر في مرآة القيم التراثية الواعية.

ولابد أن نشير هنا إلى أمر هام، هو أن فكرة التنوير عند بهاء الدين لا تتخذ شكلاً فكرياً فحسب، وإنما تمضي على كافة مستويات الحياة اليومية، وبوجه خاص التطور السياسي، ففي معرض تأكيده على ضرورة خوض المعركة ضد الغوغائية والانهزامية يؤكد أن هذه المعركة ليس في

مجالاتها السياسية فقط كما يتبادر إلى الذهن.. ولكن على كافة المستويات العربية.. (شرعية السلطة ٨٧)

وكانه يعيد المعركة ضد التخلف فى كافة الميادين من عادات وتقاليد وتحول اجتماعى وتطور إنمائى وسياسى أيضاً.

ويرتبط بذلك وصول درجة الوعى التنويرى فى الثمانينات..

فرغم أننا يمكن أن نرصد موجات التنوير طيلة سنين حياته، وفى كثير من المواقف، فإن هذا المد وصل إلى أقصاه فى حقبة الثمانينات، وهولته ما يبرره، ففى هذه الحقبة ارتفعت إلى أقصاها (موجة سوداء) كادت تدهم المنطقة العربية ومصر من السلفية والأصولية المتخلفة،.

وهو ما يفسر لنا كيف نشط مفكر مثل أحمد بهاء الدين فى هذه الحقبة إلى درجة من درجات العنف والليل من الخصوم لم يصل إليها من قبل، وقد كان يخصص فترة شهر رمضان كل عام تقريباً ليتوقف فيها عند عديد من القضايا التى ترتبط بالتراث الإسلامى، مستنداً فيها، حين يستحر القتال، إلى فقرات وصفحات كاملة لمفكرين إسلاميين آخرين متنورين من أمثال الشيخ محمد عبده أو محمد الغزالى أو بنت الشاطى أو الشيخ شلتوت.. وغيرهم.

ورغم أن العديد من هذه الأفكار لا تخرج من مظلة التنوير وتحتفى - بوجه خاص - بثنائيته المفضلة «العقل والحرية» - فإنه لم يلتزم فيها بترتيب موضوعى، وهو ما سنلتزم به هنا، وإن كنا نضيف إلى الترتيب الزمنى المعالجة الموضوعية.

ثانياً

العقل والحرية

لماذا تتبنى حكوماتنا
رأى كتب متخلفة الفكر،
ولا تتبنى كتباً تحض
على الدين الصحيح المستنير،
ومن أحكامه : حرية الفكر؟
(أحمد بهاء الدين)

تتحدد قضية العقل عنده من تحليله لتاريخ الأفكار في هذه المنطقة، فالصراع بين التقليد والتجديد هو جوهر التطور الفكري، فحين طلبت منه اليونسكو تحليل هذا التطور راح يؤكد أنه مر بـ عدة أطوار، أولها الخاص بنشر العقيدة والتبشير بيدن جديد، وما لبث الطور الجديد أن جاء بفترة بناء الدولة التي بدأت بحكم الأمويين، ونقل الخلافة من مكة إلى دمشق، وبالتالي التوفيق بين الأفكار الدينية وجوهر الحياة العصرية الجديدة، وحين بدأت فترة المصالحة بين الفكر القديم والجديد بدأ طور النهضة الكبيرة إذ تحولت العاصمة إلى بغداد، وبدأت عملية التحام العرب بعدد من الأفكار والفلسفات الواردة من شتى الأمم المعاصرة.

في هذا الطور الثالث بدأت عملية التنوير الثالثة بالتطور الذي شهده تاريخ الإسلام.

غير أن هذه التطور بدأ في التقهقر حين ظهرت السلطة العسكرية،

وتراجعت قيم عصر النهضة، ودخلت المنطقة الإسلامية لقرون في فترات التدهور، وظهرت الطقوس الدينية الجامدة، وسادت حالة التدهور مع استمرار الحكم العثماني.

وهنا اختفى جوهر الوعي بالعقل والعمل له..

وهذا أيضاً عاد الصراع عنيفاً بين القديم والجديد في القرن التاسع عشر، وظل هذا الصراع فاعلاً تحت السطح، لكنه ما لبث أن تصاعد بعنف مع مجيء الحركات الاستعمارية للمنطقة العربية، فراحت تجهض حركات التطور البطيئة، وتستبدل بها حركات ضاغطة من الخطر الداخلي والخارجي، فحدث في العقل العربي ما يشبه الارتباك الشديد في الواقع الجديد.

كان من الصعب أن يرى العقل العربي أمامه تطورات عنيفة.

وفي الوقت نفسه، كان من الصعب أن يسير معها ويتناسى صورة التطور القديم في الشخصية والتاريخ العربيين..

كنا ندخل عصر النهضة الثاني تحت ضغط الخطر الغربي.

وحين نطالع كتابات رواد عصر النهضة العربي في هذه الحقبة، نلاحظ أنهم يحاولون التغلب على الاضطراب العام بالوصول إلى عاملين اثنين يحملان نتائج التخلف الذي يعيش فيه الوطن العربي وهما:-

- فوضى الحكم.

- الحركة الاستعمارية.

وعلى ذلك، كان لا بد أن نفهم دعوة جمال الدين الأفغاني للخروج من

عصر التخلف، وهى دعوة كان لا ينقصها الغضب والعنف الشديد.

لذلك كان لابد من فهم تصدى محمد عبده لعديد من التعاليم التى تنظم علاقة الإنسان بربه كالاجتهد بشكل لا يعوزه التنور والتحرر.

وهو ما واجه جيل محمد عبده حين حاول أن يتصدى للتخلف العقلى وغياب الوعى بالمصطلح اللغوى، فبدأ الصراع بين القديم والجديد يتخذ شكلاً أكثر عنفاً.

كان أكثر ما يميز حركة محمد عبده هو محاربة التقليد - وهو فهم ضد العقل والتطور الحديث - وهو أسلوب لم يستنكف فيه أن يعلن أنه لا يتردد فى العود إلى العقيدة والمبادئ الجوهرية فى الدين الإسلامى، كى يتعامل بوعى مع الفكر الغربى الذى يوشك أن يستحوذ على أرض المسلمين وفكرهم، فبدون العقل الواعى لا يمكن التصدى لكل مظاهر التخلف الذى تعيش فيها الأمة.

وبهذا كان محمد عبده - بعد رفاعة الطهطاوى - من حاول الهبوط إلى أرض الوعى بطبيعة الحياة التى نعيش فيها، والتى تستلزم - أساساً - التمسك بالعقل، والوعى، وحرية الفكر، ومواجهة التقليد.. وما إلى ذلك.

كان على الجيل الرابع من التنويريين فى مصر - ويمثلهم الآن أحمد بهاء الدين - أن ينتظر مضى قرابة قرن كامل ليعود فيحارب، من جديد، معارك الشيخ محمد عبده فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

* * *

لقد كان العقل لدى بهاء الدين قادراً على أن يهدى الناس إلى السبيل الذى يمكنهم من السيطرة على كل شئ حولهم، فهو قادر على تحدى الأفكار السلبية بعد قرابة قرن من الزمان حاول فيها رواد كبار أن يحاربوا مثل هذه المعارك.

وكأنه مقدر علينا أن نعود فى كل جيل لنحارب نفس معارك الأجيال السابقة.

كان عليه أن يتصدى لعديد من الأفكار السلبية والسلفية السائدة.
وكان عليه أن يواجه هذه الصور الميثولوجية المعششة فى عقول مثقفى عصره.

وكان عليه أن يعاود محاربته لهذه الرموز الرديئة داخل مؤسسات دينية وخارجها.

ومن هنا، تحدد العقل فى أداة التفكير المجردة، من كل ما من شأنه أن يحول بين الواقع وبين ما يراد بنا حين نغرق فى تفصيلاته ومتاهاته، وتحدت حرية العقل من كل من يحاول أن يحول بين خروجنا من (كهف) الذات، المولع بالعودة إلى الوراء باسم التراث، أو المكوث تحت نير السلطة باسم السلطة المحافظة على القيم؛ أياً كانت طبيعة السلطة.

إن إخضاع كل شئ للعقل هو ما حرص عليه: إخضاع الأفكار، والخزعات الدينية والقضايا الاجتماعية.. إلى غير ذلك، مرتبطاً بالقيم الثورية فى الفكر الإسلامى، مسرعاً الخطو إلى أفكار كانت وأمثاله فى القرن التتويى منذ قرابة قرنين من الزمان فى الغرب.

العقل والحرية

والواقع أن العقل أو العقلانية كانت أكثر القضايا التي أولاها عنايته القصوى، فراح يتحدث عن التحديات التي يجب أن نقيم عليها حياتنا، كانت العقلانية إحداها (شرعية السلطة، ص ٩)، وهي عنده ليست المفهوم الجامد، وإنما هي العقلانية القائمة على العواطف النبيلة كحب الوطن أو حب العدل، فتصبح حياتنا قائمة كلها على (العقل والقلب معاً)، وحين اختار في فترة رئاسته لمجلة «العربي» كلمات فقدت سمعتها ليكتب عنها افتتاحية في نهاية السبعينات راح يحدد مصطلح العقلانية كأحد أهم المصطلحات التي تواجه التقدم العربي في ذلك الوقت منتهياً من ذلك كله إلى أن القضية المطلوبة هي أن نعيد للعقل مكانته في حياتنا العربية، ولا يمكن أن نعيد للعقل مكانته في نفوسنا، إذا بقينا مهملين هذا التحديد في استعمال الدلالة.

وفي مراجعة أفكاره في قيم مثل الديمقراطية أو الاجتهاد أو حرية التفكير.. وما إلى ذلك تتحدد قيمة العقل على أنه العجلة التي تحرك عربة التقدم وتمدها بالوقود اللازم لإشعال النهضة واستمرارها. وهو ما سنتمهل عنده عند الوصول إلى هذه القيم أو القضايا المحورية في حياتنا العربية.

أ - الديمقراطية

الملاحظة الأساسية هنا أن أحمد بهاء الدين يستخدم مصطلح (الديموقراطية) على أنه يساوي مصطلح (الشورى)، ولا تناقض بينهما قط

على اعتبار أن التغيير الحديث الذى لا يختلف عن مبادئ الإسلام فى جوهره، إنما يجب أن يفهم على أنه صالح للأخذ به، فالقيم الحديثة لا يجيزها الإسلام بهذا المفهوم فحسب، وإنما يؤكد على ضرورة الالتزام بها، وقد كان يعتقد أن رأيه هذا هو رأى الأغلبية المثقفة الإسلامية. يقول:

«لا تناقض بين الإسلام والديموقراطية، فنظام الشورى فى الإسلام يصور نوعاً من الديمقراطية، يختلف عن الديمقراطية فى الدولة العصرية، كما أن الديمقراطية المطبقة فى عهد «بيركلنس»، فى أثينا لا تتوافق مع ما يطلق عليه اليوم الاسم عينه. ويمكننا القول إن للإسلام روحاً ديموقراطية حقة، ولكن أولئك الذين يرفضون كل أشكال الديمقراطية الحديثة من المتشددین، كالاقتراع أو المجالس النيابية إلخ... ويعتبرونها مناهضة للإسلام يتوقعون فى تفسيرات ضيقة لديهم، وإذا كان القرآن، برأيهم الدستور الوحيد، تصبح مجرد المطالبة بدستور مكتوب - بالمعنى العصري للكلمة - تقيضاً للإسلام، فالنظام الذين يحلمون به يقوم على سلطة حكم فرد: الخليفة يعاونه مستشارون قلائل، يقترب كثيراً من الحزب الواحد». (L ISLAMM QUESTION)

وهو فى ذلك لا يريد أن يدحض رؤية (الجماعات الإسلامية فى مصر، وهى رؤية نافية للديموقراطية الحديثة وحسب، وإنما، أيضاً، لدحض الفكرة التى كانت ينادى بها بعض هذه الجماعات من وجود حاكم أو أمير معصوم

العقل والحرية

على مستوى الدولة، وفي هذا راح يستعيد أجزاء ومشاهد كثيرة من التاريخ الذى ولع به ليؤكد على ما يذهب إليه، فقد ذكر قصة رفض حكومة الوفد فى نهاية الثلاثينات (١٩٣٨) أن يؤدى ملك مصر مراسيم التتويج داخل الأزهر لئلا يستمد الحاكم شرعيته من الدين. (يوميات ٢٨/٦/١٩٩٢)

وقد ذهب فى هذا إلى أن الإسلام لم يأمر - قط - بدولة دينية، وإنما بدولة تطبق تعاليم الدين، أو على حد قوله: ليس فى الإسلام حاكم مطلق لا يتقيد بالشورى. ورفض النبى لتعيين خليفة له فيه هذه المعنى (ى ٢٩).

ولا يكون علينا أن نستنتج سرائرة بهاء الدين لهذه القضية، فرغم أنها تردد من آن لآخر لدى بعض السلفيين من المتعصبين، فقد كان الباعث الرئيسى وراء تعرض بهاء الدين لها هو أن أحد دعاة الاسلام، هذه المرة من المنافقين، راح يعلن أن الحاكم ليس مضطراً للشورى، ويكون على بهاء الدين لنفى هذه القضية، أن يسهب طويلاً حول ما يرفع الشورى إلى مستوى الفريضة الدينية على وجه التقريب، ويعرض لبعض الفقهاء الذين يسعون إلى تطويع القرآن بما يتناسب ورغبات «السلطان»، وهو ما يؤدى إلى إطفاء نور الفهم والاجتهاد الصحيح لدى الشباب (ى ٣٠).

وفى اليوم التالى يتصدى لمن يزعم - إمعاناً فى النفاق - أن الديمقراطية مستوردة دخيلة على الإسلام.

وبهاء الدين لا يمل من ترديد أنه لا يهمنى الاسم اليونانى، إذ لا يوجد فى الإسلام طريقة محددة للشورى والتمسح بيونانية اللفظة للهروب منها،

ومن هنا، فإن الشورى تظل كشرط واجب ملازم للحاكم، قائمًا كفتى يموت النفاق؟.

وطرح قضية الشورى على هذا النحو يجر إلى قضية حرية الفكر أو الاجتهاد.

ب - الاجتهاد

يؤكد أن الآيات القرآنية تضع العقل الإنسانى فى أعلى مقام . فالعقل - كما يشير - هو ما يريد أن يضعه ببعض الدعاة فى مكانة متدنية، بل ويرفضون وجوده، ويعطلون دوره محاولين فى ذلك خلق تناقض غير موجود بين الإيمان وبين استخدام العقل، مستشهداً فى ذلك بعدد من الآيات.

وفى سبيل التمهيد عند قضية الاجتهاد تمهل طويلاً أمام قضية سميت فى وقها - فضيحة فتوى الترنسفال - وفيها، أفتى الشيخ محمد عبده أن الإسلام ليس فيه أى زى معين، وأن الزى إذا لم يخالف حكماً فى الإسلام يظل بمثابة عادات تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا تمس جوهر الإسلام الثابت، بل واستخدام الدعاة المحترفون، وناخى الأبواق لإثارة العامة. (٧/٧).

ويصور لنا بهاء الدين بهذه القصة النموذج الذى وصلت السلطة به لإقناع المسلمين بالجمود الفكرى والعمل له مما يعكس فى عدم الاجتهاد باسم الدين.. والمطلوب هو عكس ذلك.

إن التمسك بهذا الفهم يسئ لأمر جوهري في الإسلام، إنما هو من قبيل تعطيل حرية الفكر، لكنه في الوقت نفسه يخدم كل من يريد أن يكون (معصوماً)، وكل من يريد أن يتاجر بالدين ويستخدم شباباً يتخبطون في «ظلام من انعدام حرية الفكر».

ولأهمية القضية راح يعرض لها في كتاباته خارج «يومياته»، وفي أكثر من صحيفة، إذ أشار - لأكثر من مرة - أنه ليس من حق أحد أن يفرض تفسيره هو بالقوة، ويزعم أن هذا هو الإسلام، مستدركاً - كذلك - أنه ليس من حق جماعة سرية لا نعرف أفكارها أو ترجمتها للقرآن الكريم، أن تتآمر بليل لتفرض تفسير محدد.

وهو بذلك يجمع بين الفرد المتعصب والجماعة السرية التي لا بد وأن تصاب بضيق الأفق أو يتغلب مصلحة معينة، بل ويربط التطور الفكري الناضج في عصور الإسلام الذهبية بفتح باب الاجتهاد لصاحب العقل المتنور، يقول: «لن تدب الروح حقاً في المسلمين من جديد، إلا بإزاحة الظلام، ولا بفتح طاقات النور، ولا بالحوار القائم على كسب قلوب وعقول الناس، وليس على كسب خضوعهم». (الجمهورية ١٩/١١/٨٦).

ويلاحظ أن بهاء الدين وإن لم يكن من أتباع الأستاذ العقاد أو أحد تلامذته، فإنه لا يتردد من الاستعانة به أو نقل من كتابه (التفكير فريضة الإسلام) ما يؤكد به على حرية الفكر.

ويلاحظ أن بهاء الدين لا يتخذ موقفاً من الفرد المتجمد أو الجماعة السياسية، وإنما يعد لومه إلى السلطة الرسمية نفسها، فهو لا يتردد في

إحدى المرات من طرح سؤال هام، هو: لماذا تتبنى حكوماتنا رأى كتب متخلفة الفكر، ولا تتبنى كتباً تمض على الدين الصحيح المستنير ومن أحكامه، حرية الفكر؟..

ولا يلبث أن يضيف: «إن استخدام العقل يقوى الرعية إزاء السلطة، ولكنه يحميها من حماقات الجهالة». (٧/٨).

ويتميز أحمد بهاء الدين أنه لا يضيع فى تفاصيل كثيرة، وإنما يكون متنبهاً إلى القضية المحورية التى يحارب من أجلها.

فحين يشتد الجدل، يعود إلى قضيته، ليقول بوضوح:

«إن العصمة التى أسبغها الله على النبى لا تمتد إلى غيره. ونحن لسنا فى صدر الدعوة الإسلامية بخصوصياته. فلا نبى من البشر الآن، ولا حتى خلفاء راشدين، لهم حقوق تلك التخبّة الأولى المصطفاة، والتى انتخبت كل واحد منهم مع ذلك انتخاباً بالأسلوب المناسب لتلك الظروف.. ولا يليق الاستشهاد بالرسول. فى القياس على أى حاكم دنيوى آخر. ثم أن أحداً لم يقل إن الحاكم ملزم برأى من تدخل آرائهم فى (عداد الشورى)، ولا أحد قال بذلك».

ولا يلبث أن يعود إلى النظام السياسى المعاصر الذى لا يتعارض مع الفكرة الإسلامية القديمة حين يضيف:

«ولكن تعقد الحياة وتغييرها يجعل للحاكم سلطة

وللشورى سلطة. فالحاكم إذا كان وليد أغلبية مثلاً فهو يعبر عنها، وهى تؤيده. وبالتالي ليس مضطراً إلى قبول رأى ما نسميه المعارضة، وإن كان ملزماً بالاستماع لكل رأى له قيمته. ومن حقه مثلاً أن يحل ويعيد البرلمان الأحكام إلى الشعب، ولكنه لا يمكن له أن يحكم دون قاعدة ما، (ى ١٤ / ٧).

بيد أن هذا كله يقوده إلى نقطة جوهرية أخرى هى «نظرية الحكم فى الإسلام».

ويكون على بهاء الدين أن يقفز إلى موضوعه بشكل مباشر، فيقول:

«إن القرآن لا يطبق نصوصه إلا أحكام بشر من البشر ويفسره بشر من البشر، وحين نبث فى نظام الحكم نبث فى أمور هؤلاء البشر، وليس فى معرض القرآن، وهى تفرقة غائبة عن بعض المدراس الإسلامية».

ويعرض القضية بمفردات بسيطة، فيسأل:

هل يقصد من يتحدث عن الشورى الآن أن اختيار وانتخاب الحاكم يكون كما كان أيام الخلفاء الراشدين مدى الحياة، وإذا التزم بالشورى فهو غير ملزم إلا بالشكل لها؟

ولا تخرج إجابته من أن «روح الإسلام تتسع بل توجب، وقد صارت الأمور للبشر أن يكون الحاكم بالانتخاب أو بالاختيار التابع من الشعب، وأن تكون مدته مهما طالت محددة»، إلى غير ذلك من مفردات الحكم النيابى

بمفهوم الحديث، والذي لا يخالف المفهوم التراثي، اللهم إلا بتوجيه التنبه إلى العصر الذي نعيش فيه والذي يجب أن نخرج منه.

كذلك لا يغفل بهاء الدين التركيز على ألا تكون هناك وساطة دينية لها حق الأحكام الأخيرة.

ويعلق على رجب إلبنا فيما يذهب إليه في مطالبته للأزهر أن يتخذ القرار في هذا الرأي أوداك، فالأزهر - أو أى مؤسسة دينية رسمية - ليست جهة اتخاذ قرار وليست سلطة إصدار تشريع. وما إلى ذلك مما سيتمهل عنده فيما بعد.

كذلك لا يتردد في رفض سلطة شيخ كبير مثل الشيخ الشعرواي، يملك من التأثير الشعبي ما يستطيع به أن يرجح هذا الرأي أو ذاك، فقد أفتى، الشيخ حينئذ برفضه لدخول الكهرباء إلى الريف، فلا يتردد في معارضة الشيخ - كما يعارض المؤسسة - مؤيداً أن يكون للشيخ (رأياً) لكن ليس من حقه أن يقوم بتسخير آيات القرآن الكريم لتدعيم أى رأى دنيوى، وهو في هذا لا ينكر اجتهاد الشيخ، وإنما ينكر أى مؤثر ديني يمكن أن يلعب دوراً حاسماً في توجيهات الجماهير أو الشباب ممن يؤمنوا بسلطة الشيخ واجتهاده. (ى ٨٢/١/٣١)

وهذا الوعي بحرية الفكر يخرج بالاجتهاد من جعبة علماء الدين، أو أية مؤسسة دينية تزعم وحدها الرأى الدينى الأخير، ويفتح أبوابه للكافة، بشرط، هو: إدراك أن للاجتهاد شروطاً وأصولاً، وعلى كل قادر أن يبرهن على إمكاناته في العصر الذي نعيش فيه، وهو ما وصل به إلى حقيقة أجزها

على هذا النحو: وإن الحكم القرآني يظهر الحكم القرآني ولا ينشئه، (جريدة الشعب، ١٩/٤/٨٢).

وهو ما يقترب بنا أكثر إلى قضية مشابهة.

ج - التراث

هذه القضية تنطلق أساساً من التراث الإسلامي (القديم) الذي يعتقد البعض أن كل ما فيه صالح لنا الآن، في حين أن أصحابه أنفسهم لم يروا أن تراثهم كله كان نافعا.

إن هذا التراث يثير - هنا - تأويلات، يثير بعضها خاطر، ويولد البلبلة، إنه يلخص هذه القضية فيقول بالحرف الواحد:

«ليس كل كتاب أو اجتهاد مضى عليه ألف سنة يعتبر تراثاً، وليس كل مجتهد قبل ألف سنة له من قدرة العقل والتفسير ما يميزه عن مجتهد القرن العشرين.

ففي مراحل النهضة الإسلامية ظهر الفلاسفة والمفسرون العظماء، وفي مراحل التخلف ظهر المتخلفون، الأمر الذي لا يعيننا بالضرورة ضرورة الاجتهاد الدائم، والتمييز بين الفث والثمين». (١٧ / ٧ / ٨٢).

ويضرب أمثلة كثيرة على ذلك، فيكون ذلك - على العكس - مما يدفعه أكثر لخوض المعركة إلى آخرها، ففي اليوم التالي يضرب مثلاً

بليلة القدر، وبعد أن يعرض لبعض ما جاء عنها مما لا يقبله العقل، يقول بالحرف الواحد:

«إنما العقل يميل لقبول التفسير الذى يرى أن (الروح) هنا يراد بها (الراحة)، وقد استخدمت بهذا المعنى فى قوله تعالى: «ولا تئسوا من روح الله»، لأن ليلة القدر ليلة رحمة ومغفرة، واستجابة كل دعاء خلص، وفهم العامة هذا فهم نظرى سليم دون تعقيد، ثم نجد جدلاً آخر...»

ويعرض لآخر، ليصل إلى ضرورة قراءة التراث قراءة (انتقائية) واستخدام العقل والاستفادة من أهل الفقه الذين يؤمنون باستخدام العقل.. إلى آخر ما يؤكد به استخداما لعقل (ى ١٨/٧/٨٢).

وقد تعرض بهاء الدين لكثير من الأمثلة التى راحت تتحول - على لسان بعض شباب الجامعات من المتعصبين - إلى حقائق دينية كتحريم سماع الأصوات، والآلات (ى ١٩/٧)، كذلك إلى عديد من صور المغالاة فى الملبس والمأكل وأسلوب التفكير (٧/٢٠ / ٧/٢١).

بيد أنه يجب أن نلاحظ هنا أن حرية الفكر كانت ترتبط عنده بحدود معينة، هى حدود لا يجب تخطيها، فالحرية المسنولة هى التى تطالب بحرية العقل وحرية التفكير، أما لو كانت الحرية - بجميع ألوانها - سوف تترك للغرائز والشهوات. وسائر ما فى الإنسان من طبائع بشرية.. فهى الفوضى والتخلف والخراب/ والنظم الاستبدادية يشى أنواعها، ربما كانت تعمل على إطلاق حريات من هذا النوع، حتى تعوض بها التقليل من حرية

العقل المسموح بها (ي ١٨/٨، ٨٢) .

وقد ارتبط العقل بالحرية عنده إلى حد كبير، فهذا الإنسان الذى منحه الله العقل وميزه بالحرية تمكن - بذلك - من بناء حضارته، بل أن كتاب الله ظل بمثابة المعجزة العقلية.

ويبدو أن حماس الكاتب فى الدفاع عن قيمة العقل إلى درجة الغلو أوقع به فى هنات ارتبطت بطريقة التعبير، مما جعل بعضاً من معاصريه يهتبلون الفرصة فيقاظونه .

إذ راح مدير تحرير جريدة الأخبار فى ذلك الوقت يعرض ببعض عبارات بهاء الدين مجتزئاً عبارات من مثل أنه قال فى معرض نقد بعض التفسيرات التراثية الخاطئة لليلة القدر، وكأن الله - غفر لنا - يقيم «أوكازيوناً» العبادة فيه «بسر التكلفة، أسهل وأرخص (ي ١٧/٧) .

كذلك حين عرض به بهاء الدين فى إحدى المرات بعبارة من مثل «..الصحفى الدجال» (ي ٨/٢) وما إلى ذلك، مستعدياً نقابة الصحفيين ضده مما أضاف إلى الإسراف السن العلنى وتهمة القذف .

وقد تمخض النظر فى الدعوة المدنية (انعقدت فى ٢٦/٤/١٩٨٣) إلى حكم بإدانة أحمد بهاء الدين وتغريمه أتعاب المحاماة (انظر الملحق) .

* * *

د - حرية الفكر

ولم يلبث في العام التالي مباشرة أن عاد لي طرح قضايا تنويرية أخرى أو «تفريعات» من القضايا السابقة، ملقزماً خطأ واحداً، هو أن الإسلام (دين العقل والحرية) مبرراً للعود لذلك بأن العقل ما زال محل هجوم شديد ممن يرون تعطيله أو على وشك من شباب كثيرين مما يخلق بينهم روح الخوف والاستكانة أمام بشر مثلهم، بدلاً من روح الاجتهاد التي كان يأخذ بها العظماء من الخلفاء (ي ١٥/٦/٨٣) .

ويلاحظ أنه طيلة اليوميات التي يركز فيها إلى جانب الفكر على قضايا من مثل فقهاء الفروع والمصالح المرسلة، يستعين - كدأبه - بنتاج مفكرين مشهورين، وممن يتمتع بعضهم بالحس السلفي إلى حد كبير من أمثال عباس العقاد، ومنت الشاطئ لإقناع محدثيه بما يريد، مؤكداً على الجدل ومن أدواته العقل، كما لا يجب أن يلغى مسلم عقله بما أورده القرآن، مشيراً خلال حديث العقاد أن لا تناقض بين أن يأمر الله الإنسان استخدام العقل وبين وجود ضوابط وروابط لاستخدام العقل: كتوقير السلف والاتجاه بالسؤال إلى أهل الذكر وطاعة الحاكم الصالح.

وهو يتمهل كل مرة عند قضية الاجتهاد فيقول: «إن للعقل في تاريخ الفقه الإسلامي مساحات شاسعة خاض فيها باجتهاد واقتدار سواء في فهم ما يوجد من معان كما منة في جوهر النص وعدم الاكتفاء بظااهره الذي تسارى في معرفته أى الظاهر إن إنسان أو في مجال الأشياء الكثيرة جداً والمتجددة أبداً والتي أوجدت في الفقه الإسلامي نفعاً كبيراً لنظرية المصالح

المرسلة، أى المصالح التى لم تعتمد بنص فى القرآن، ولهذه النظرية الإسلامية مجال فى أحاديث معينة (ى ١٦ - ١٨ / ٦) .
وهنا يتصل بنا إلى قضية أخرى.

هـ - فقهاء الفروع

بعد أن يطرح قضية سماها الشيخ محمد الغزالي (فى آخر كتبه: هموم داعية) قضية (فقهاء الفروع) .

وهى تعنى أولئك الذين يتركون القضايا الكبرى، التى تواجه المسلم اليوم، من حرية وشورى ونظم اجتماعية واقتصادية، إلى قضايا فرعية. خصوصاً فى العبادات التى نتعلمها ببساطتها فى البيوت وفى المدارس الابتدائية. فيغوصون فى تفاصيلها وفى أمور افترنت بتقهقر الفكر الإسلامى وخروجه من ساحة العمل إلى ساحة خدمة الحاكم وتبرير مواقف السلطان. وجعلوا منها مذاهب كالذى صلى: أضع يديه مبسوطتين، أم يضعهما مضمومتين على قلبه. أم على صدره، وكله حلال ولا يفسد صلاة ولا يحتاج لمعارك فقهية، وهو مرض قديم.

وعلى هذا النحو، فإنه يورد أمثلة من التاريخ ليضرب أمثلة لأولئك الفقهاء الذين يعلنون حرياً غير شريفة، ويحولون الإسلام إلى مذاهب، فمن أكبر ما يشين هذا الفقه الهابط، أنه لا يدري كثيراً ولا قليلاً عن دساتير الحاكم. وأساليب الشورى. وتداول المال، وتظام الطبقات، ثم هو.. إلى آخر جهل هذه الفئة بقضايا المسلمين الحياتية، فالعقول الكلية لا تعرف إلا

القضايا التافهة وهنا يظل الأمر المهم أن ننتبه إلى الفارق بين اثنين:

- «فقه الدين».

- «فقه الدنيا»..

ويسهب بهاء الدين مستنداً إلى فكر الشيخ الغزالي، ضارباً أمثلة كثيرة في أكثر من (يومية)، نورد بعضها:

* في القارات الخمس تعطى الشعوب الحق في أن تستبقى الحاكم الذي تحب، وتستبعد الحاكم الذي تكره، فما الذي جعل الأمة الإسلامية تشذ عن هذه القاعدة، في أغلب أقطارها.

* وعجبت لمتحدثين في الإسلام يسكتون عن هذه القضايا، ويستمرنون الثروة في قضايا أخرى لا تمس الحاضر ولا المستقبل، وإنما تشغل الفراغ وتقتل الوقت فحسب.

كل شيء يمر بأذهانهم إلا قضايا حرية الفكر والساسة وحقوق الأفراد والشعوب.

وبهاء الدين ينقل صيحات الشيخ المتنور، ويستمر في ذلك، رغم الإطالة التي ظل يمارسها لأيام، منتهياً بالتحذير بهذا البيت الشعري (وأما ممات لا قيامة بعده .. ممات لعمرى لم يقس بممات) (٢٣ - ٢٦/٦).

وعلى ذلك، نلاحظ، أنه ناقش قضايا إسلامية في غاية الحساسية، وفي ظل مرجعية إسلامية جامدة ينادى بها السلفيون، يستعين أحياناً بمشايخ عصره وعلمائه، ويستعين أحياناً أخرى بنبرته الهادئة في ضرورة إجراء الحوار - وإن لم ينجح كثيراً في الاحتفاظ بهدوئه - ولم يتردد في مناقشة أعنى هذه المسائل ليفرق دائماً بين المرجعية الأولى والمرجعية التاريخية.

و - المصالح المرسلة

إن بهاء الدين يعود لخطاب العقل متمهلاً عند حرية الاجتهاد، فيرى أن الاجتهاد الإسلامي بذل جهداً كبيراً من اليوم الأول بعد وفاة الرسول - ص - وخاصة في القرون الأربعة الأولى بوجه خاص، ثم يتمهل أكثر عند قضية هامة يراها من أهم النظريات التي توصل إليها الأئمة العظام المجتهدون، وهي نظرية «المصالح المرسلة» ..

ونظرية المصالح المرسلة - كما عرف لها - المصالح التي لم يقيدوها نص صريح .

فالاجتهاد بدأ من وفاة الرسول، وبدأ واضحاً أن هناك ظروفاً تلفت النظر إلى اجتهاد جديد، فمع انتشار الإسلام السريع في بيئات شتى، وتعذر الرجوع إلى الخليفة أو أهل الحل والعقد في مكة . وإذا كانت مصادر الشريعة هي القرآن والسنة والإجماع، فقد بقي القرآن والسنة، ولكن الإجماع صار صعباً أو مستحيلًا بتوزيع الصحابة ثم التابعين بين شتى الأقطار، وحتى في عصر الرسول أرسل لأبي موسى الأشعري ليحثه على

(.. قس الأمور عندئذ ثم اعمد إلى أحبها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق).

وهذا يشير - كما يرجح بهاء الدين بالاعتماد على علماء معاصرين إلى اللجوء إلى القياس والفهم الواعي.. وما إلى ذلك ما يمكن أن يطلق عليه نظرية (المصالح المرسله)، أى المصالح غير المقيدة بنص، لم تتبلور كنظرية إلا بعد قرون، غير أن الأئمة والصحابه والتابعين أخذوا قبل ذلك بعبارات تدور حول فكرة (المصلحة). فعرف الفقه الإسلامى (القياس)، وهو باب بأكمله فى الفقه، له شروط دقيقة، وكذلك: عبارات الاستحسان والاستصلاح وسد الذرائع وغيرها من صور الاجتهاد، والقاعدة أساساً هى أن القياس - مثلاً - مظهر، للحكم لا منشئ له، وهى قاعدة تحكم كل فروع الاجتهاد والاستنباط (ى ١ - ٤/٧/٨٣).

ولا يكف أحمد بهاء الدين - لعدة أيام - عن طرح النظرية وتبسيطها وتلخيصها عبر روايات قديمة وجديدة، قائلاً ضمن ما يقول إنها «نظرية، تتفوق على نظريات القوانين الحديثة فى أخذها - فما ليس فيه نص - بما يسمى «بالقانون الطبيعى»، وهو باب يقوم على الاجتهاد. واستخدام العقل فى الفصوص بحثاً عن المعانى الكامنة فى النصوص، وهى تعطى «العقل، الذى منحه الله للإنسان دون غيره».

ورغم أن الكاتب لا يتحول مثالتنظير إلى التطبيق فى هذه الفترة، فإنه يشرح النظرية فى تطويل - يمهّد، فيما يبدو، إلى قضايا كثيرة آتية - كما سنرى - لنرى فيها الفكر الراديكالى فى الاجتهاد.

وينهى بهاء الدين يوميات هذه الفترة بالتحريم حول قضية ضرورة فتح

باب الاجتهاد، ضارباً المثل بالشيخ محمد عبده مرة أخرى، وإباحته لفن الرسم، وإن استطرد بأن القضية لم تعد، منذ مئة سنة، قضية الرسم، إنما هو المعنى الذى أكرره وهو معنى الاجتهاد، وتفسير النصوص، وتحكيم العقل، والظروف المتغيرة، بغير تناقض مع الدين (٨٣/٧/٨).

ز - تطبيق الشريعة

ولا تمضى سنوات قليلة حتى يعود بهاء الدين إلى قضايا العقل والحرية، ويتمهل عند قضية بعينها، هى قضية تطبيق الشريعة الإسلامية.. وقد كان ذلك يتم استجابة لضغط عديد من الجماعات الإسلامية التى ترى أن ثمة تعارضاً حدث بين الخطاب المرجعى للإسلام والخطاب التاريخى له، والبحث عن طريق يجنبنا الخروج من المأزق الذى انتهينا إليه الآن، وهونتاج للخطاب التاريخى للإسلام، لا يكون إلا إلى الإسلام المرجعى فى فترته الأولى، للعود إلى صفاء مبادئ الإسلام، وهو ما يعنى العودة إلى (الأصل) والتمثل بمجتمع الرسول والخلفاء الراشدين. وقد تفجرت هذه القضية إبان اغتيال أحد وزراء الداخلية فيما يبدو من الجماعات الإسلامية.

وقد وجد بهاء الدين الفرصة لمهاجمة هذه الجماعات التى لجأت للعنف كسلاح للتغيير، والجماعات الدينية التى تلجأ للمال لخداع الآخرين باسم الدين، مهاجماً من اتهم كل الجماعات السياسية عدا الجماعات الدينية.

وراح يضرب أمثلة كثيرة من التاريخ ليؤكد أن ما يحدث إنما حدث من قبل، وتصدى له عدد كبير من الكتاب وعلماء الدين متهمين إياه بأنه يركز على الجماعات الإسلامية.

المهم أن ذلك أفرز قضيتين رئيسيتين :

إحداهما تطبيق الشريعة الإسلامية.

والأخرى.. إعادة النظر في كتابة التاريخ الإسلامى..

وفى معرض الرد على الكثيرين راح يرفض أن تطبق الشريعة الإسلامية كما يحلو للمسلمين، لا الإسلام، ولا يستطيع أى إنسان مهما يكن أن يطلق على آخر صفة (الكفر) أو يتهمه بالمطلقات بحجة أنه يملك بيده من الطقوس الدينية ما لا يملكه ذاك..

وكما هاجم الجماعات الإسلامية المتطرفة، كذلك، هاجم الكتاب من المتطرفين والمعتدلين سواء بسواء، كذلك، هاجم قاموس التيار الإسلامى الذى يطلق أحكامه بشكل يعوزه المنطق الإسلامى..

على أنه يصعب التوقف عند قضية تطبيق الشريعة دون التوقف أكثر عند قضية كتابة التاريخ الإسلامى لتداخل القضيتين فى كتابات هذه الأيام بما يحيلهما - فى السياق الأخير - إلى قضية واحدة.

ح - كتابة التاريخ الإسلامى

وكتابة التاريخ هنا تشير - من وجهة نظر التيار الإسلامى - إلى وجود

الشرعية الإسلامية في الإسلام المرجعي كنقطة مركزية، وذلك يشير -
من وجهة نظر بهاء الدين - إلى اتخاذ الماضي - تمشيًا مع السلفيين -
ليكون أساس شرعية التيار الإسلامي.

ولكن أى ماضى؟

إن التيار الإسلامى ينقسم على نفسه:

البعض يرى أن الذى يبدأ من دولة الإسلام فى عهد الرسول والخلفاء.

لكن الأغلبية ترى أنه الذى طبق طيلة التاريخ الإسلامى.

وهنا يحدد بهاء الدين ما يريد حين يقول: «إننا كلما أردنا أن نضرب
مثلاً على عدل حكام المسلمين، وولاء الأمر فيهم، لا نكاد نبرح عهد
الرسول وخلفائه الراشدين، (١٧/٥/٦١)».

وحين يرد فهمى هويدى رافضاً الكثير من أفكار أحمد بهاء الدين،
يعاود بهاء الدين الرد مبدئياً سعادته لتقدم لغة الحوار، داخلاً فى مساجلات
عنيفة حول (مواقع الكلمات).

وقد استعر الخلاف أكثر حين طالب فهمى هويدى بإعادة قراءة التاريخ
الإسلامى (لا كتابته) مفنداً رأى بهاء الدين حول أننا لا نبرح العهد الأول
للنبوة حين نتحدث عن العدل الإسلامى قائلاً: «إنه من حيث المبدأ لا
تحاكم القيمة بالتاريخ، إلا إذا استوفى التطبيق التاريخى شروطه التى
تستوجبها القيمة (أهرام ٢٦ / ١٧/٥) .. هنا تهمل بهاء الدين كثيراً.

راح فى يومياته المرقمة تحت عنوان (دفاعاً عن الإسلام) لا يفرق بين

كتابة التاريخ، وقراءته: «فهما متلازمان.. فنحن نكتب ما نقرأ». ونقرأ ما نكتبه، وإعادة القراءة لا تتم إلا بإعادة الكتابة، وإعادة كتابة التاريخ الإسلامي تتم باستمرار، (ي ١٤/٦/٨٧)، موضحاً رأيه مرة أخرى بعد أن عرض لعدد كبير من آراء المشايخ والمثقفين الذين ردوا عليه:

الخلاصة إذن.. إن القول بأن الشريعة لم تكن مطبقة تطبيقاً صحيحاً طيلة أربعة عشر قرناً.. قول غير صحيح، وإن ما نتحدث عنه هو تاريخ مسلمين لا يحسب على الإسلام. (ي ١٥).

ويصل من هذا إلى حقيقة هامة.

يندهش لأولئك الذين يرون أن الشريعة كانت مطبقة حتى جاء الغرب المستعمر، فقد جاء الغرب واستعمرنا لأننا - على حد قوله - كنا أمة متخلفة عنه بعدة قرون! (ي ١٧).

ولعدة مرات يوالى في يومياته هذا الرأي، ويحاول البرهنة عليه بشكل مباشر أو من خلال الكتاب والمثقفين ومن السلفيين أنفسهم - كمحمد عماره والقرضاوى - منتهياً إلى إدانة الحركات الإسلامية المتشددة والكتاب والدعاة الإسلاميين لما يحدث، بل إن عليهم - كما قال - مسئولية عدم القيام بحركة تصحيح للانحراف، كذلك مسئولون ليتصدوا إلى حركة الاجتهاد وأعمال العقل وإزالة أكوام الخرافات. بل والانحرافات عن الدين. (ي ٢١).

وهو بذلك يخلص من لوم المثقفين أو الأصوليين ليتعرض - فيما بعد - بشكل مباشر - للرموز الأكثر تأثيراً وشهرة..

ط - أ أعضاء الجسد

وفى السنوات الأخيرة قبل مرضه وصمته تعرض لعدد من القضايا على قدر كبير من الجسارة .

(شغل - على سبيل المثال - موضوع النظام الاقتصادى الإسلامى، وما يتفرغ عنه من قضايا .. قضية الموارث، وقضية شهادات الاستثمار .

غير أن قضية التعرض لعلماء الدين فى قضايا تتصل بال جماهير بشكل مباشر احتلت عنده المقام الأول .

فقبل عام بالضبط من توقفه تماماً عن الكتابة - فبراير ١٩٨٩ - تعرض للشيخ محمد متولى الشعراوى بما لم يجرؤ عليه غيره .

فقبل سنوات كان الشيخ الشعراوى قد أصدر بياناً (جريدة اللواء الإسلامى ١٧ مارس ١٩٨٣) ، وفيه تعرض للتيار الليبرالى المستنير فى مصر، فهاجم كل من توفيق الحكيم، ويوسف إدريس، وزكى نجيب محمود، وسامح، أن تعقد ندوة إعلامية ليفهمهم - فيما يكتبونه . كما أعلن - فى (قضية تحمل الضلال والإضلال .

ولم يتردد أحمد بهاء الدين لأكثر من مرة بعد ذلك من التصدى للشيخ الشعراوى، وإن اتخذ موقفاً منفرداً عن هؤلاء المثقفين، وكان يتخذ موقفه فى جريدة الأهرام أكثر الصحف المصرية رسمية ومحافظة .

لقد أسهب بهاء الدين فى هذا .

واللافت للنظر هنا أنه بعد قرابة قرن من الزمان على رحيل الشيخ

محمد عبده، - يقول - تراجع الفكر المستنير، فبعد أن كان محمد عبده يواجه عواصف من علماء الدين في زمانه أو ممن ينتمون إلى هذا الدين، أصبح خلفاء علماء الدين هؤلاء هم الذين يواجهون رموز التيار المستمر من خارج التيار الإسلامي، كان محمد عبده يسعى لإمكان التوفيق بين الإسلام والغرب الحديث، فجاء ممن يحسبون على نفس التيار الآن، وبعد أن كان يحارب التقليدية.. ويركز على العقل (UNESCO, HID)، جاء الآن من يدعو إلى الإسلام التاريخي المنحرف وليس الإسلام المرجعي / الأول.

وسوف نصرب مثلاً واحداً هنا، فقد أفتى الشيخ الشعراوي بأن نقل أعضاء الجسم حرام، فالجسم ملك لله تعالى، ولا يملك الإنسان أن يتصرف فيه كمن يتصرف فيما لا يملك، بدليل أن الانتحار حرام وكفر، وأن نقل أعضاء من مشرف على الموت أو ميت إلى مريض هدفه هو تأجيل لقاء الإنسان بربه، متهماً من يفعل ذلك من الأطباء أنهم يمنعون الموت ساخراً من أولئك.

لقد كتب بهاء الدين غاضباً، متعجباً من انحدار الاجتهاد الإسلامي إلى أدنى درجة، مشفقاً من انتهاء دور العقل لدى العلماء، فذلك معناه إلغاء الطب والعلاج وإلغاء علوم الطب وإغلاق المستشفيات، مع أن الرسول - ص - كان يمرض ويتداوى، وكان يزود أصحابه بالنصائح.. إلى آخر ما يدل به العقل على فساد رأى الشيخ سائلاً وهل يعالج الشيخ الشعراوي في المستشفيات وعلى يد الأطباء حين يمرض أم لا؟ (ي ٨٩/٢/٤).

ولم يلبث في اليوم التالي أن واصل هجومه على الشيخ مركزاً على

قضية هامة، هي أنه ليس الخطير في كلام الشيخ، ما قاله بشكل مباشر، وإنما فلسفة ذلك، يقول بهاء الدين:

«الفلسفة الكامنة وراء هذا المنطق وما يستقر في نفوس الناس من هذه النظرية الشاملة إلى الحياة، المترتبة على هذا القول.. (و) .. إن هذه النظرية العدمية، الداعية إلى الانقراض هي المفزعة في الموضوع. حتى لو قابل المرء أسداً في الصحراء لا يستسلم إليه ليلتهم دون أن يحاول أن يحاربه، ويرده عن نفسه، هذه مذاهب وأفكار لها جذورها وهي غريبة على الإسلام، ومنافية لنص القرآن وروحه. (ي ٥) .

ويكون ذلك كله مدخلاً - كما سدرى - ليتحدث عن بواغث التخلف والهزيمة التي دفعنا إليها، وقد دفعنا دفعاً، لبعدها عن هذه (الدولة العصرية) التي يظللها العقل والحرية، ويلعب فيها الاجتهاد المستتير دوراً كبيراً..

غير أننا قبل أن نصل إلى السلبيات التي تحول بيننا وبين التنبه إلى تأرجح إقدامنا في العالم الحديث، بقيت قضية تحتل نقطة هامة في الفكر التنويري العربي عند بهاء الدين، وهي قضية المرأة..

فلنتمهل عندها، قبل أن نعاون الصعود إلى (الدولة العصرية) وتطورها.

ثانياً

قضية المرأة

لا يجب أن يمنح للرجل
حرية أكثر من المرأة
بحجة الجنس،

قضية المرأة تستحوذ على مساحات شاسعة في فكره .

وهي مساحات ترتبط بالوعى التنويرى أساساً، والموقف القومى العربى .

ومن يراجع أدبيات الفكر العربى يلاحظ تراجع وعى عديد من أفراد المجتمع ومنهم المرأة نفسها فى هذه القضية عما وصل إليه هذا الفكر منذ قرن أو يزيد ، وهو تراجع يدل على تردى العقل والاجتهاد، ومحاولة ربط قضية تحرر المرأة دائماً بقضية الأخلاق .

وكان أحمد بها الدين أول من تنبه إلى المرجعية التاريخية، إذ ارتبط موقف المرأة بهذه المرجعية دون العود إلى أبعد من ذلك، حين كان يجب الاقتداء بالنموذج الأول فى المرحلة النبوية، مما جعل الثانى - التاريخى - يحيد عن الاتجاه الأصولى الأول - مكوناً لنفسه سياق خاص مفض فى النتيجة إلى انحطاط وفى كل صور التطور الحضارى وفى مقدمته انحطاط فى قيمة المرأة ومكانتها فى المجتمع العربى .

وهو ما يفسر إعجاب بهاء الدين بالشيخ محمد عبده، وأهم تلامذته فى

هذا المجال وهو قاسم أمين، إذ راح يعمق التراث الإسلامى ويتفهم الحضارة الغربية مما وصل به إلى اقتناع مؤداه ضرورة تحرير المرأة العربية UNESCO، وإثبات أن تحرر المرأة لا يربط بقضايا معرفية أخرى، اللهم بدرجة الفهم الحقيقى لواقع المجتمع العربى.

وهو ما تحدد معه فهم بهاء الدين من المرأة فى عدة محاور يمكن أن تمثل جميعها رؤيته كأحد رواد التنوير اليوم.

* * *

منذ البداية رفض تماماً الربط بين حرية المرأة وموضوع الأخلاق..

إذ رفض أولئك الذين ما زالوا يفكرون فى حرية المرأة فيرون أنها تقوم على أساس أن عدم الحرية معناه التمسك بالأخلاق، وأن الحرية بمعناها عدم التمسك بالأخلاق. أى، على أساس أن الحرية والأخلاق نقيضان،، (آخر ساعة ٦٢/٦/٦)، بل يساوى بين الرجل والمرأة فى درجة الحرية دون ارتباط هذه القيمة بأى عامل آخر، ومن ثم استنتج أنه لا يجب أن يمنح للرجل حرية أكثر من المرأة بحجة الجنس (الجيل ٦١/٤/٢٤)، وذلك رأى متقدم فى فترة الستينات فى العالم العربى، حيث كانت العديد من الأنظمة العربية - كمصر وسوريا والعراق - تعرف بانتمائها إلى المجتمع التقدمى الاشتراكى فى مواجهة محور آخر من بقية الدول العربية التى كانت تعرف بأنها تنتمى إلى المجتمع الرجعى المتأخر.

معنى هذا أن الحديث عن حرية المرأة دون أن يسبقه حديث عن

قضية المرأة

مساواة المرأة بالرجل يصبح حديثاً فارغاً من أى مضمون عصرى، وفي هذا راح بهاء الدين يعارض هذه المساواة، ويعنف شديد، سواء من علماء الدين أو من بين المثقفين.

وهو فى سبيل ذلك لا يجد حرجاً فى أن يهاجم أحد علماء الدين الكبار فى عصره كالشيخ محمد أبوزهرة، فالمساواة بين الرجل والمرأة عند الشيخ أبوزهرة - بعد أن هاجم الشيخ فكره - غير مسموح بها قط، اللهم إلا إذا كان مفهوم المساواة يعنى أن «كلاً من الرجل والمرأة يخرج عن هواه وكيفما يشاء». (أهرام ١٩/٨/١٩٦١)، متصدياً للشيخ مؤكداً أنه من المفروض على كل منهما - أى الرجل والمرأة - أن يكون «مقيداً فى دخوله وخروجه وتفاصيل حياته برأى الآخر ومشورته واقتناعه»..

وبهاء الدين لا يستنكف عن الهجوم الجارح على الشيخ التقليدى وإلى درجة أن يظهره معارضاً للنظام السائد فى الستينات الذى كان يتحدث عن الطبقات، فيظهره متخذاً موقفاً منها، يقول :

«الشيخ لا يطبق حكاية الطبقة والمجتمع الذى ليس فيه طبقات! ويقول إن المساواة معناها أن تكون المرأة من غير عاصم يعصمها ولا راعى يرعاها ولا حاكم يحميها ولا بيتاً يؤويها»..

ويتهمه فى النهاية بأنه من محترفى التلاعب بالنصوص وتلبسها بالمعانى المزورة.. إلى غير ذلك مما يصل إلى أقصاه من التجريح العنيف. ورغم أنه يعترف أن عباس العقاد (جبار) فى عدائه ضد مخالفيه، فإنه لا يتردد فى التصدى له بعنف لا يقل من تصديه للشيخ أبوزهرة حين

لاحظ رفضه للمساواة بين الرجل والمرأة، فيتهم العقاد بأنه يتهم كل من يخالفه بالشيوعية ويعرضه لبطش (مكارثي) عنيف، ضارباً له أمثلة كثيرة عن تقدم المرأة ومساواتها حولنا في الصين الشيوعية والهند البوذية والهند.. ولكن هذا الأمر الراقع كما يقول لا يعنى شيئاً، مستطرداً في سخريته منه:

«فالعقاد لا يخطئ.. وعلى العالم بأسره أن يتوقف، وأن يستدير، وأن يعود إلى الوراء، وينسى ما كان من تسامله مع النساء، حتى لا يكذب العقاد...» (مبادئ وأشخاص، ص ١٠٤).

ويسترسل أحمد بهاء الدين ليعرض وجهة نظر العقاد بسخرية، فهذا الموقف المعادي للمرأة يعنى لديه أن المرأة تختلف تماماً عن الرجل، سواء في وظائف الغدد أو في تكوين الأعضاء، وفي شواغل الذوق والإحساس مما يصل به إلى عدم مساواة المرأة بالرجل سواء في الوظيفة أو التخصص:

«إن شرط التفوق هنا لا معنى له على الإطلاق.. لأنه شرط موجود بين الرجال والنساء على السواء.. لكل عمل يفضل له عادة الأكثر تفوقاً رجلاً كان أو امرأة/ ووجود الأقل لا يمنع وجود الأقل قدرة ما دام المجتمع في حاجة إلى جهده أيضاً...» (١١٠).

ومن دفاعه المطلق عن مساواة المرأة بالرجل، فإن بهاء الدين يعترف للمرأة صراحة بحق العلم.

قضية المرأة

وقد لاحظ أنه وإن سمح للمرأة العربية في الستينات بحق العلم بعد جهاد طويل فإنه ينكر عليها الآن حق العمل، فقد كانت قضية خروج المرأة من المنزل تناقش على أنها قضية دينية وتتردد فيها ألفاظ من مثل الحرام، والحجاب، وولى الأمر.. وما إلى ذلك، فراح يسأل مندهشاً: «ما هو الفارق العملي بين السماح لها بالعلم. والسماح لها بالعمل؟ (الثورة الاشتراكية ص ٩٤) .. متمهلاً أكثر عند عمل المرأة خاصة..

ويزيد هذا الأمر أهمية في بلاد مثل بلادنا تبحث عن حقها في الحياة التي لا يمكن أن تقوم على أكتاف الرجل وحده، فما زالت بلادنا تزرع نحن نير التخلف الاقتصادي الساحق، ويتفاوت فيما بينها مستويات العيش إلى درجة يحول بينها وبين البحث عن صيغة (اقتصادية) تكون بديلاً عن الصيغة (الثقافية) أو (الإثنية) التي نبحث عنها كركيزة للوحدة بين أقطارنا العربية حيث لا يجب أن تتخلف التنمية عن العوامل الأخرى قط.

وكان أكبر مثال تمهل عنده بهاء الدين لتشخيص هذه الحالة المتردية عندنا في علاقة المجتمع بالمرأة، هو مجيء (جميلة الجزائرية) في زيارة إلى مصر عقب الإفراج عنها في بداية الستينات، وقد بلغ اندهاشه مداه حين لاحظ أن من يحتفى بجميلة.. المناضلة العربية هم فقط هيئات نسائية، وجمعيات نسائية، لا يشارك فيه رجل واحد، فهذه المناضلة ليست بطلة نسائية فقط، وإنما هي (بطلة قضية قومية). (آخر ساعة ٢٨/٦٢٠٤).

والقضية القومية ليست قطرية أو نوعية وإنما هي قضية سياسية

اجتماعية واقتصادية تتصل بالمستقبل العربي كله.

إن رمز جميلة هنا يرفض الانحصار في الخندق النسائي، فالكفاح العربي ضد المستعمر الغربي ليس نسائياً، وإنما هو كفاح مجتمع عربي تشارك فيه المرأة بجانب الرجل سواء بسواء،

* * *

وقد تكون حياة بهاء الدين الخاصة مثلاً قديماً للوعي العربي مما يغرينا بالتمهل عندها قليلاً.

بدأ بهاء الدين حياته مفكراً واعياً، يرفض السقوط في هذه الثنائية التي يسقط فيها المثقف العربي في حيرته بين الفكر والفعل.

تزوج بطريقة راديكالية، حين التقى بفتاة تدرس بإحدى الكليات الجامعية، وقد تحدت العناصر الأولى في هذا الزيجة في تلك البدايات التي شغلت طويلاً بمناقشات عقلية واعية بين رجل وامرأة، وما لبثت أن خلفت الفترة العقلية إحساساً عاطفياً، اقتربت بهما إلى طلب الارتباط، ولأن أهل الفتاة كانوا ينتمون إلى دين غير دين الفتى - مسيحية - فقد رقصت الأسرة مثل هذا الزواج، الذي أعلن عن نفسه سراً حين أشهراً زواجهما بعيداً عن الأهل، وباقتناع ذاتي كامل.

وقد كان بهاء الدين واعياً لقيمة المرأة ودورها في التنوير العربي إلى حد بعيد، مما يذكرنا بقصة زواج الشيخ على يوسف من صغية أحد البيوتات

قضية المرأة

الكبيرة، وهى قصة ذكرها لنا بهاء الدين بتفصيل موح فى كتابه (أيام لها تاريخ) مما يشير إلى العلاقة الوثيقة بين القصتين^(*).

وقد كان هذا كله يشير إلى أمر هام، هو اهتمام بهاء الدين بالمرأة وهو اهتمام يرتبط باهتمامه بها على أنها تلعب دوراً كبيراً فى المجتمع العربى، وهذا الدور يتحدد فى الاقتصاد بوجه خاص، على اعتبار، أن العدل يلعب فى المجتمع العربى دوراً تنموياً رائداً، فى حين يظل التخلف الاقتصادى من أكبر العوامل التى تطرد الحب من المجتمع. (أفكار معاصرة ص ١٥٠).

يبد أن الاهتمام بدور المجتمع وتأكيد دور الرجل فى تنوير المرأة

(*) ثمة علاقة وثيقة بين أحمد بهاء الدين والشيخ على يوسف، وهذه العلاقة تتحدد فى شكل القضية التى تتقارب حوادثها بين كل منهما وإن اختلفت - بعد ذلك - بين فكريهما. كانت العلاقة الوثيقة بين الاثنين تشير إلى هذا التشابه. فكلاهما صعيدى من جنوب مصر، وكلاهما جاء إلى القاهرة، وكلاهما امتحن مهنة الصحافة على بعد النظر إليها بين العشرينات والخمسينات، وكلاهما اهتم بالقضايا العامة، وكلاهما - وهذا هو المهم - تقدم لخطبة فتاة، رفض أهل الأولى تزويجها لعلى اليوسف بتهمة العمل الوضيع والأصل المتدنى، فى حين رفض أهل الثانية تزويجها لبهاء الدين بتهمة اختلاف العقيدة - كانت مسيحية مصرية. وفى حين تلتهى قصة بهاء الدين بالزواج منها سراً، لا تلتهى قصة على اليوسف، إذ ترفع صده القضايا من بيت الزوجة، ويثار الرأى العام، وتحدث ضجة كبيرة تلتهى بعد.... وإن لا تهتما التفاصيل، فنحن نميل إلى رأى بهاء من أن على يوسف كان كاتباً رجعياً فى فكره والقصة فى كتاب بهاء، أيام لها تاريخ، دار الشروق ط ٩١/٢ ص ٤٩.

وتطويرها لا يحول دون التنبه دور المرأة نفسها، إذ لم يغفل دور المرأة في كثير من الكتابات.

وقد راح يضرب أمثلة كثيرة لهذه المرأة العظيمة عنده. وهي العظمة التي تستمد من الشعور بالمسؤولية، والنهوض بها (أفكار ٣٣٣).

كما أن هذه المسؤولية عنده لا يجب أن تكون مطلقة، وإنما لها درجات، والدرجة المثلى للمسؤولية تقف عندها المرأة العظيمة، وراح يضرب أمثلة كثيرة لهذه المرأة العظيمة من أمثال سيمون دي بوفوار، كما أسهب طويلاً عن بيانيس إحدى قادة الفكر الاشتراكي الإنجليزي في هذا القرن..

وفي مراجعة موقفه الأساسي من المرأة نستطيع أن نلاحظ أنه لم يحدد فقط حقوق المرأة، ولامح المرأة المسئولة فحسب، وإنما أيضاً، اتخذ موقفاً إيجابياً من هذه المرأة.

من هذه المواقف أنه دعا المرأة، ربما أكثر من غيره، لتأخذ المبادرة للتغيير، وتتخلص من السلبية التي تبدر بها المرأة في المجتمع العربي، وخاصة حين دخل المجتمع العربي في فترة السبعينات، حين كان لابد للمرأة أن تلعب دوراً إيجابياً في تنوير المجتمع والدفاع عن قضاياها التي تتراجع، وقد وصل به الأمر إلى أنه لم يكتف بالكتابة عن حقوق المرأة، بل صاح بالمرأة الصامنة أن تكون إيجابية، وتتحرك في الاتجاه الإيجابي.

وقد توجه في إحدى المرات - كما سنرى - أثناء مناقشة قانون الأحوال الشخصية - بحديث عن نساء مجلس الشعب الصامتات ليتخذن موقفاً إيجابياً بدلاً من هذا الصمت عند العضوات، حين عرض

قضية المرأة

عليهن القانون الملغى للأحوال، (ى ٨٥/٧/٣٠).

وما لبث فى اليوم التالى أن بلور هذا الموقف فى اقتراح محدد قائلاً:

للنساء المطالبات بحقوقهن الشرعية، أن تتضافر كل الهيئات النسائية فى حركة لجمع توقيعات من النساء.. يمكن أن تصل إلى مليون توقيع. ولكن قد يكفى مائة ألف من مراكز تجميع النساء العاملات: وزارة التربية.. وزارة الصحة.. المصانع التى تكثُر فيها نسبة العاملات، طالبات الجامعات. الأحزاب. وريات البيوت... هذه الوثيقة حين تقدم إلى مجلس الشعب تصبح وثيقة تاريخية تثبت مطالبة المرأة المصرية بحقوقها الشرعية، (ى ٣١).

وعلى أية حال، فإن موقف بهاء الدين من قضية المرأة كان ينطلق أساساً من موقفه التنويرى الذى يقوم على الاجتهاد الإيجابى والذى يعتمد على العقل الذى يلتقى مع أحكام الشريعة - كما يؤكد كثيراً - وعلى اجتهادات الكثير من العلماء أو المجتهدين.

وسوف نعيد التعبير عن هذا الموقف حين نتمهل عند قضيتين محددتين من قضايا المرأة، أسهم فيها بهاء الدين إسهامه الأساسى، أحدهما: قضية قوانين الأحوال الشخصية، والأخرى قضية الميراث.

* * *

قضية قوانين الأحوال

اتخذ موقف بهاء الدين من قانون الأحوال الشخصية شكلاً مؤيداً تأييداً مطلقاً، إلى الدرجة التي راح، بمفرده، يعارض الغاءه عقب حكم المحكمة الدستورية بإلغائه.

وهو القانون الذي سبق وصدر في فترة أنور السادات وبإيعاز وتأييد من جيهان السادات.

ويبدو أن تأييده للقانون الملغى لم يرتبط أساساً بموقفه من السيدة جيهان رغم علاقاته الطيبة بها فترة تولى زوجها الرئيس، وإنما من قناعات شخصية يؤكد لها موقفه التنويري بشكل عام، إذ كان الوحيد ضد التيار الذي يتخذ هذا الموقف حين راحت التيارات الإسلامية تهاجم المشروع يؤيدها الأغلبية الساحقة من الرجال.

في هذا الوقت راح بهاء يهاجم رجال الدين ورجال القضاء المعارضين للقانون القديم، وراح يحث المرأة إلى درجة التعريض بموقفها السلبي، وراح يهاجم الموقف الفكري والجماهيري العام الذي تأثر بالغوغائية على حد قوله..

«إن التنوير العقلي وفهم أمور الدين على وجهها الصحيح قد تراجع طويلاً أمام غوغائية هي سياسية أكثر منها دينية». (٨٥/٧/٤).

وفي هذا الإطار راح يتحدث عن حق المرأة في الزواج وحقوقها إبان الطلاق، وبعد أن يتم، غير أن أهم القضايا التي عرض لها في ذلك، كانت

قضية المرأة

قضية الاجتهاد للمرة ربما العشرين، متخذاً من مثل هذا القانون تكتة ليعيد الحديث عن ضرورة أن نأخذ من المذاهب والأقوال الفقهية والشعرية ما نراه مناسباً للحالة التي يوجد الإنسان فيها، ومحقة لمصلحة العامة في المجتمع الذي يعيش فيه حتى لو اختلفت معه المجتمعات والدول الأخرى. وكان من المؤكد أن بهاء الدين وقف إلى جانب القانون الذي تؤيده النساء، والذي أُلغى لأسباب كثيرة، لا يخفى الأسباب السياسية فيه. وإن كان موقفه القائم على العقل والاجتهاد الشرعي يبعد عنه تهمة الانحياز السياسي أو الفكرى لطرف دون طرف آخر.

قضية الميراث

وقد واصل سعيه إلى الاجتهاد في الفكر العربي مهتلاً فرصة دعوة الجماهير إلى إلغاء ضريبة التركات، ليناقد قضية الميراث. وقضية الميراث هنا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتشريع العربي، من منطلق أنها ترتبط بالفقه السني والفقه الشيعي مما يحول دون اتفاق أبناء العقيدة الواحدة.

لقد طرح القضية التراثية بهدف أن يقرب من المذاهب.

والقضية كانت تتحدد في الخلاف بين الفقهاء -السني والشيعي -، فالمذاهب السنية الأربعة ترى أن وجود الإناث لا يحجب باقي التركة عن سائر الأقارب، الأعمام، وأبناء الأعمام.. إلخ، كما يحجب للذكر، في حين أن المذهب الشيعي يساوي بين الذكر والأنثى في هذه النقطة بوجه خاص،

أى أنها كالذكر فى أنها تحجب من يحجبهم الذكر، فهى تأخذ النصف بحق الميراث المباشر، وجزءاً آخر بحق «الرّد»، أى أنه ليس لها أى أخوة ذكور.

ورغم أن موقف بهاء الدين من القضية يرتبط بعرضها للاجتهاد، كما يذكر لنا أكثر من مرة، فإنه ميله إلى الفقه الشيعى لا يمكن إخفاؤه .

يبدو هذا فى عرضه للقضية لأول مرة بشكل لا يجرؤ عليه البعض، لقد طرح القضية للاجتهاد الحر سائلاً «لماذا لا يفتينا فقهاؤنا.. بتغيير هذا الاجتهاد». (ى ١٨/١٢/٨٨)، وفى غضبة من الموجة العنيفة التى هبت ضده ممن يرفضون ما يعرض رافعين لافتة «لا اجتهاد مع النص»، يقول: «فالاجتهاد وارد إذا كان النص القرآنى غير قطعى الدلالة، أو الحديث النبوى مشكوكاً فى صحته». (ى ٢٠/١٢) ثم فى تصريحه الواضح من أن استحسان حكم يأخذ به الفقه الشيعى من حيث المبدأ.. ليس جريمة ولا كفراً ولا يجوز رفضه لهذا السبب وحده .

ثم يضيف إلى ذلك عدة أمثلة سابقة بالفعل فى اليوميات التالية ليؤكد بها .

وعلى ذلك فإن الاختلاف عنده ليس فى استنباط حكم من الأحكام التى تعتمد على نص غير قطعى الدلالة والاختلاف، إنما هو دلائل الحيوية الفكرية الواعية المتسامحة التى تؤدى إلى «طلب الحق» .

وحين يعرض للمذاهب الفقهية المعترف بها ومنها العديد من مذاهب الشيعة، يصل بسرعة إلى ارتباط ذلك بالفكرة القومية والحث على الوحدة العربية . يقول:

«يروى أستاذنا الجليل المرحوم الشيخ محمد أبوزهرة فى

قضية المرأة

كتابه عن جعفر الصادق، مؤسس الفقه الشيعي، أنه في الخمسينات، ومع هبوب رياح الوحدة العربية. والوحدة الإسلامية، أنه تحدث مع المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا في موضوع وجوب تدريس المذاهب الأخرى المعترف بها: الشيعة الإمامية، والشيعة الزيدية لأنها فقه ضخم وهو المأخوذ به في بلاد عربية إسلامية أخرى، واتفقنا على ذلك. (١٢/٢١).

ولا يهمننا تدريس مذهب الشيعة الإمامية في الأزهر بعد ذلك من عدمه، إذ أن هذا الوعي العروبي بالتقريب بين المذاهب، في وجود اجتهاد عربي يدرك الأخطار التي تحيق بالأمة العربية، إنما يعكس وعي أحمد بهاء الدين بذلك كله ويعمل له.

لم يكن يفرق بهاء الدين هنا بين فقه سني أو فقه شيعي، اللهم إلا في ضوء الاجتهاد الإسلامي القطعي بما يقرب بين الأقطار العربية، وبين المذاهب التي تزرع القطرية والطائفية بين أبناء القطر العربي الواحد.

يظهر ذلك في إفساحه لمساحات كبيرة لأنصار الفقه السني ممن هاجموا في أكثر من موضع في (يومياته) أو في نقله لعدد من الصفحات التي تشير إلى الشيعة ومعتقداتهم من الأربعينات حتى اليوم بما فيه اجتهاد أئمتهم، وفي إدراكه أن الخلافات التي تبعد بين الطوائف والمذاهب الإسلامية إنما هي (خصومات دنيوية سياسية). مفتعلة وحسب.

وهو، قبل ذلك وبعده، ما يمنح المرأة العربية حقوقها المنتزعة منها قسراً بحكم مئات السنين التي عاش الوطن العربي فيها في متاهة التخلف والبعث عن جوهر الدين الصحيح..

الفصل الثالث

الدولة العصرية

كان هدف محاولات تحديث المجتمع العربي فى أى قطر عربى، هو محاولة بناء قومية عربية تقوم على أسس علمية تمكّنها من تحقيق أهدافها وترسيخ وجودها.

ومن ثم، فإن الدعوة إلى العلم و(الدولة العصرية) فى هذا العالم لم تكن لتنفصل عن الدعوة للمشروع التنويرى العام الذى يقرب عناصر الوحدة العربية ويعمل على تأكيدها.

ورغم أن التقدم الحضارى كان هاجساً مسيطراً على العقل العربى منذ أمد بعيد، فإن هزيمة ١٩٦٧ كانت أكثر ما جسده.

فمن بين تفسيرات ثلاثة للهزيمة: البعد عن الله -التفسير الدينى، والبعد عن التغيير الجذرى - التفسير الراديكالى - كان التفسير الثالث: رفض الواقع المتخلف وتدنى الوعى العلمى للإنسان العربى أكثر هذه التفسيرات شيوعاً.

وهذا التفسير الأخير يطوى فى طياته عدداً كبيراً من المثقفين العرب، لعل أهمهم كان أحمد بهاء الدين.

وأهمية هذا التيار الأخير - العلمى - تعود إلى أنه ربط بين الهزيمة وعدد كبير من السلبيات التى تتعلق بالتخلف الحضارى، كما أنه تنبه - مبكراً إلى سقوط الأيديولوجيات لصالح العلم، كذلك، لأنه استوعب العاملين الأخير فى المجابهة بيننا وبين الغرب - اليهودى، ومن هنا، دعا إلى ضرورة بناء دولة عصرية، تعمل على رقى الفكر العربى المعاصر بما

يقربه من الثورة المعرفية الهائلة الآن .

وتأسيساً على ذلك نستطيع الاقترب أكثر من بهاء الدين .

لقد تلمس الاتجاه العلمى لتفسير أزمة الواقع العربى، ومن ثم، الانطلاق من التشخيص إلى التحديد، وهو ما يفسر دعوته إلى هذا الدولة العصرية على مدى الحقبة الأخيرة قبل مرضه .

أولاً

الفجوة الحضارية

«إن المشكلة بيننا وبين إسرائيل
هى فجوة حضارية،
ولن يتغير الصراع
دون سد هذه الفجوة،

كان التفسير العلمى يعيد التخلف العربى والهزائم المتتالية إلى هذه
(الفجوة الحضارية) بيننا وبين الغرب.

ورغم أن هذا التفسير اتضح وتبلور أكثر - كما أشرنا - عقب هزيمة ٦٧
لدى عدد كبير من المثقفين كرد فعل للهزيمة والبحث عن تفسير لها، فإن
أحمد بهاء الدين كان أول من تنبه إليه فى منتصف الستينات وإن لم تخطئ
إرهاصاته قبل ذلك بكثير.

لقد كان أول من عبر عن ذلك فى كتابه الذى صدر عام ١٩٦٥ بعنوان
(إسرائيليات) وأثار نقاشاً طويلاً وقت صدوره، وطبعت منه طبعات
متلاحقة، وكان بين من لأمه على صدور مثل هذا الكتاب وقتها أنور
السادات وعديداً من سياسى مصر ومثقفىها، وعدد كبير من السياسيين
والمثقفين من شتى أنحاء العالم.

وقد كان أهم ما يحتويه الكتاب - فضلاً عن شرح الأحزاب المختلفة فى
إسرائيل، والتيارات السياسية المتعددة وأصولها وجذورها.. إلخ - هو أن

إسرائيل العسكرية لا تهمننا، وأن ما يهمنا في المقام الأول يجب أن يكون
'إسرائيل بمعنى التحدى الحضارى لهذه الأمة العربية'. (إسرائيليات، دار
الهلل، القاهرة، ٦٥ ص ٨).

ويتعرض للعجز والهزيمة الإسرائيلية إزاء إسرائيل فيقصره في أننا كنا
متخلفين، فلا بأس من أن نعترف بهذه الحقيقة، (ص ٤٦)، ويضيف في
عبارة طويلة:

لا بد أن نعترف أيضاً أن الصدام الذى وقع على أرض
فلسطين ١٩٤٨، وما قبلها وما بعدها، لم يقع بين كذا ألف
جندى عربى، وبين ألف جندى إسرائيلى. كلا. إنما كان
الصدام بين أوروبا بقوتها الحضارية والمادية.. بسلطتها
السياسية وخبثها الدولى من جهة، وبين العرب بنظمهم
المفككة، ونظمهم الإقطاعية، وفقرهم المادى من جهة
أخرى.

كان المماليك فى أواخر القرن السابع عشر أحسن من حكام
العرب وملوكهم سنة ١٩٤٨، فالمماليك على الأقل قاتلوا
قبل أن يهربوا بجريمتهم ومجورائهم تاركين الشعب الذى
سرقون وأجاعوه بمفرده. أما فى سنة ١٩٤٨ فقد كان بعد
الساسا العرب يلتقون بجولدا مائير، وموشى ديان فى السر
لئى يخططوا معهما المعركة التمثيلية التى سيموت فيها
آلاف الجند..

.. كانت الصهيونية - باختصار شديد - تمثل الغرب بكل قوته، ومعرفته بأدوات العصر الحديث السياسية والعلمية والحضارية.. بينما كان الشعب العربى مختلفاً من الاستعمار الغربى، ومن الأذنان المحليين، .. (ص ٢٥٣).

لقد كان بحق أول من قال فى هذه الفترة أننا لا نحارب إسرائيل التى على الخريطة، وإما نحارب أمريكا وأوروبا والحضارة الغربية التى ليست إسرائيل سوى خنجرها المغموس فى لحم المنطقة العربية، كما أنه سوف يمر وقت طويل يسبقها تقدم حضارى لابد منه فى العالم العربى حتى نكون على مستوى أية مواجهة حضارية

ومن هنا، راح يحال عناصر هذه الفكرة كتابة. ثم يصل إلى النهاية، ليقول:

«إن الثورة الصناعية.. والثورة الثقافية.. وإقامة مجتمع سليم عصرى متحضر، هى المعركة الجديدة التى تحسم معركة هذه الأقدار المتصارعة فى مداها الطويل». (٢٥٧).

وهو ما أثبتتها حروبنا القصيرة أو الطويلة بعد ذلك مع إسرائيل. ولا يخلو من معنى ما نلاحظه أنه بعد هزيمة ٦٧ مباشرة لاحظنا أن أهم

التفسيرات للهزيمة جاءت من التفسير المعرفي الذي أعاد الهزيمة إلى التخلف الحضاري والتكنولوجي بوجه خاص^(*) فقد كان بهاء الدين - فيما يبدو - خلف الاهتمام بهذا الجانب والاهتمام به .

ومراجعة كتابات أحمد بهاء الدين حتى توقف عن الكتابة تماماً في بدايات التسعينات، ترينا أنه لم يتخل عن هذا الرأي قط، وقد رده في أكثر من ندوة (كندوة معرض الكتاب المصري في يناير ١٩٩٠، ومحاضرة بفندق ماريون الأردن، ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩.. إلخ، إذ كان رأيه يرد على شكل كلمات لا تتغير حروفها قط..

كان يقول:

«إن المشكلة بيننا وبين إسرائيل هي فجوة حضارية، ولن يتغير الصراع دون سد هذه الفجوة» .

كان بهاء الدين يرى أن التقدم الحضاري المتوازي مع إسرائيل أو المتقارب معها هو السبيل الوحيد الذي سيضطر إسرائيل إلى العيش معنا،

(*) في دراسة هامة بمجلة المستقبل العربي ١٩٨٦/٦/١ للدكتور نخلة وهبة ص ١٨ بعنوان (نموذج من التفكير السلبي عند العرب أثناء الأزمات: اتجاهات بعض المفكرين العرب في تحليل أسباب هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧) يلاحظ الدارس أن تفسير الهزيمة (المعرفية) تصل إلى ٢٦ بالمائة من المجموع العام، وهي أكثر أنواع التفسيرات تكراراً، خاصة وأنه يدخل فيها كل ما له علاقة بغياب أو حضور المعرفة وبالأنظمة أو الأدوات.. إلخ. وقد كان من بين المثقفين العرب ممن تأثروا بهذا التفسير: قسطنطين زريق، وأنسى الحاج، ومنصور شليطا، وحسن صعب، وهشام شرابي.. وغيرهم.

انفجوة الحضارية

ويدون ذلك، فإنها سوف تردد ألفاظها المتخطرة كسياسة اليد الطويلة أو التفوق العسكرى أو حتى التلويح بالقوة النووية.

وقد يكون من المهم هنا أن نوضح، أكثر، تعبير (النفجوة الحضارية) عنده، إذ أن ذلك لم ينصرف إلى القوى المسلحة النووية التكنولوجية أو المرتبطة «بالإله»، أو حتى الأدوات المعرفية المعاصرة، وإنما كان لا يفوته فى كل مرة التركيز على القيم الفكرية، ففى حين يتحدث عن التخلف الحضارى بمعنى التخلف التكنولوجى، لا يلبث أن يعود لذكر سامعيه أن التخلف الحضارى يعنى، أيضاً، الصفات الخاصة بالحياة العقلية والفنية والأخلاقية.

وكثيراً ما كان يثير فى الوقت نفسه قضية العقل وحرية الرأى والتقاليد والفكر، فبدون هذه الثقافات والإنسانيات العربية لا يمكن إثراء حرية البحث العلمى والتقدم الحضارى.

ثم أمر آخر لم يتردد عن الإشارة إليه بدون حساسية وهو المفكر القومى.

إن مصر، هى أكبر الدول العربية التى يمكن أن تملك إمكانات ووسائل حضارية كثيرة فاعلة، فإذا أمكن لها أن تصل إلى الحد الأقصى من التنظيم والتعليم والخبرات الحضارية، يمكن القول كيف يصبح واقع بقية الأقطار العربية الأخرى، إذا استطاعت مصر أن تمضى فى طريق المعرفة إلى أقصاها، تستطيع أن تجر وراءها العالم العربى كله. (مايو ٢٥/١/١٩٨٢).

وما يجب ملاحظته ويحتاج تفسير، هو أن حملة بهاء الدين على الطريق

الحضارى، وإن بدأت قبل غيرها فى البدايات الأولى من الخمسينات، فإن زخمها الكثيف وصل إلى أقصاه فى الثمانينات.

ولهذه الملاحظة تفسير يرتبط بالفترة نفسها.

فقد لوحظ أن عقد الثمانينات هو العقد الذى شهد تصاعد المد السلفى إلى أقصاه، وهو العقد الذى بدأت تختفى منه، أو كادت، الدعوات إلى حرية الرأى و(الاجتهاد) واستخدام العقل وتلمس العلم.. وما إلى ذلك من سمات العالم المتحضر الذى نعيش فيه والذى تقترب القوى الاستعمارية منا فى محاولة استخدام خبرات العلم والإعلام فى المرحلة الجديدة.

وعلى ذلك، فقد قدر على أحمد بهاء الدين أن يعاود فى ثمانينات القرن العشرين، ما سبق أن دعا إليه الشيخ محمد عبده قبل قرن من الزمان.

كان أحمد بهاء الدين يدرك تماماً أنه يدعو إلى المعرفة فى عالم ذو أيديولوجية سياسية متعارضة، ووسط تيارات أيديولوجية أخرى - تسعى - مع مرارة الهزيمة التى لحقتنا لأكثر من مرة من إسرائيل - إلى التخندق فى الماضى دون أى إطلالة على الحاضر، وقد انتشرت هذه الجماعات فى الأنظار العربية، وليس مصر فقط، وقد كان أكثر إدراكاً لطبيعة هذه الجماعات، إذ أن الصراع الفكرى الدائر فى الثمانينات لم يجاوز التعصب، ومن ثم رأوا أن الجهاد هو التصدى لفضيلة التنوير العربى، إذ اعتقدوا خطأ أن التنويريين العرب هؤلاء (وقد أسموهم علمانيين أو دنيويين) هم

الفجوة الحضارية

متحالفون مع الغرب، مما كان يلقي على عاتقه مسؤولية أكبر (UNESCO).

ومن هنا، زاد تصدى بهاء الدين لمفهوم خاطئ من القيم تحمله هذه الجماعات السياسية السلفية، فضلاً عن التنبية، في الوقت نفسه، إلى ضرورة التصدى لنوع آخر من القيم الغربية التي جاءت - خلال العدو الإسرائيلي - لتبقى..

وبذلك فإن الحديث عن الفجوة الحضارية لم يرتبط بالتحدي الغربي اليهودي فقط، وإنما من التحدي الداخلي، من ذواتنا نحن..

لم يعد الجهاد ضد الخارج فقط.. وإنما - أصبح - ضد الداخل، حيث الجهاد الأكبر..

ثانياً

الأيدولوجيا والتكنولوجيا

إن (دمقرطة) المجتمع الدولي
بالكيفية التي تريد بها
هذه الأيديولوجية أو تلك
تحكمه القدرات التكنولوجية العسكرية
التي تستخدم لصالح المنتصر دائماً.

كان أول من تنبّه أيضاً إلى طبيعة الصراع بين الأيديولوجيا، فقد أشار منذ فترة مبكرة - منتصف الستينات - إلى أن الأيديولوجيات - رأسمالية أو اشتراكية - ستنزل عن عرشها، فسوف يستمر الصراع بينهما إلى أن ينتهي لصالح التكنولوجيا في صورتها المعرفية.

وقد كان متأثراً في ذلك بأفكار يوجين بلاك EUGENE, R. BLACK في كتابه الذي عرف منذ بداية الستينات (ثورة التطلعات الكبرى): THE REVOLUTION OF GREAT EXPECTATIONS.

وقد راح بهاء الدين منذ عام ١٩٦٤، ييشّر بذلك، مردداً ما ذهب إليه بلاك من أن الصراع النظري بين العسكريين قد استهلك أغراضه، وأن المواطن الجديد بحكم التطور الرهيب في وسائل المعرفة والاتصال، تجاوز طموح المطالب المتواضعة إلى طموح أكبر في أن يتناله شيء، من هذا التقدم التي يحتاجه. فالثورة الحقيقية هي (ثورة التطلعات الكبرى) - وهو تعبير بلاك - منتهياً من ذلك إلى أنه لن يكون للمعنى النظري لهذه

الأيدولوجيات أية قيمة، اللهم إلا فى حدود ما تحققه بشكل عملى وبشكل ملموس للإنسان.

وقد أكد مراراً على أن النظام الذى لن يراعى حاجة الإنسان للرءاء والاستمتاع بتكنولوجيا العصر سوف يطويه التاريخ ويتعده.

وظاهر هنا أن الهدف الرئيسى لأحمد بهاء الدين هو تغليب القيمة المحورية لديه - التعليم - على أية فكرة أخرى مهما كان بريقها، أو وعودها التى تمنأها - فيما بعد - الناس.

ولأن طبيعة الدعوة كان يغلب عليها التجريد، فقد ثار عليه البعض، فوجد هجوماً عنيفاً لديه من بعض رموز اليسار، من أن التقدم التكنولوجى الخالص لا يجب أن يكون هدفنا الأخير، إذ يجب ضرورة الربط بين العلم، وما يجب أن يلعبه العلم فى قضية تحرير الشعوب العربية، فعاد بهاء الدين بمقالته (مطلوب دولة عصرية) يشير إلى أن العصرية هنا ليس العلم المجرد والفكرة النظرية، وإنما الإنسان وعاداته وتقاليده.. وما إلى ذلك بالهبوط إلى أرض المواطن العربى.

بيد أن مهاجميه لم يكتفوا بذلك، بل راح بعضهم - سعد كامل، (أخبار ١١ أغسطس ١٩٦٧) يشير إلى أن سباق التقدم فى العصر هو سباق تكنولوجى معاصر، ينطوى على عنصرين متلازمين، عنصر (فنى) و(تكنولوجى محض)، قابل للتصدير إلى كافة أنحاء العالم، بما فى ذلك المجتمعات المتخلفة.. وعنصر بشرى واجتماعى لا يتم بمجرد النقل من الخارج، بل هو فى المقام الأول نتاج التطور الاجتماعى الداخلى، لكل بلد

على حده، وهو أمر يحتاج إلى وقت طويل.

وقد تحددت القضية أكثر في المقارنة بين مواجهة التحدى الاستعماري المتمثل في تفوقه التكنولوجى، والقوة العربية القائمة على أيدولوجية خاصة.

وهنا، تم الخلط بين المفهوم التكنولوجى الخالص الذى دعا إليه والأيدولوجية التى ظن خصومه أنها مستوردة من الخارج.

إذ أن بهاء الدين لم يقصد أن الأيدولوجية الغربية - يمكن - فى صراعنا معه - أن تعيننا عليه، حتى ولو ارتدت ثياباً وطنية، وقد كان فى ذلك يطرح قضية التقنية بشكل مغاير، فالقضية عنده ليست تكنولوجية محضة فى حين أن الأيدولوجية الخالصة بنا تكون غائبة، ولم يكن تعبير (الوعى السياسى) الذى تكرر لديه كثيراً إلا تعبيراً عن الوعى الذاتى بعيداً عن أى أيدولوجية لا تنبع من متطلباتنا أو تكويننا الفكرى.

ورغم أن بهاء الدين شغل بذلك فترة، بيد أنه عاد ليوضح الأمر بوضوح أكثر حين قال:

«لم أقصد أن تكون التكنولوجيا هنا تغنى عن الأيدولوجيا، فى حين أن المقصود هو قول العكس تماماً: إن الأيدولوجيا أو المبدأ السياسى مهماً كان المبدأ الذى يحررنا، لا يغنى مطلقاً عن العلم والتكنولوجيا، بوصفها أدوات لا غنى عنها للتقدم الحضارى». (المصور ١٩٧٠/١٠/٣٠).

وعلى ذلك فقد برهن على احتفائه بالعلم وإن لم يغادر هذه الأيديولوجية التي تتمشى في تحقيق أهدافنا، فجاء تشديده على التقدم الحضارى أو (الدولة العصرية) بالمعنى الشامل لها مما فهم منه تجريد يخرج عن قصده .

ومهما يكن، فقد كان بهاء الدين وإعياً دائماً إلى ثورات المعسكر الشرقى وتفكك الاتحاد السوفيتى، ودخول الحرب باردة إلى مناطق أخرى، فضلاً عن انتشار الثورات الوطنية فى العالم كله، والتي أخذت تطورها ودرجة اكتمالها بعد مرضه بعدة أشهر، فما كان يتوقف عن الكتابة فى فبراير ٩٠، وبعد عدة أشهر، حتى بدأ الغزو العراقى للكويت، ودخل العالم مرحلة جديدة، برزت فيها أمريكا وحلفاؤها لتسيطر على مقدرات العالم .

فقد بدأ أن العالم يدخل مرحلة ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتى، واتحاد الألمانيتين، وتحالف الدول الغربية واليابان مع الولايات المتحدة، لتأكيد قوتها المعرفية المسلحة خاصة فى الشرق الأوسط .

وقد كان ذلك من أثره أن ينعكس على المثقفين المصريين ممن اقترنت رؤيتهم من طبيعة هذا الصراع الفكرى القديم بين المعسكرين، وإن اتخذت ساحة الخلاف بينهم مفردات التكنولوجيا أمام الديمقراطية^(*) .

(*) أثارت قضية التكنولوجيا والأيديولوجيا عدد من الصحف والمجلات العربية، لأهميتها، وشارك فيها عدد كبير من المثقفين من أهمهم د. سعد الدين إبراهيم، والمفكر محمد سيد أحمد، واستمرت بين شهرى مارس وأبريل ١٩٩٢، وإن خلفت أصداء لها بعد ذلك. وقد راح سعى الدين إبراهيم فيها يركز على أقر القيمة الفكرية- كالديمقراطية -

الأيديولوجيا والتكنولوجيا

غير أنه من المحقق أن الأيديولوجيات كانت قط سقطت منذ وقت طويل، في حين لم يسقط الصراع بين الإنسان والإنسان، وهو يأخذ شكلاً مغايراً للشكل المعروف في الاشتراكية أو الرأسمالية.

وقد تأثر أحمد بهاء الدين تأثراً كبيراً - فيما يبدو - بالتقدم المعرفي والتكنولوجي المتقدم في الستينات دون أن يتابع أثر ذلك - فيما بعد - في حين كان قد أشار إلى سقوط الأيديولوجيا في كتاباته في منتصف الستينات أو قبل ذلك بقليل.

إن كتاباته جاءت كرد فعل لكتابات بلاك - الأمريكي - في وقتها، ولم يتابعها لا في الشكل العام أو التطور الموضوعي.

إن العودة إلى ترديد هذه الأفكار لديه في أكثر من قطر عربي (على

- في التطور الحضاري، فمن المؤكد أن الرأسمالية عنده ليست ضرورية، ولا هي حافزاً أو ضماناً كشرط للتقدم، فقد كانت ألمانيا النازية واليابان قبل الحرب العالمية الثانية هما دولتين رأسماليتين متقدمتين اقتصادياً. ولكن في غياب الديمقراطية انتكسا، وانهدم هذا التقدم الاقتصادي في الحرب الثانية (أهرام ١٩٦٢/٤/٢)، فكان على محمد سيد أحمد أن يضيف إلى ذلك قضية مثل العدل، مبيهاً أن الصراع بين الأيديولوجيا انتهى، غير أن القضية هي استخدام الدول الكبرى - المتقدمة - أدواتها في القضاء على العدل والحرية للشعوب الفقيرة التي لا تملك شيئاً من نتاج الثورة الصناعية الثالثة، مما ينتهي معه البترول عندنا، فضلاً عن سيطرة الدول الكبرى على المناطق الاستراتيجية في بلادنا.

لم يكن موقف بهاء المؤيد لمعبد الناصر في الفترة الأولى - حتى هزيمة ٦٧ - غير تعبير عن قناعته وتكليه الذاتي، HusAzar, P.32.

سبيل المثال انظر: الدستور، الأردن في ٢١/١٢/٨٩) تريناً أن التكرار اقتصر على الفكرة الأولى دون أن يفصل استخدام التكنولوجيا ضد الدول الأقل قدرة في امتلاكها، أو يتنبه إلى ذلك، ودلالة ذلك بالنسبة إلى الوطن العربي والإسلامي، فإن ثمة فارقاً كبيراً بين التكنولوجيا بمعناها المطلق وبين «التوظيف الرأسمالي للتكنولوجيا» كما عرفها الغرب ووظفها لصالحه ضدنا في الصراع بين الغرب والشرق من أجل الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية.

وكان خير دليل على ذلك الطريقة التي انتصر بها الجانب الأمريكي - وحلفاؤه الغربيون - ضد الأقطار العربية، فمع الخلاف حول طبيعة الصراع العربي بمنطق لا يسلم به أحد، فإن الحرب التي دبرت لها أمريكا واستخدمت فيها كل الأسلحة الذكية، وكل انجازات التقدم التكنولوجي بما فيه الإنجاز العلمي المحرم كان أبلغ دليل على استخدام الإمكانيات التكنولوجية العصرية ضد إرادة الدول النامية، أو الأقل مقدرة وعلماً من سواها.

وحرب الخليج ٩٠/٩١ ليست غير مثالاً بعيداً عن التعرض لطبيعة الصراع العربي فيها.

لقد كان المجلد الرئيسي لخطورة امتلاك أية أيديولوجية لأدوات تكنولوجية متطورة في غيبة القيم الإنسانية هو خطورة الأيديولوجية التي تستخدم هذه الإمكانيات،

ويوضح محمد سيد أحمد ذلك حين يقول - بعد حرب الخليج ٩٠/٩١ -

الأيدولوجيا والتكنولوجيا

إن ما يصلنا من معلومات تحمل فى طياتها رؤية الدول المتقدمة التى تعكس مصالحها السياسية والاقتصادية.

فالمعلومات المنقولة عبر وسائل الإعلام المعاصرة التى تحتكرها الدول المتقدمة لا تنقسم بالموضوعية، وإنما بالذاتية والمصلحية. (نشرة: المجتمع المدنى .. ابن خلدون، القاهرة، يونيو ١٩٩٢).

وعلى ذلك، فإن (دمقرطة) المجتمع الدولى بالكيفية التى تريد بها هذه الأيدولوجية أو تلك تحكمه القدرات التكنولوجية العسكرية التى تستخدم لصالح المنتصر دائماً.

ثانياً

الدولة العصرية

إن الدولة العصرية،
 هي البديل للعيش فى سلام
 فى عالم اليوم..
 وإن العمل لتكريس هذه الدولة
 قمين بتهديد الواقع
 الذى سيفرز الوحدة العربية

لم يظهر اتجاه أحمد بهاء الدين إلى (الدولة العصرية) والدعوة لها
 عقب هزيمة ١٩٦٧ فقط، وإنما امتد إلى الوراء ربما إلى نكبة ١٩٤٨، ووراء
 كتابه (النقطة الرابعة) الذى صدر بعد ذلك بسنوات.

فالمجتمع المصرى المتخلف الذى كان يواجه الاستعمار الأمريكى
 الجديد كان يحتاج إلى إنتاجية عالية تزيد من التنمية التى تقوم على
 المجتمع المعرفى، وطيلة الخمسينات وسنوات كثيرة من الستينات كان يدعو
 إلى المنهج العلمى والأخذ بالمعرفة.

بيد أن هزيمة ٦٧ - بوجه خاص - زادت من ترسيخ قناعاته الأولى،
 مضيقاً إليها تعميق الحس القومى، بأن حلم الوحدة العربية لن يتحقق إلا
 بالبناء العلمى و(الدولة العصرية) ..

وقد تعددت ركائز هذه الدولة عبر سنوات، وعبر عدة عناصر يمكن

رصدها قبل هزيمة ٦٧ وبعدها.

ويمكن ترتيب هذه العناصر على النحو التالي:

- العلم

كان يدرك جيداً أن تحقيق دولة الوحدة العربية لن يتم بالتمنى أو العواطف، وإنما باستخدام أدوات العلم وتطبيقاته.

وقد أسهمت تجربة الوحدة مع سوريا ٥٨ - ١٩٦١، وفشلها، وأيضاً محادثات الوحدة الثلاثية بعد ذلك بين مصر وسوريا وتعثرها، والعراق في تطوير فكره وإنضاجه، ففي حين كان يجتمع جمال عبدالناصر وقادة كل من سوريا والعراق لتحقيق الوحدة راح بهاء الدين يكتب المطلوب منا، ونحن مزودون بكل حرارة الجماهير، أن نفكر بكل هدوء المعمل. (أزمة اتفاقية الوحدة الثلاثية، ص ٣٦).

وفي موضع آخر يعمق هذا المفهوم فيقول: «إن الحل السياسي وحده لا يكفي، إذا لم يكن مقرونًا بالتأمل الكافي والإعداد العلمي المستفيض للحل الاقتصادي والاجتماعي والنفس». (السابق ص ٢٦).

فالعلم عند بهاء الدين هو شرط واجب للتنمية التي ستؤدي - فيما بعد - إلى تهئية الظروف لإقامة وحدة سياسية أو اقتصادية، والتصدى لأعدائها.

راح يفصل ذلك أكثر حين قال إننا بالعلم نستطيع تهئية كل الظروف للوحدة، فنسعى لبناء الدولة الاشتراكية والديموقراطية والعصرية، وأن

نضع سياسة تعليمية وتربوية، (المصور ٤/٤/٦٩)

الأكثر من ذلك أنه رأى أن العلم وتلمس المنهج التجريبي في فهم الأمور يكون أكثر من غيره تفسيراً للخلافات بين الأقطار العربية، كما أنه يسهم في ملاحظة الواقع، ودراسة الاحتمالات، ثم البحث عن طريقة مدروسة للسيطرة عليها وتوجيهها، ثم (التصرف) بناء على ذلك للخروج من أية أزمة بين الأشقاء.

وقد تصدى على هذا النحو للزعم بأن ما يحدث لنا من فرقة وتشرذم إنما يعود إلى نظرية «المؤامرة»

لقد رسخ في إفهام الكثيرين أن المخابرات الأمريكية تدير المؤامرات، والسياسة الرجعية تسعى إلى عزل لبنان أو ضرب العناصر العربية المخلصة في اليمن الشمالي، كما ضرب مثلاً محدداً لهذا الأسلوب الخاطي الذي نفهم به الأمور، حين لاحظ أنه لا يعقد مؤتمر عربي ويكون قد سبقه الفهم العلمي لرسالته، أو يوفر له أسباب النجاح قبل إقامته، وإنما يمضي كل شيء في السرعة التي يعد بها المؤتمر، وتستمر السرعة وعدم التريث ليصدر عن المؤتمر أموراً غير مدروسة بالقدر الكافي.

كذلك كان بهاء الدين واعياً لأثر الإعلام والتحديث.

فبالنسبة للإعلام أشاد أكثر من مرة إلى أن الصحافة والإعلام يمكن أن يلعباً دوراً كبيراً في تأكيد تحقيق الهدف القومي، وقد ردد ذلك لأكثر من مرة في مؤتمر الصحفيين العرب الثاني الذي عقد في ١٠ فبراير ١٩٦٨ على اعتبار أن الإعلام يلعب دوراً إيجابياً في السعي لدخولنا كأمة واحدة

فى عالم اليوم .

وأما التحديث فإنه لم يتردد فى ذكر تطبيقات العلم وتكنولوجياته، على أنها أهم الوسائل الناجحة فى تقدمنا، وقد خصص مقالات و(يوميات) كثيرة تحت هذا العنوان (الثورة الالكترونية) (ى ٨٢/٨/١٠) .

راح يدعوا إلى مشروع حضارى جديد لا يجب أن تغيب عنه هذه الثورة، فأى مشروع حضارى فاعل لا بد له من سيقان تحمله وتجرى به إلى الأمام، وهذا المشروع يحتاج إلى التكنولوجيا فقط بمعناها المعروف، «التطبيق العلمى للمعرفة».. وإنما الأخطر من ذلك: ثورة العقل الالىكترونى التى صارت محور الصراع الدولى، فأوروبا الغربية تصارع الآن لكى تلحق باليابان وأمريكا، وإذا لم تفعل فهى ترى بحق أنها ستصبح عالماً ثالثاً متخلفاً بالنسبة لها .

كان وقت طويل قد مضى على قناعته أن الأيديولوجيا انتهت عصرها، وأصبحنا الآن فى عصر مجتمع معرفى يعيش مجتمع يعرف بمجتمع ما بعد الصناعة، لأنه مبنى على أحداث ألوان المعرفة التى برعت فيها اليابان بدون قوة عسكرية، وتسعى للسيطرة به على العالم كله بما فيه الدول الكبرى التى تحمل فى مخازنها أحدث الأسلحة .

ويلاحظ هنا أنه لم يتوقف طيلة الثمانينات عن رفع شعار مثل (كمبيوتر لكل مدرسة ثانوية) مؤكداً على أن الكمبيوتر وأجهزة المعلومات والعلوم الأخرى كالهندسة الوراثية، كمفاتيح، تختصر الوقت، وأن المجتمع المبنى على الإنتاجية من مواد خام، وأس مال.. وما إلى ذلك يوشك أن يمضى

الآن ليحل محله مجتمع آخر أكثر تقدماً، يقوم على المعرفة والإعلام.. وبذلك، فإذا أضفنا إلى العناصر التقليدية رأس المال الطاقة والمعرفة نكون قد دخلنا إلى العصر الحديث.

ومن المؤكد أنه كان واعياً إلى أن العلاقة بيننا وبين الغرب وإن اتخذت من الجانب الآخر، البحث عن البترول والمناطق الاستراتيجية، فإن وسيلته إلى ذلك تظل القوى المعلوماتية والإعلامية المتقدمة، فاستطاع بذلك أن يصل إلى أهم مفاتيح الصراع كما حدثت - فيما بعد - إبان أزمة الخليج حيث استخدمت أمريكا وحلفائها أحدث ما في الترسانة العسكرية بهدف واحد، هو ضرورة تدمير كل الإمكانات للقدرات العسكرية العراقية، وهو ما تلبّثت إليه أغلب الصحف الغربية نفسها (على سبيل المثال جريدة هيرالد تريبيون في ١٤ ديسمبر ١٩٩٠، مقالة وليم سافاري).

وهو ما يصل بنا إلى عنصر آخر يتمثل في أنظمة التسليح.

- أنظمة التسليح

من غير الممكن أن تتأهب أية دولة للدفاع عن نفسها في حين تكون تابعة للغرب في التقنية العسكرية، إذ أن هذه التبعية مما يسلب الدولة استقلالها وأمنها القومي، ومن أهم كتاباته بعد هزيمة ٦٧ ما كتبه تحت عنوان (تقرير من جبل الحديد) .. وجاء فيه:

«إن المفكرين والعلماء الأمريكيين الذين اجتمعوا سرا في قرية «جبل الحديد»، اتفقوا على تعريف المجتمع العصري

بأنه المجتمع المستعد للحرب: إشارة إلى أن نوع الكفاءات،
ونوع الصناعات، ونوع التنظيم، ونوع العلاقات التي تبني
المجتمع العصري، هي نفسها التي تحدد كفاءة المجتمع
للحرب. (المصور ٦٨/٦/٨).

لقد انطلق من حقيقة ردها هؤلاء المجتمعون وآمنوا عليها، هي أن
(القدرة التنظيمية) والقيادات الكفاء لها، أم لا يمكن أن يتوفر في الجيش
منفصلاً عن الحياة المدنية، وكفاءة إدارة القتال وقياداته، جزء من الكفاءة
العامّة في إدارة المصانع - مثلاً - وقيادته.

كما راح يعترض على رأى من يرى أن المجتمع يكون عصرياً أو
متحضراً، إذا استطاع أن يحصل على منتجات العالم الحديث من منتجات
وطائرات وما إليها.. وهذا وهم كبير.. وإن الحصول على منتجات العصر
الحديث حتى الجوهرى منها شيء.. والقدرة على إنتاجه، واستخدامه أو
السيطرة عليه والتلاؤم معه شيء آخر. ((المصور ٣٠/١٠/١٩٧٠)) وهو
يقطع بأهمية القوى التنظيمية المحلية.

غير أنه اقترب أكثر من (الدولة العصرية) حين راح يحدد لها عناصر
إضافية ثابتة، أولها التنظيم، وثانيها: القيم، وثالثها: التصحية..
وهو ما نتمهل عنده أكثر

- التنظيم

أما وقد بدأ أهمية العلم واستخدام التنظيم المسلح، والسيطرة عليه، فإن اكتمال دائرة العيش العصري لا يتم إلا بوجود التنظيم لكل ما لدى الدولة، بشكل علمي، إذ أن التنظيم يحدد كذلك - وقد كنا عقب هزيمة ٦٧ - عصرية الدولة المحاربة، كيف؟ يجيب:

«إن الدولة المحاربة في حد ذاتها هي الدولة التي تستطيع أن تصل في ساعة الصدام إلى أقصى درجات التنظيم، بحيث تستطيع أن تضع أكبر قدر من طاقتها بأقل درجة من الارتباك في كفة التال.. والطاقة على القتال هي امتداد طبيعي للطاقة الطبيعية لكل شعب، خصوصاً في الحرب الحديثة، (أبعاد المواجهة العربية الإسرائيلية، بيروت ٧٢، ص ٢٦٣).

هذا يعني تماماً أن الأمم التي توجد بها نسبة عالية من الأمية وزيادة النسل وتضخم البيروقراطية، وما إلى ذلك لا تستطيع أن تقوم بتنظيم حياتها بشكل يمكنها من التصدي لأي قوة خارجية، فالكفاح الداخلي... جزء مكمل - ومساعد - لكفاحها من أجل النصر، (المصور ٧٠/١٠/٣٠).

ومن هنا، فالخروج من هذه الهوة يستلزم أن يكون لدينا عدد كبير من العلماء والعقول الإلكترونية والكمبيوتر.. وما إلى ذلك، حينئذ نستطيع أن نستفيد بذلك كله بشرط عامل التنظيم أو بخطئة، تصويب، إذ تصبح هذه العملية من أهم عناصر الدولة العصرية، وهو ما يصل لتعريف سياقي

الدولة العصرية فيرى أنها «التي تأخذ بالعلم في تنظيم علاقاتها، وفي تنظيم إنتاجها، بحيث ينعكس ذلك كله في علاقاتها مع الآخرين».

وعلى ذلك فهو يعيد جزءاً كبيراً من تخلف الدول العربية بافتقار التنظيم، وهو ما يفسر تكرار مرادفات العصرية والتقدم في عنواناته، وعلى سبيل المثال (مطلوب دولة عصرية)، و(الدولة العصرية) .. والتقدم الحضارى). و(إعادة النظر في التكوين الحكومى) .. وما إلى ذلك.

- القيم

وكما نرى فإن بهاء الدين يشير إلى تكوين الدول العصرية بما لا يخرج عن التكنولوجيا الخالصة، مضيفاً إلى ذلك العامل الأخلاقى، فهو يحذرننا أننا لا نستطيع شراء المعدات الحديثة من آلات ومصانع .. وما إلى ذلك دون أن تتحول هذه الأدوات إلى قيم وعادات ترتبط بالتراث ولا تنفصل عنه.

وهنا يصل إلى مفهوم أو عنصر آخر للدولة العصرية، فإذا كان قد أشار - قبلاً - إلى العلم وأدواته وتنظيمه .. وما إلى ذلك، فإنه يضيف هنا شيئاً آخر:

«العصرية هي الإنسان .. فى العادات والتقاليد والأخلاقيات فى العلاقات الاجتماعية وفى تنظيم العمل وفى دفع ضريبة التنظيم العصرية». (أبعاد ص ٢٦٣).

وهو يسهب طويلاً حول هذا العنصر بالذات حيث يدور العمل المشترك

فى شئ أقرب إلى الديمقراطية بين الجميع، وأصلاً بين القيم الاجتماعية المعروفة والقيم السياسية من أجل بناء هذه الدولة.

بيد أن ذلك كله ليس سهلاً، وإنما يحتاج جهداً كبيراً.

- التضحية

وهذا الجهد لا بد أن يكون مشتركاً ويأخذ شكلاً واعياً مما ينفض عن أصحابه القيم السلبية، وهى مهمة قد تبدو صعبة لأنها تحتاج فيها إلى قدر كبير من التضحية يفصلها على النحو التالى:

«التضحية بقبول منطق المجتمع العصري، والدولة العصرية، قد يكون أصعب من التضحية بالنفس.. لأنها تضحية مستمرة بطيئة، يومية، يدفعها المرء من تغير أفكاره وعاداته، ومن وضعه الشخصى، ومن امتيازاته.. إلى آخره...» (أبعاد ٢٦٤).

ومن البدهى هنا أن هذا التنظيم وتلك التضحية لا يطلبان بشكل مجرد، وإنما يطلبان من أجل بناء الوطن القومى العربى، فهو لا ينسى أن يشير إلى التشرذم وخطورته، والترهل وأضراره، والجهل وما يؤدى إليه من البعد عن هذه الدولة لعصرية، وفى هذا الصدد لا نستطيع مقاومة إغراء فقرة طويلة يشدد عليها، وتجئ على هذا النحو:

«إن بقاء أوضاع تقوم على الطائفية أو خلافات مع أقليات قومية كما في بعض البلاد العربية - مثلاً - ليس مما يناسب الدولة العصرية والمفاهيم العصرية. أن ما نراه من تبعثر وتشرذم جماعات سياسية إذا قرأت برامجها وأفكارها لم تجد بينها خلافاً، إنما الخلاف الشخصي يركبه الطموح الشخصي أو عدم الرغبة في التفاهم والتنازل، ليس وضعاً عصرياً يناسب حياة سياسية عصرية: عليها أن تتخطى العقد والرواسب القبلية لتتفرغ لما هو أهم.

إن ما يسود في الحياة العربية من تقديم الشخصية على الموضوعية، ومن الدور الكبير الذي تلعبه المعرفة والعلاقة الشخصية والألفة الفردية في وضع الناس في هذا المكان أو ذاك، قبل الصفات الاجتماعية والموضوعية ومدى الالتزام بالقضية، ليس جواً يناسب دولة عصرية. (أبعاد، ص ٢٦٤).

وإذن، فإن التصحية تعنى السعى إلى التغيير بدأب للقيام بدور إيجابي في بناء (دولة عصرية) عربية، وهي دولة لا تستمد أهميتها من شكلها العام، وإنما من الدور الذي يجب أن تقوم به. وهو ما يصل بنا إلى استنتاجات أخيرة:

١ - التنوير العربي يتأثر - دون شك - بحركة التنوير الغربي في القرن ١٨، غير أنه من المؤكد أن حركة التنوير العربية تخضع لقوانين المجتمع التي تستبنت فيها وتتبع لها.

٢ - ثمة علاقة أكيدة بين تحدى الصهيونية - الغربية واستجابة الوعي العربى .

وهو تحد يبدأ من قيم العقل ويصل إلى قيم العلم والدولة العصرية، ماراً بقضايا عديدة كالاتجاه، والحرية، والشورى، وحرية المرأة، وتحرير الإنسان العربى من وهم القطرية والمحاور العربيه فى الثمانينات .

٣ - الوعي العربى اتخذ عند بهاء الدين شكلاً جديداً من أشكال تفهم طبيعة المرحلة، فراح يفرق بين فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن الدنيا ليستطيع بناء (صيغة) عربية وعلمية تنبع من التنوير وتصب فيه . وبهذا يفك الاشتباك مع القوى السلفية الظلامية .

٤ - كان بهاء الدين أول من تنبه إلى أن الصراع بين الوطن العربى وإسرائيل ليس عسكرياً، كما يبدو، وإنما هو صراع حضارى يستوجب سد (الفجوة) الحضارية، ليمكن حل هذا الصراع بين الأنداد .. وهو ما تجسد أكثر بعد ٦٧ .

٥ - كان بهاء أول من تنبه إلى أن الصراع بين الأيديولوجيات سوف ينتهى لصالح التكنولوجيا، فالعلم - وليس الفكرة المجردة - هو الذى سيمكن الإنسان من الحياة كما يريد،

إن هبوط الأيديولوجية من عرشها رهين بصعود العلم والإيمان به .

٦ - كان من بين القلائل، وربما أولهم، من أدرك أن (الدولة العصرية) هى البديل للعيش فى سلام فى عالم اليوم، سواء إذا انطلق الأمر من الحرب أو السلام، إن العمل لتكريس عناصر هذه الدولة قمين بتمهيد الواقع الذى سيفرز الوحدة العربيه التى ننتظرها .

الفصل الرابع

المثقف العربى والسياسة

أولاً

المثقف وعبد الناصر

«و غضب عبد الناصر
من بهاء الدين،
لكنه ردد أكثر من مرة:
لا تقبضوا عليه!

- لا تقبضوا عليه (*)..

قال عبد الناصر لمن جاء يطلب القبض على أحمد بهاء الدين..
وكان بهاء الدين نقيباً للصحفيين في هذا الوقت بعد هزيمة ١٩٦٧ بعدة

(*) لم يكن موقف أحمد بهاء المؤيد لعبد الناصر في الفترة الأولى -قبل هزيمة ٦٧- غير تعبير عن قناعاته وتكوينه الذاتي، وهي سمات لم يكن لينتمى صاحبها -كما يزعم البعض- إلى مدرسة «العصاة من الوسط» -ناصر النشاشيبي، حضرات السادة... القدس ١٩٩٥ ص ٧٢- وإنما هي مدرسة ترى في تأييد الثورة واجبا، انطلاقا من الاقتناع بالواقع. ومن هنا، فإن بهاء الدين حرص على أن يكون هادئا بتكوينه مؤيدا، في فترة عبد الناصر، دونما جلبية، فقد كانت قرارات الثورة طيلة الخمسينات والستينات هوما يسعى إليه المثقف القومي، في رأيه.

وهذا الموقف يفسر كيف دافع المثقف عن قرارات عبد الناصر وخطواته دونما اختلاف كبير، إذ تحدد موقفه من منطلق أنه لم تكن له بواعث شخصية بقدر ما كان يرى فيه دفاعا عن إيجابيات الثورة ورموزها، وهو يرى في الإساءة إليه إساءة للعرب وتاريخهم، وهي ملاحظة أشار إليها أكثر من باحث، فبهاء الدين دافع عن عبد الناصر حيا وميتا، -

أشهر، وكان قد أقدم على الاجتماع بمجلس نقابة الصحفيين على إثر مظاهرات فئات عديدة في مصر عام ١٩٦٨، ثم أصدر بياناً أثار فيه مراكز السلطة ..

وقد وصل تأثير البيان إلى درجة أغضبت عبد الناصر كثيراً، ومع ذلك، فإنه رفض أن يستجيب لسامي شرف ليقبض على أحمد بهاء الدين ..
لكن، قبل أن نتوقف عند هذا البيان لابد أن نشير إلى هذا الواقع الحزين في تاريخنا العربي عقب هزيمة ٦٧ مباشرة ..

(٢)

كانت هزيمة ٦٧ قد صكت أسماع الجميع .. فلم يمض وقت كبير حتى بدأت الجماهير تعبر عن غضبها على رموز هذا العهد التي كانت وراء الهزيمة ..

وراح الأدباء في «مؤتمراتهم» - عام ١٩٧٨ - يعبرون عن غضبهم الشديد ..

= ودافع عنه إبان حكم السادات خلال (١) مواجهة الحملة الشخصية ضد عبد الناصر (٢) الدفاع عن سياسة الثورة المستقلة و(٣) في عصر الانفتاح .. إلخ. وهودفاع يختلف عنه حين بدأ هجومه - كم سئى - على النظام عقب هزيمة ١٩٦٧، وليس على عبد الناصر تحديداً، وهو ما دفعنا للتوقف أكثر عند الفترة التي أعقبت رحيل عبد الناصر انطلاقاً من أن تحديد الموقف لموقفه بدأ قبل ذلك .

وراح العمال يخرجون في مظاهرات عنيفة غضباً على التسبب والفساد.

وتوالى سيل من الغضب والمظاهرات والبيانات في هذا الفترة من أواخر فبراير ٢١ - ٢٨ عام ١٩٦٨ دون أن تنجح الدولة في استيعاب أية فئة أو السيطرة على الفوران الذى بدأ ينتقل إلى كل شوارع القاهرة وميادينها..

ورغم اجتماع مجلس الشعب (وكان يرأسه حينئذ أنور السادات..) ولقاء العديد من المسؤولين بالمتظاهرين، فإن الدولة لم تستطع السيطرة على هذه الأمواج، وهو ما كان يشكل خطورة على النظام، خاصة، وأن بعض رموز هذا النظام، حاولت التآمر على النظام نفسه، فوجد عبد الناصر نفسه أمام مشكلات كثيرة تهدد بإحداث فوضى كاملة.

فى هذا المناخ، فوجئ عبدالناصر ببيان نقابة الصحفيين، بما فيه من لهجة غاضبة، وإلقاء بالمسئولية على عديد من رموز هذا العهد..

ورغم أن كل الاجتماعات - بما فيها اجتماع مجلس نقابة الصحفيين - كانت تحتج على النظام وهى تعلن - فى الوقت نفسه - السير قدماً فى طريق تحقيق المطالب التى رفع رأيتها جمال عبد الناصر، فإن النظام كله كان يهتز أمام زلزال الغضب الجماهيرى فى ذلك الوقت. وهو أكثر ما أقلق جمال عبدالناصر.

(٣)

ومراجعة فقرات هذا البيان / المذكرة يمكن أن نحس بهذا القلق الذي
اعتري جمال عبدالناصر.

لقد احتوى البيان على ثمانى فقرات تتحدث بشجاعة فائقة عن ضرورة
الإسراع فى حساب المسؤولين فى كافة القطاعات (الفقرة الأولى)، فى
حين يدعو إلى ضرورة إعادة التنظيم السياسى (فالإرادة الشعبية تريد
التغيير (الفقرة الثانية)، كما أن البيان لا يتردد فى هذا الوقت العصيب عن
إدانة الانحراف غير المسئول مع الوضع فى الاعتبار أن هذه المظاهرات لا
تخرج عن الصفة الأساسية للثورة أو عن شعارات جمال عبد الناصر، وهو
يحرص فى بقية الفقرات على التأكيد على وحدة الدولة الداخلية..

غير أن أهم مطالب البيان تتحدد وتتركز فى عدة نقاط يتطلب الأمر
الإسراع فى تنفيذها.

وهذه المبادرات - كما هو فى البيان المرفق - تتحدد فى مرة حول
الإسراع فى محاسبة المسؤولين عن النكسة (أولاً)، كما تركز فى ثلاث
مرات منها على إعادة النظر فى قضية الديمقراطية والحث عليها صراحة
(ثانياً وثالثاً ورابعاً)، كما تشدد على إصدار قوانين للحريات ورفع الرقابة
على الصحف فى الوقت نفسه (خامساً)..

وتأتى كل هذه المطالب، فى هذا الاضطراب، لتؤكد، بما لا يدع مجالاً
للشك، على هذا الوعي النقابى والصحفى الذى يمثل قمته الآن أحمد بها
الدين..

ويأتى هذا كله بشكل حاد وصريح وبدون إنكار للبديهيات..

كانت الفترة لا تحتل غير التوجيه والكشف..

غير أن ذلك كله كان قد آلم عبدالناصر، فقد كانت مراكز القوى - التي يمثل قمتها حينئذ عبدالحكيم عامر وشلقه - توشك أن تتخذ إجراءات ضد عبدالناصر نفسه، وفي الوقت نفسه، فإن هذا البيان كان يحول دون حرية حركة عبدالناصر فى الاتجاه المضاد لهذه القوى..

أوعلى الأقل، هو ما أحس به عبدالناصر وعبر عنه فيما بعد..

(٤)

فى هذا الوقت تبارت أكثر من جبهة للوشاية بأحمد بهاء الدين، خاصة وقد أحس الجميع مدى حرج عبدالناصر، وموقفه السلبي..

لكن عبدالناصر رفض أن يقبض على نقيب الصحفيين أو أى من أعضاء مجلس نقابته.

وقد مثل هذا الموقف عجباً كبيراً بالنسبة لى، لم أخلص منه إلا بعد أن قابلت أحمد بهاء، وسألته، فراح يفسر لى الموقف، وهنا سأنقل من محضر نقاش كنت قد أجرته معه فى ١٨ مايو ١٩٨٧، نقرأ:

«عبدالناصر كان قد غضب جداً، وتصادف أن التقى بسامى الدروبي بعد أن مرت الأزمة، وكان سامى الدروبي أكثر قرباً لعبدالناصر من أى سياسى آخر، وأقرب الأصدقاء

إلى قلب أحمد بهاء الدين في الوقت نفسه:

قال عبدالناصر إلى الدروبي مشيراً لبهاء:

- كنت غير متوقع من صاحبك كذا!

- عمل إيه يا ريس؟

- أجاب عبدالناصر بسرعة..

- البيان اللي طلع به، كان طعنة خنجر في لينة مظلمة..

وحين اندهش الدروبي مما حدث، فقد كان لا يعرف ملايسات هذه الفترة، انبرى عبدالناصر لتوضيح ذلك كله، ثم قال له:

- علمنا كل النقابات ألا يعملون اضطرابات، أو يخرجون بمذكرات، أو أي شيء يؤثر على أدائنا ضد المظاهرات، ومع ذلك، راح هو فأصدر بياناً.

قال الدروبي:

- ذكرت يا ريس هذا البيان، لكني أذكر أيضاً، إنه لم يكن أكثر من بيان ٣٠ مارس الذي أخرج للجماهير هذه الفترة، يكاد يكون المضمون واحداً..

قال عبدالناصر:

- بهاء لم يكن يعرف ظروف الفترة.

ويقول هنا أحمد بهاء الدين، وكأنه يستعيد حقيقة غائبة عنه:

- طالع إن الدولة كانت تنتظر إلى الحديث بمنطق آخر،
وأكثر ما يؤمنى الآن، أن عبدالناصر قال للدروبي قبل أن
يفارقه أن يذهب إلى، ويقول لي:

- لماذا فعلت ذلك في مثل هذه الليلة؟

ومع ذلك، فأنا أذكر جيداً قول عبد الناصر لمن طالب
بالقبض على في ذلك الوقت، وفي مرات أخرى مشابهة:

- لا تقبضوا عليه..

محضر اجتماع مجلس نقابة الصحفيين

الجلسة ١٨

المنعقدة في الساعة ١٢،١٥ ظهر الأربعاء ١٩٦٨/٢/٢٨

عقد مجلس نقابة الصحفيين جلسة الساعة ١٢، ١٥ ظهر الأربعاء ١٩٦٨/٢/٢٨ لمناقشة الأحداث الأخيرة برئاسة الأستاذ أحمد بهاء الدين نقيب الصحفيين، وحضور الأساتذة كامل زهيرى، وفتحى غانم، وعلى حمدى الجمال، ومحمود سامى، وسعيد سنبل، ووجدى أبوالمجد، ومنصور القبى، ومحمود المراغى، وسامى داود، وصلاح الدين حافظ - واعتذر الأستاذ طلعت شعت .

وقد جرت مناقشة واسعة حول الأحداث الأخيرة وإعداد مذكرة أو بيان عن الوضع السياسى الراهن ودور الصحافة فى هذه المرحلة والعبء الملقى عليها... ودور المجلس وموقفه من حرية الصحافة والرقابة خاصة أن المجلس سبق له أن ناقش موضوع الرقابة على الصحف مع المسئولين وطلب فى مناقشة رسمية رفعها الأمين العام المساعد للاتحاد الاشتراكى فى ١٩٦٧/٩/٢٧ بضرورة رفع الرقابة على

الصحف، إلا فيما يتعلق بالأخبار العسكرية.
هذا وقد اتفق المجلس على إصدار المذكرة التالية ورفعها
للمسؤولين وهذا هو نصها:

مذكرة

من مجلس نقابة الصحفيين

اجتمع مجلس نقابة الصحفيين لكي يناقش الموقف السياسي
الراهن في البلاد، على ضوء العنصر الجديد الذي أضيف
إلى الموقف، بالمظاهرات التي قام بها طلاب الجامعات
وعمال بعض المصانع..

وقد رأى مجلس نقابة الصحفيين، بعد استعراض كافة
الظروف والملابسات، وكل ما تجمع لديه من معلومات
وأراء، أن من واجبه نحو الوطن ونحو الثورة، أن يسجل
وجهة نظره معبراً عن وجهة نظر مجموع العاملين في حقل
الصاحفة، ومشاركاً بذلك في المناقشة الواسعة التي يجب أن
تقوم، بل التي هي قائمة بالفعل، بين مختلف فئات الشعب
وفي هذه الظروف العصيبة.

إن مجلس نقابة الصحفيين يعتقد أن المظاهرات التي قام بها
طلبة الجامعات والعمال، كانت تعبيراً عن إرادة شعبية عامة
تطالب بالتغيير على ضوء الحقائق التي كشفت عنها النكسة

والدروس التي لا بد أن تستخلص منها .

وإذا كان قد شاب هذه المظاهرات في بعض اللحظات، فإنه من المهم ..

أولاً، أن ندين هذا الانحراف التخريبي غير المسئول ..

وثانياً، أن نؤكد مرة أخرى أن الصفة الأساسية للجماهير التي خرجت في هذه المظاهرات كانت توحيد الأهداف الأساسية للثورة وتطالب بالتغيير والتطهير بما يدفع هذه الأهداف إلى الأمام، وينحى عن طريقها المعوقات، ويضمن مشاركة الشعب في مسئولية تحقيق هذه الأهداف .

ولم تكن المطالب والشعارات التي نادى بها التيار الإسلامي من الطلبة والعمال مطالب جديدة ولا شعارات طارئة، فهي في الواقع مستمدة من نفس الشعارات التي نادى بها القائد الرئيس جمال عبدالناصر في أحاديثه إلى الشعب بعد النكسة، من تصميم على الطهارة الثورية والنقاء الثوري، ومراجعة أساليب عملنا والحساب على كل مسئولية وإلغاء الامتيازات، وإنهاء مراكز القوة الشخصية، ووضع حد لسياسة أنصاف الحلول، وإفساح المجال باستمرار أمام التيارات الجديدة والممارسة الديمقراطية وتقنين القوة وسيادة القانون .

وبهذا المعنى، فإن الصفة الأساسية لهذه المظاهرات، كانت تأييد قائد الثورة في هذه الشعارات، والوقوف إلى جانبه إزاءها، ولا تغير من ذلك حوادث فردية أو محاولات معزولة

من الذين يريدون أن يتخذوا من الأخطاء والانحرافات التي كشفت عنها النكسة، لا سلاحاً للقضاء على المبادئ ذاتها والمكاسب التي حققتها للشعب هذه المبادئ.

وإن مجلس نقابة الصحفيين، على ضوء الشعارات التي رفعها القائد الرئيس جمال عبدالناصر بعد النكسة والمطالب الشعبية التي عبر عنها الرأي العام في شتى المجالات والأحداث الأخيرة يعتقد أن ثمة مبادرات باتت تتطلب الإسراع في تنفيذها ووضعها موضع التطبيق إلى ..

وفي مقدمتها:

أولاً: الإسراع في الحساب من كل المسؤوليات الكبرى، وتقييم هذا الحساب حتى يشمل كافة القطاعات والمؤسسات في البلاد.

ثانياً: إعادة تنظيم التنظيم السياسي واستكمال.

ثالثاً: توسيع قاعدة الديمقراطية والمشاركة في اتخاذ القرارات داخل التنظيم السياسي.

رابعاً: الإسراع بإصدار القوانين المنظمة للحريات العامة والتي تكفل الضمانات الضرورية.

خامساً: إجراء الانتخابات للجان النقابية ومجالس الإدارة التي لم تنتخب بعد.

سادساً: ترتيب النتائج التي يجب أن تترتب على وجود عدو

يحتل جزءاً من أرض البلاد واستمرار حالة الحشد في مجالات الاستعداد النفسي والمادى والاقتصادى على أن تتحمل العبء كل الفئات التى يجب أن تتحمله.

وإذا كان للصحافة دور ومسئولية يجب أن تنهض بها في هذه الظروف، فإن مجلس نقابة الصحفيين يعود فيقف إلى جانب الرأى الذى سبق أن سجله في مذكرة سابقة منذ بضعة شهور من ضرورة رفع الرقابة على الصحف، فيما عدا ما يتعلق بالأمور العسكرية، وليس ذلك من باب عدم التقدير لدقة المرحلة التى نمر بها وضرورة مراعات مصلحة البلاد العليا قبل كل شئ، ولكنه إحساساً من المجلس بأن الصحافة التى يملكها الاتحاد الاشتراكى ويديرها أعضاء عاملون به، قادرة على أن تتصدى لهذا المسؤولية وعلى أن تكون في مستوى ما تتطلبه الأحداث.

وأخيراً فإن المجلس يسجل اقتناعه المطلق بأن وحدة الجبهة الداخلية في هذه الظروف، مطلب لا يجب التفريط فيه أو تعريضه للخطر بأى شكل من الأشكال. لأن وحدة هذه الجبهة الداخلية هي التى سوف تحرز النصر مع قواتها المسلحة التى تتخذ مواقعها الآن حيث تمارس دورها الأصيل في الدفاع عن الوطن.

كما يسجل اقتناعه بأن أهم ما يقوى هذه الجبهة الداخلية، ويحقق وحدة جماهيرها، هو السير قدماً على طريق

تحقيق هذه المطالب التي رفع رايته القائد الرئيس جمال
عبد الناصر، وهتفت له جماهير الشعب وعززتها في جميع
المناسبات.

أعضاء مجلس نقابة الصحفيين

أحمد بهاء الدين	طلعت شعت
سامي داود	على حمدي الجمال
سعيد سبل	فحي غانم
صبري أبو المجد	محمود المراغي
صلاح الدين حافظ	محمود سامي

منصور القصبي

سكرتير عام نقابة الصحفيين	نقيب الصحفيين
صلاح الدين حافظ	أحمد بهاء الدين

(التوقيع)

ثانياً

الكاتب والسادات

«إننى أذهب فى الكتابة
إلى أن أصل إلى سور الأسلاك الشائكة،
لكنه يعلم أنه لن يستطيع القفز
فوق الأسلاك الشائكة
ليكتب ما يريد،
(أحمد بهاء الدين، عن برنارد شو)
«قول عليك الأمان،
(أنور السادات)».

يصعب فهم موقف مثقف مثل أحمد بهاء الدين.

وهو ما يعود إلى أن موقفه الأيديولوجى والسياسى يقابى على
التصنيف، ومع ذلك، فإن أية محاولة تبذل لفهم علاقة المثقف بالسياسة
فى النصف الأخير من هذا القرن، تؤكد لنا أن نموذجاً مثله ليس نموذجاً
ممتنعاً، بمعنى أنه يتكرر كثيراً، كما أن حركته الدائبة بين الذات والخارج -
على المستوى السياسى بوجه خاص - تكشف الكثير من مساحات
الغموض للمثقف العربى من حيث العلاقة بين النخبة السياسية والنخبة
الفكرية..

وعلى ذلك، فإن فهم العلاقة المجردة بين الكاتب والسلطان فى زمننا
مرهونة بفهم مثل هذه العلاقة بين المثقف والسياسى فى عقد السبعينات..

وقد تيسر لنا الاقتراب من بهاء الدين - على المستوى الشخصى - فى الفترة الأخيرة من حياته، فتكشف لنا طبيعة التكوين الأيديولوجى للمثقف المصرى، والعوامل التى دفعت به لیتخذ موقفاً يتراوح - فى هذا العقد بين التمرد والصمت.

وقد تعددت استجابات المثقف وتداخلت فى هذه العلاقة - بين المثقف والسلطة - حتى باتت كفييلة بتضارب الأحكام على موقف هذا المثقف، خاصة أن الفترة كانت نالية للفترة الناصرية وسابقة لها فى آن، نالية لها بحكم التتابع الزمنى والموضوعى، وسابقة عليها، بحكم عدة خصائص تميزت بها البنية السياسية والاجتماعية للمجتمع المصرى منذ مركزية الملك (مينا) حتى اليوم.

وعلى أية حال، فإن محاولة الاقتراب من استجابة المثقف للنظام، فرض علينا، فى حالة بهاء الدين التوقف عند عدة إشارات تحدد طبيعة هذه الاستجابة وطبيعتها:

أ - التكوين الفردى

ب - التكوين السياسى

ج - التكوين الأيديولوجى

ويدهى أن هذه المؤثرات تداخلت فى شخصية بهاء الدين وعلاقاته، وهو ما سوف نراه حين نتمهل عندها قبل أن نجاوزها.

(٢)

كان تكوين بهاء الدين فردياً خالصاً..

بمعنى أنه كان بتكوينه ذو نزعة خاصة في التعامل مع القضايا التي يواجهها، وهو ما يعود إلى نشأته وتربيته، التي تركت أثراً عميقاً في طبيعته، والتي جعلته لا يستطيع التعامل على المستوى الإنساني مع الآراء العامة في التعامل بشكل شخصي، وكثيراً ما كتب : «إننى أميل إلى النزعة الفردية». (صباح الخير ٢٧ / ١١ / ١٩٨٠).

وتقترب هذه الفردية من مفهومها في علم الاجتماع والسياسة، فهي التي تخول الفرد أقصى ما يمكن من الحريات الشخصية.. مع تدخل شديد مع تكوينه الخاص، مما تصبح السمة ذاتية أكثر مما هي عامة.

إنه الانتماء الشخصي الذي يستفيد من المؤثرات الخارجية بقدر ما تتسق - هذه المؤثرات - مع الذات..

وقد كان هذا التكوين وراء رفض صاحبه الانتماء إلى أى تيار سياسى أو كادر حزبي بعينه.

وقد حكى لى أحمد بهاء الدين أنه فى الستينات استدعى إلى الاتحاد الاشتراكى، وأخبره حينئذ كمال الدين حسين بقرار القيادة السياسية بانتسابه - مع غيره - إلى العمل الوطنى فى الفترة التى سبقت كتابة (الميثاق)، ولقد لبى ذلك، ولكنه بعد عدة اجتماعات مع عدد كبير من أعضاء القيادة السياسية، ومعارضته لكثير من أفكارهم، بشكل غلب عليه الموقف الفردى الخاص، المرتبط بقناعات محددة، لم يلبث أن وجده نفسه

وعلى أثر مجادلات عنيفة، خارج التنظيم (محضر نقاش).

لم تكن القضية مجرد خلاف في الرأي السياسي، وإنما خلاف مرجعه تكوينه الذى دأب على الذاتية، مما أدى إلى الإيغال فى رأى الذاتى، وهو رأى وإن كان لا يختلف مع الرأى الآخر، فإنه يتفق مع تكوين صاحبه فى المقام الأول.

وهذا الموقف يمكن أن يتسق إلى حد بعيد مع رأى النخبة المثقفة، وإن كان يتعارض معها فى بعض الأحيان لقناعات صاحبه..

وهذا يفسر كيف أن بهاء الدين رفض الانتماء إلى أى حزب سياسى، واكتفى بالانتماء إلى دائرة الكاتب وعالمه وقناعاته التى تكونت، فكانت كلها حصيلة الذات والخبرة والرؤية الخاصة للأمر لسنوات بعيدة.

بيد أن ذلك الموقف، وإن بدا مستقلاً، غير مرتبط بمبادئ تنظيم أو تيار معين، فإنه يحمل فى طياته، بذور ضعفه، فيقدر ما يبدى قدراً كبيراً من التمرد فى بعض الأحيان، فإنه لا يلبث أى يبدى قدراً كبيراً من المهادنة أو الصمت إزاء عسف السلطة وضراوتها فى أحيان كثيرة،

فالمثقف لا يستطيع أن يصبح خيطاً فى نسيج المثقفين فى تيار أو تنظيم محدد، والمثقف لا يستند إلى أية جهة أو إحدى مؤسسات المجتمع المدنى.

ومن ثم، فإنه لا يستطيع بفرديته الخالصة، ومثالياته، التصدى للرأى السياسى المستبد أو «الكارزمى» وحده.

وربما كان هذا يفسر موقف أحمد بهاء الدين عام ١٩٦٨ إبان بيان نقابة

الصحفيين، وهو البيان الذى طالب فيه بعدة مطالب تتعارض مع الخط المعان للنظام، وهى المطالب التى رددت كثيراً فى مظاهرات الطلبة، وهو موقف متمرد منه إلى حد بعيد، غير أن تمرده هذا، كان يرتبط بالثقافة - كإحدى جماعات المصالح -.

لقد كان رأى المثقف يرتبط بطبيعة التعبير عنه:

النزوع الفردى لم يكن ليسمح له (ولغيره) التعبير بشكل راديكالى، أمن النزوع الجماعى، فقد كان يمكن به أن يعبر عما يريد:

فالتعبير عن الرأى كان يرتبط بالمؤسسات المدنية، وفى غيبتها، لم يكن ليستطيع المثقف التعبير عن فرديته بشكل صريح.

وقد كان مدركاً ذلك تماماً، وعبر عنه فى كثير من المرات، ودائماً ما أكد، لم أكن عضواً فى تنظيم،.. ولا يلبث أن يضيف، كان لى رأى فقط.

لقد كان بهاء الدين رجل (الفكر) لا رجل (السياسة)، ومن هنا، لم يكن ليمتلك أدوات رجل السياسة، وهى قضية العلاقة الجدلية وتفسيرها على مدى التاريخ، وهو ما يقترب بنا من تفسير موقف المثقف المصرى، الذى قد يحمل بذور تمرده، وفى الوقت نفسه تستنبت البذور فى تربة الاستبداد فلا يثمر غير الصمت، وهو إن بدا موقف مؤقت، فهو يعكس (حالة) المثقف وطبيعة موقفه.

إن هذا النمط نتعرف عليه بدرجات لدى المثقفين المعاصرين..

بل يمكن أن يفسر به وضعية المثقف المصرى فى العصر الحديث منذ

عصر محمد عبي الذي أطلق عليه المثقفون (ولى النعم) منذ عزل علماء الأزهر وخذعهم، أو من خلال تحديد مواقف رفاة الطهطاوى وعلى مبارك فيما بعد، ومروراً بالفترة الليبرالية عبر طه حسين والعقاد، ومحمد حسين هيكل، وإلى الخمسينات، وحتى اليوم، حيث تضاعف دور علماء الدين وتحدد دور المثقفين الذين بادروا بلعب دورا فقيه وعالم الدين قبل ذلك.

ويلاحظ أحد الباحثين أن مراجعة فترة التاريخ الحديث تشير إلى تضاول دور العلماء لمصلحة أعلام الأدب والفكر غير المرتبطين بالفكر الدينى. (خالد زيادة : كاتب السلطان، رياض الريس، لندن، ص ٩١).

وعلى ذلك، نكون أمام..

مثقّف ينتمى إلى الطبقة الوسطى

ويحمل نزعة فردية

ولا يخضع لكادر تنظيمى

ويعانى من البنية الأبوية على المستوى السياسى والاجتماعى

ومن الطبيعى أن نصل من ذلك كله إلى سمة أخيرة تفسر - ضمن ما تفسر استجابات المثقف -

وهى تتحدد ضمن حرص الكاتب على أن يذكر أكثر من مرة أنه ينتمى أيديولوجياً إلى (الاشتراكية الديمقراطية)

إن هذا الانتماء يشير أيضاً إلى إثارة للنزعة الفردية فى التغيير.

النزعة التى تؤثر التعبير بالرأى وترفض اللجوء إلى العنف لتحقيق

أفكارها، وهو ما تحرص عليه بالفعل هذه الفكرة الأيديولوجية.
هو ما يلخص (الخطاب) البهائي من أنه بذل حياته كلها للتغيير بواسطة
النضال الفكري على المستوى السياسى والديموقراطى، ومن داخل النظام
وخارجه، وبالتعبير الكتابى لا الموقف السياسى.
وهو ما نلتقى به معه، حيث نتعرف على طبيعة العلاقة بين المثقف -
بهاء الدين - والسلطان - أنور السادات - .

(٣)

كان أكثر ما يلفت النظر فى العلاقة بين أحمد بهاء الدين وأنور السادات
هى أنهما يعرفان بعضهما البعض منذ حقبة بعيدة .
وهو ما عبر عنه بهاء الدين بأكثر من صورة .
ومن هنا، فإن الكاتب يفسر ذلك حين كان يقول أنه كان يتحدث معه
بحرية كاملة .
ومن هنا، فإن طبيعة هذه العلاقة تحددت فى الشكل الذى رضى به
الكاتب وممارسه، إذ اتخذ بهاء الدين صفة (المحاور) وهو ما يعبر عنه
عنوان كتابه عن تجربته مع الرئيس (محاوراتى مع السادات)
وهو ما يترك هذا الانطباع بالعلاقة الوطيدة القديمة بينهما .
بيد أن المحاور لم يستطع أن يمارس هذا الشكل بعد أن أصبح السادات
رئيساً إلا فى الحدود التى وضعت له .

وهى الحدود التى صنعها الحاكم ومثلت طبيعة العلاقة بينهما .

وليس أدل على ذلك من أنه رغم هذه العلاقة التى يحرص الكاتب أن يصورها من جانبه أنها علاقة (خاصة) لم تستطع أن تجنّب غضب الحاكم . هذا الغضب الذى جعله يتعرض للفصل من عمله أكثر من مرة ، بل ويمنع من الكتابة فى الفترة الأخيرة من حياة السادات ...

وعلى ذلك ، فإن دور بهاء الدين تحدد لأكثر من مرة فى اتباع سياسة المهادنة مع السادات أو سياسة الصمت فى أوقات الخطر . لم يستطع المثقف أن يجاوز دوراً محدداً رسم له .

كان يستطيع من جانبه أن يصور لنفسه ولنا أنه يمكنه أن (يحاور) الحاكم فيغير رأيه ، فى حين أن مشاركة الرأى لم تكن لتسمح لكاتب أعزل من السلطة ، ولا ينتمى لمؤسسات دستورية تحميه لى يلعب دوراً إيجابياً فى هذه المشاركة .

لم يتخذ ذلك الحوار شكلاً ديمقراطياً قط ، رغم أن الكاتب حاول إيهامنا به فى فترات معينة من علاقته بالسادات . وليس أدل على ذلك من شكل العلاقة بينهما .

فبعيداً عن العلاقة التى كانت تصور على أنها تحفل بالود والعلاقات الخاصة ، كانت العلاقة الجديدة لم تسمح بأكثر من شريك الرأى الذى لا يمكن أن يدلى به إلا حين يسمح له ، وحين كان الكاتب يقع فى حرج الإدلاء برأى معين ، كان ينتظر حتى يسمح له الحاكم ، (قول عليك الأمان) .

(محاوراتى مع السادات، دار الهلال، بدون ص ٧٢) .

وعلى ذلك لم يستطع الكاتب دائماً أن يلعب الدور الراديكالى .

وهو الدور الذى كان قد لعبه فى نهاية الستينات .

وربما كان يبلور تمرده عبر حوارهِ المستمر مع السادات، وهو ما كان يجهّد به تغيير رأى الحاكم فى هذا الرأى أو ذاك، غير أن هذا السعى من جانب المثقف لم يكن ليصطدم دائماً إلا برغبة الحاكم، فحينما فكر السادات فى إعلان الأحزاب قال له بهاء الدين ما معناه أن الدستور لا ينص على ذلك، ولا بد من تعديل دستورى ينص على كل ذلك، أو بتعديل أسرع وأبسط ينص فقط على حق تكوين الأحزاب وقانون ينظم القواعد الخاصة بذلك ..

ورغم أن الكاتب كان يبحث عن صيغة دستورية لقرار الحاكم، فإن الحاكم نفسه، لم يلبث أن أنهى الحوار بعد منتصف الليل بأن قال له:

«يا أحمد، لازم تكون عرفت طريقي!»

طريقي أن أعلن قرارى ..

وبعد كده نشوف إذا كان عايز تعديل، نعمل تعديل، وإذا

كان عايز قانون، نعمل قانون ..

كفاية أعلن فى الخطاب قيام الأحزاب، وبعد كده نشوف

إيه اللى يحتاجه الموقف . (ص ١٠٦ - ١٠٧) .

وهو ما يشير إلى أن الكاتب ظل تابعا في أغلب الأحيان، ولم يكن
ليستطيع أن يختلف مع الدور الذي اختير له، وهو الدور الذي أدركه تماما،
ولم يستطع أن يجاوزه، وهو ما يفسر العديد من أفكاره، لا سيما في فترة
السبعينات.

ففي نهاية هذا العقد - السبعينات - كان يردد قول برناردشو أثناء
الحرب العالمية الأولى، فقد كانت له كلمة، وكانت توجد رقابة في إنجلترا،
وكان شو ضد الحرب فكان يقول: «إنني أذهب في الكتابة إلى أن أصل إلى
سور الأسلاك الشائكة. لكنه يعلم أنه لن يستطيع القفز فوق الأسلاك الشائكة
ليكتب ما يريد». (صباح الخير ٢٧ نوفمبر ٨٠)

وهو ما يشير إلى أن الكاتب هنا لم يستطع أن يقفز فوق الأسوار الشائكة
ليكتب ما يريد، ففي الحالات التي كان يحس فيها أنه سيضطر للقفز، كان
يعمد إلى الصمت حتى يستقيم الطريق وتتداعى الأشواك..

ولا يعني ذلك أن كاتباً مثل أحمد بها الدين لم يستطع أن يبدى أية
استجابة قط، اللهم إلا في إطار الصمت، وإنما كانت استجابته أحياناً تأتي
على شكل اعتراض لبعض قرارات النظام، غير أن الاعتراض كان يحدث
دائماً بعيداً عن مواجهة الحاكم مباشرة،

فمن المعروف أنه كان أول من اعترض على سياسة (الانفتاح
الاقتصادي) عام ١٩٧٤، غير أن ذلك ظل في إطار التعبير غير المباشر..

غير أن التعبير المباشر في مواجهة الحاكم كان يعمد فيه إلى كثير من
المهادنة، وكثير من الصمت حتى تمر الأزمة..

وسوف نعرض لذلك خلال موقفين هامين ..

أولاً: بيان ١٩٧٢

كان بعض المثقفين قد أصدروا بياناً في عام ١٩٧٢ ضد سياسة السادات لإطالة أمد تحرير الأرض، ووقع عليها عدد كبير في مقدمتهم توفيق الحكيم.

وقد غضب السادات، فأمر بنقل أصحاب البيان إلى مصلحة الاستعلامات من مؤسساتهم الصحفية والثقافية،

ورغم أن أحمد بها الدين لم يكن من بين الموقعين على البيان لمرضه، فإنه تنامى إلى سمع الحاكم، أنه كان مشتركاً فيه بشكل ما، ومن ثم، وجد بهاء الدين نفسه متقولاً مع أصحاب البيان.

وحين احتج لم يلبث أن فصل.

ورغم أن موقف بهاء الدين من البيان (التحريض والرفض)، وألقى سفره الذي كان على وشك الإقدام عليه، وهو موقف يشير إلى موقف راديكالي في مواجهة الحاكم، فإن ردود أفعاله بعد ذلك تشير إلى أنه رفض الاقتراب من الأسلاك الشائكة.

وهذا الرفض اتخذ أكثر من شكل يعكس جميعها هذه العلاقة بين الحاكم والمثقف في ذلك الوقت.

رغم أنه يبرر عدم سفره للتضامن مع زملائه، فيبدو أنه أحس أن السفر في ذلك الوقت سوف يزيد الهوية بينه وبين السادات، فلن يستطع أن يسكت

فى مواجهة الأسئلة التى ستلقى عليه فى خارج مصر، وهى أسئلة سوف تخرجه بالفعل فى مواجهة السادات.

والفترة التى تلت احتجاج بهاء الدين وفصله لم تشهد أى رد فعل منه مضاد ضد السلطة.

وهو موقف لا نستطيع أن نلومه فيه كثيراً، فلم يكن المثقف ليملك - وحده - قوة مواجهة الحاكم فى لحظات غضب هذا الأخير وسعيه إلى التتكيل بأى مثقف يهاجمه.

بيد أن رصد مواقفه عقب ذلك تشير إلى أنه بذل أقصى ما فى وسعه لاسترضاء السادات وبأى ثمن..

ومن مظاهر ذلك موقفه حين كان رئيساً لاتحاد الصحفيين العرب..
فى ذلك الوقت طلبت نقابات عربية كثيرة عقد اجتماع طارئ للاتحاد لمناقشة قرار السادات إبان بيان ١٩٧٢، غير أن بهاء الدين رفض ذلك الاجتماع، فلو كان قد عقد مثل هذا الاجتماع لغضب كثيراً الرئيس السادات، وهنا لجأ بهاء الدين إلى الحيلة، يقول:

... ووجدت أننى ملزم بدعوة للجنة التنفيذية للاتحاد إلى الاجتماع الطارئ.. ولكنها لو انعقدت فى القاهرة - كما طلبت النقابات العربية - فسوف تكون الحملة على مصر وعلى السادات قاسية جداً..

وقد برر ذلك الموقف بأن السادات يمكن أن يتخذ قرارات عنيفة أخرى

فى حالة انعقاد الجمعية العمومية بعد اللجنة التنفيذية، فما كان منه إلا أن
تحايل على الأمر، يقول:

...ففاجأتهم بتوجيه الدعوة للانعقاد فى مكان آخر مكان
خطر على بالهم وهو القاهرة، :

وفى هذا الاجتماع بذل بهاء الدين جهداً جباراً لإقناع
النقباء العرب بعدم اتخاذ أى قرار وترك الأمر للنقابة المصرية ..
(محاوراتى، ص ٢٩) .

وبذلك نجح بهاء الدين عن سابق قصد فى عدم الإساءة للسادات بشكل
خاص، رغم أنه توقع - وهو ما حدث بالفعل - من ضيق ونقد عدد كبير
من الصحفيين المصريين والعرب ..

ولا يمكن أن نصدق تبرير بهاء الدين بأن ذلك كان للخوف على مصر،
أو على حاكمها - بالتبعية - إذ أن الوازع الأول لديه - وهو أحد
المفصولين - أن يحاول استرضاء الحاكم وبأية طريقة، وقد أرسل فى ذلك
الوقت خطاباً للرئيس السادات حاول فيه أن يؤكد له أن ما كان وراء هذا
التصرف كانه عدم النيل من الحاكم بأى شكل .

كتب يقول له:

«وبعد فصل الصحفيين، حاولت نقابة عربية كثيرة أن تدعو
لاجتماع اتحاد الصحفيين العرب الذى رأسه لاستغلال
الموقف، ويعرف الدكتور حاتم الذى أعلمته بالأمر الجهود

التي بذلتها لإحباط هذا كله ، منعاً للاستغلال ، آخر الأمر
على عاتقى حتى هاجمتنى بعض الصحف . (خطاب إلى
السادات في ٥ أبريل ١٩٧٣) .

والواقع أن خطاب بهاء الدين كان زاخراً بالحيرة ، مليئاً بالذعر .
فهو يعترف في بعض سطورهِ بأننى أحاول أن أكتب هذا الخطاب إلى
سيادتكم وهو ما ساورنى مراراً وأنا كالسائر فى الظلام ، ذلك أننى إخلاص
لا أعرف بالضبط ما هى الشكوك المتعلقة بى . (انظر الملحق) .
وعلى ذلك فإن موقف المثقف هنا ، تحول إلى المهادنة أو الصمت إزاء
الحاكم ..

ويجب أن نسرّع إلى القول مرة أخرى أن موقف المثقف لا يمكن أن
يُحمل أكثر مما ينبغى .

فما دام المثقف فى وضعية التابع ، صاحب الرأى كيفما يطلب منه
فقط ، ولا ينتمى إلى جهة أو نقابة تعضد منه ، وفى غيبة تقاليد ديمقراطية
ورأى حر ، فمن الطبيعى أن يعرف الحدود التى لا يسمح بتجاوزها ، ولا
يحاول أن يتعداها قط ..

وهو ما نجده فى موقف آخر بعد ذلك بقرابة خمس سنوات .

ثانياً: انتفاضة ١٩٧٧

لم تكن انتفاضة ١٩٧٧ هى الحدث الوحيد الذى أسهم فى تبلور موقف

بهاء الدين من السادات، إذ أعقبتها أحداث أخرى - مثل كامب ديفيد - أسهمت في تحديده .

غير أن انتفاضة ١٩٧٧ التي بدأت في يناير من هذا العام كان فاتحة لانفراط عقد عدد آخر من الأحداث في السبعينات .

وهذه الأحداث أسهمت في كشف موقف بهاء الدين، وتحديده من مهادنة السادات، ومحاولة إثباته عن بعض القرارات الاستبدادية، إلى الابتعاد قليلاً قليلاً، وإثارة الصمت في آخر الأمر .

قبل أكتوبر ١٩٧٣ كان السادات قد أعاد المثقفين إلى أعمالهم، وما لبث الجميع بعد ملحمة أكتوبر أن انغمسوا في أحداث كثيرة غلب عليها آثار سيئة لسياسة الصدمة التي اتبعها السادات، وعديد من القرارات المتعجلة، ووجد الجميع أنفسهم - فجأة - أمام انتفاضة ١٩٧٧ .

ففي بداية عام ١٩٧٧، تفجرت أعمال العنف التي قام بها الشعب المصري ضد صندوق النقد الدولي .

إذ كانت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وصلت إلى درجة المعاناة من ارتفاع الأسعار، والتضيق، وهجر الحقول في الريف، ولم تكن غضبة وتمرد الأمن المركزي ١٩٧٦ إلا بدايات هذا الموقف، بما قطع بسوء الأحوال التي عبرت عنها جماعات كثيرة من الشعب في انتفاضة ١٩٧٧ .

وكان بهاء الدين قد عاش في السبعينات عقد النفط، ورأى كيف انتهت الأحوال إلى التضيق والخصوع لصندوق النقد، فتحدد موقفه في مواجهة ذلك كله، لكنه لم يكن خارج النظام، إذ أن الكاتب قد تهيأ للعب دور نقدي

تحت مظلة النظام، وحين يتاح له الأمر خلال (محاوراته..)

وقد تمثل ذلك في موقفه من أسلوب السادات في مواجهة الانتفاضة، فقد بدا في الظاهر رافضاً لأسلوب العنف الذي استشعر أن السادات في طريقه ليمارسه، في حين أنه بدا في الباطن رافضاً لأن يورط السادات نفسه في إجراءات عنف تضربه في المقام الأول، ويصل الأمر به إلى خسارة تأييد جماعات شعبية له، أو يترك الفرصة للتحرش به.

لقد ظل بهاء الدين لساعات يحاول إقناع السادات أنه .. شخصياً لم يمسه من الأزمة شيء مباشر إذا تغاضينا عن المظاهرات العاصفة والهتافات، وبذلك فإن الطريق الأسلم هو أن يتصرف، على أن العاصفة قد مرت وأصبحت وراءه. (محاوراتي، ص ١٣٠).

وبذلك، لم يستطع الكاتب أن ينعج الحاكم، فاكفني بالصمت، ليطلب منه السادات بعد ذلك أن يذهب.

ولم يستطع بهاء الدين غير الالتزام بهذا الموقف بعد أن ذهب السادات لإلقاء خطبته، ويعلن أن ما حدث هو (انتفاضة حرامية)، ويوصي باتخاذ إجراءات عنيفة ضدها.

وقريب من هذا حادثة أخرى، فحين طلب السادات منه بعض الأفكار الإيجابية وهو يكتب له إحدى خطبه، وعرض بهاء عليه فكرة العفو الشامل عن السجناء السياسيين، فإن السادات رد قائلاً: - «الفكرة تستحق البحث. ولكنها حكاية كبيرة».

ورغم أنه كتبها له في الخطاب، فإن السادات لم يعلنها..

وإذن، فالمثقف لم يكن يستطيع أن يبدى أكثر من رأى أثناء محاوراته مع الحاكم الذى ما زال يتمتع بمكانة (الفرعون) - كما أعلن السادات عن نفسه بالفعل فى السبعينات -

ورغم العلاقة الطيبة بينهما، فإن بهاء الدين لم يستطع أكثر من الرضاء بهذا الدور: إيداء الرأى أو الصمت..

كان بهاء الدين يحمل بذور التمرد بالفعل، لكنه لم يكن يستطيع أن يمارسه إلا فى مجال بعيد عن الحاكم.

يستطيع أن ينقد سياسة (الانفتاح)

لكنه لا يستطيع أن يعترض على قرار رئاسى بشكل مباشر..

يستطيع أن يمارس الرأى فى الصحيفة،

لكن الإطلاق هنا لا يكون صحيحاً فى كل المواقف.

فقد كان يحذر أن يغضب الحاكم، وكان أسلوبه فى ذلك عدم المواجهة، وإنما خفض الرأى حتى تمر العاصفة..

ولذلك لم يكن من المصادفة ألا نجد بهاء الدين فى كثير من المواقف التى يحتاج له فيها، إذ كان يكتفى بالصمت فقط..

وهو ما أغضب الرئيس السادات نفسه، إذ كان الحاكم يطلب مثقفاً تابعاً له بشكل كامل، يحارب معاركه مهما تكن أحقيتها، وقد وجد هذا المثقف فى موسى صبرى، لكنه لم يجده دائماً فى أحمد بهاء الدين..

وهو ما يصل بنا إلى استنتاجات أخيرة..

(٤)

لم يخرج موقف أحمد بهاء الدين عن التأرجح بين نمطين من أنماط المثقف:

التمرد،

والصمت

وإن كان النمط الأخير - الصمت - هو الغالب على موقفه كمثقف.

ولم يكن هذا الموقف بدءاً على مثقفي جيله، وإنما كان يمثل المثقف في تاريخ مصر تبعاً لظروف اجتماعية وسياسية وفكرية كثيرة.

لم تبارح وضعية المثقف في تاريخ مصر تبعيته للحاكم.

فإذا كان المثقف قد بدأ وظيفياً في عصر محمد علي - رفاعة الطهطاوي، ثم على مبارك فيما بعد - فإنه وصل، فأصبح مؤيداً لمهادناً ومبرراً في عصر عبدالناصر، وانتهى إلى كونه كاتباً أو (أفندياً) كوصف السادات.

إنه الموقف الذي أرادته السلطة الحاكمة.

وهذا النمط لم يخرج عنه بهاء الدين حين تصور نفسه مشاركاً في الحزب المؤثر في القوار، وهو ما رفضه الحاكم، ومن ثم، لجأ ليتحين فرصة أخرى لم تنح كثيراً له.

وقد أسهم في هذا الدور المثقف نفسه، بالصمت حتى تأتي لحظة أخرى للمشاركة والوصول به إلى هوة المهادنة.

الكاتب والسادات

وهذه الثنائية ، المهادنة - الصمت - هي ما يمكن أن تفسر به مواقف كثيرة لبهاء الدين

حين أثر الصمت تماماً إبان مؤامرة ١٥ مايو ١٩٧١ ،

وقريب منه موقفه إبان بيان ١٩٧٢ حتى بعد فصله ،

كذلك ، يبدو أكثر وضوحاً عقب اتفاقية (كامب ديفيد) ١٩٧٨/٧٧ ، فبعد مقابلته للحاكم للمرة الأخيرة في ديسمبر ١٩٧٧ لم يهاجمه أو ينال من ،كامب ديفيد، مكتفياً بالصمت .

الملاحظة العامة ، إننا يمكن أن نلاحظ موقف المثقف الراديكالي من الحاكم حين يكون بعيداً عنه ، يواجهه ، وهنا ، يكون قادراً على الاستجابة الراديكالية ، وهو ما يمكن أن نفسره موقفه من بيان نقابة الصحفيين ١٩٦٨ ، وكتاباتاته عن الانفتاح ١٩٧٤ ، ففي الحالتين وجدت استجابة المثقف عنيفة فاعلة ، لكنها أمام مواجهة الحاكم في السبعينات - وقد كان قريباً منه نفسياً وعملياً - لم يلبث أن انحنى لأكثر من مرة لتمر العاصفة ..

يجب التنبيه ،، ونحن نرصد لموقف بهاء الدين ، أنه من السهل العثور على مبرر له .

وهو مبرر يتخذ شكل الرؤية العامة ، فالمثقف لم يكن يستطيع أن يجازف بمكاسبه أو إنجازاته في اقتصاد سلطة أخرى تشد من أزره في مواجهة الحاكم ،

فهو لم يملك قوة الرأي العام .

أحمد بهاء الدين

كما لم ينتم إلى تيار فكري له وجود أو تأثير في دولة مركزية مثل مصر،
ولا تنظيم مهني يكون له من الوزن بحيث يحارب معارك المثقف انطلاقاً
من حرية الرأي أو العوى بالواقع..

وربما كان ذلك وراء مأساة المثقف العربي في العصر الحديث وتفسيراً
له في آن معاً..

ثانياً

السياسة والانفتاح

الانفتاح .. إنها سياسة «السداح مداح»
(أحمد بهاء الدين)

نستطيع أن نسجل أن أول رد فعل ضد سياسة الانفتاح الاقتصادى فى السبعينات، على المستوى النقدى، جاء من أحمد بهاء الدين.

هذه حقيقة لا نستطيع مراجعتها، ومع ذلك، فإن الطريق إليها يمر بمحطة العلاقة بين الكاتب والحاكم، أو بين السادات وبهاء الدين.

فهى علاقة تحدد طبيعة موقف المثقف من السلطان - كما يلاحظ أى دراس لتاريخ مصر - ومن ثم، تعدد كثيرًا من المواقف بينهما.. وصولاً إلى القطيعة التامة.

وهذه العلاقة بين الطرفين تفسرها علاقات خاصة بين الكاتب والحاكم.

فمن ناحية، كان بهاء الدين محاوراً للسادات بحكم موقفه منه قبل ذلك بعشرين عاماً - على المستوى الشخصى والأسرى، وبعد ذلك حين أصبح السادات رئيساً للجمهورية..

ومن ناحية أخرى، كان رئيساً لتحرير جريدة (الأهرام) بقرار من السادات نفسه. وقد نتج عن هذا أن الكاتب تصور أنه قريب من الحاكم بالقدر الذى يستطيع معه إجراء محاوراته معه بشكل ديمقراطى (أليس

عنوان كتابه .. محاوراتي مع السادات ١٩٨٠..)

فى حين أن المثقف لم يكن ليستطيع فى ذلك الوقت أن يؤثر فى القرار السياسى، اللهم إلا برضا الحاكم وإرادته.

واستكمالا لذلك، فقد كان السادات - كما لاحظ أحمد بهاء نفسه، أراد استعماله لأداء دور معين، (محاوراتي ص ٥٠). بما لا يسمح له بالاختلاف وإن وفر له - أحيانا - شيئا من الائتلاف ..

كانت المفارقة ظاهرة ومؤكدة بين الطرفين ..

وتتبع هذه المفارقة الهائلة من واقع أن السادات لم يكن ليريد من رئيس تحرير جريدة (الأهرام) - التى تعكس الموقف الرسمى - أن يخرج عن الإطار العام الذى اختاره لسياسته الاقتصادية.

فى حين أن هذا المسئول أو الموظف الرسمى، أصبح يعانى من ازدواجية التمرد والصمت.

أو من الحيرة التى تؤدى إلى شكل من أشكال التهادن مع النظام الديكتاتورى.

فيحدث هذا الموقف شيئا من التنازل الذى يكون من المستحيل معه تحمل مسئولية ما لا بد أن تعكسه الجريدة الأولى والأهم من أشياء أساسية تغير المجتمع، فى حين لا يستطيع تحمل مسئوليتها.

فى أول الأمر لم يتصور الكاتب أن هجومه على سياسة الانفتاح - كما عرفها - يمكن أن تغير عليه الحاكم ورجاله، لكنه مع الوقت سرعان ما

السياسة والانفتاح

أحس الفارق الكبير بين (محاوراته ..) مع الحاكم فى السروجهره بها فى العطن .

كان بهاء الدين يمارس محاوراته مع الحاكم بطرق شتى ..

إما بالحديث المباشر،

أو بكتابة بعض خطاباته،

أو بصياغة بعض بياناته ..

ومن ثم، فإن حواراه اتخذ شكل الديالوج مع الحاكم، غير أنه حين حاول أن يحول الديالوج من الحاكم إلى (مونولوج) يعيد صياغته بصوت عال مع الرأى العام، بدأ الخلاف واستفحل .

ولم يشفع له أنه لم يعارض الانفتاح الاقتصادى فى حد ذاته، وإنما انغلثته ..

كان هذا الموقف هو الخرق الذى زاد اتساعاً بينه وبين السادات طيلة السبعينات، حتى أنه استحال - كما يقال - على الرقع .

على أية حال، لنتمهل عند فكر المثقف قبل أن نعاود النظر إلى هذا الموقف الذى وجد نفسه راجعاً إليه ثانية ..

(٢)

كان أحمد بهاء الدين معاصراً لتطور فكرة الانفتاح منذ البداية، وكانت فلسفته فى ذلك لا تخرج عن تأييد هذه السياسة لاقتناعه بأنها إيجابية،

فهي لا تتعارض مع البنية الاقتصادية التي أرساها نظام عبد الناصر، كما لا تتنافى مع التدرج السليم لتطبيق هذه السياسة.

الأكثر من هذا أنه كان أحد المشاركين في إرهابات الانفتاح والحث عليه، ويدل على هذا أمران:

- كتب خطاب تكليف د. عبد العزيز حجازي بتشكيل أول وزارة في زمن الانفتاح

- كتاباته المتنوعة في بداية عام الانفتاح ١٩٧٤.

ففي الخطاب الذي وضعه بناء على تعليمات السادات نجد فيه عبارات مثل... ضرورة وضع الوزارة سياسة الانفتاح كاملة موضع التطبيق... وما إلى ذلك من العبارات الدالة، ثم التشديد على عناصر تكون لازمة للانفتاح كأن يكون للقانون هيئته وشروط للتصرف في المال العام (محاوراتي، دار الهلال ص ص ٧٧ - ٧٩)، ثم كتاباته التي راح يربط فيها بين الانفتاح الاقتصادي... والقطاع العام) - هذا هو عنوان إحدى مقالاته في ١٩٧٤/٣/٨

- وفيها يربط بين الانفتاح ومعطيات حرب أكتوبر قائلاً:

«إن الانفتاح الاقتصادي لم يعد ممكناً فحسب على ضوء معطيات ٦ أكتوبر الجديدة التي سبق شرحها، بل صار واجباً،

وبعد أن يرصد لقيام القطاع العام في الفترة الناصرية وأهمية بنائه،

السياسة والانفتاح

ويعدد بعض الشائبات التي نالت منه، يعود للتأكيد على أن الانفتاح الاقتصادي ليس منافياً لسياسة الانفتاح الرسمية وجذب الاستثمارات، بل على العكس تماماً، يشجع عليها.

معنى ذلك أنه لم يرفض سياسة الانفتاح كما لم يغفل أثر القطاع العام في هذه السياسة.

وقد ربطت نجاح السياسة الجديدة بشرط هو: «إذا تفتحت المعالم، واستقرت الحدود، ونمت قدراتنا على الاستيعاب، خاصة وأنه لدينا - كما يلاحظ - قاعدة إنتاجية غير متوفرة لبلد في العالم الثالث.

باختصار، كان مؤيداً للانفتاح، بل كان أول من أشار - كما أكد مراراً - على الرئيس السادات بذلك، قال له:

«إن جو الانتصار بعد حرب أكتوبر، هو أحسن جو لأن تطلب الدولة من الناس ربط الأحزمة والصبر ثلاث سنوات مثلاً، توجه فيها هذه التبرعات والمساعدات والقروض والتسهيلات في اتجاه الاستثمار وإصلاح ما أهمل منذ (١٩٦٧). (محاويراتى، ١١٠، ٧٦).

وقد وجد في ذلك، لدى السادات، استعداداً كبيراً.. إذ كان الحاكم يحلم أن تتحول مصر بسرعة إلى «هونغ كونج، أخرى بغير تأن، أو تردد.

وهو ما يدعو السادات إلى محاولة إرضاء الغرب والسير في موكبه.

وكانت عجلة الرأسمالية الغربية تعمل في هذا الاتجاه.

السياسة والانفتاح

قروض ومنح من الحكومات العربية والمنظمات المالية العربية.
وتحويلات من مئات الألوف من المصريين الذين هاجروا مؤقتاً للعمل
فى الأقطار العربية، وتدفق الاستثمار بدون تحويل عمله.
فاستخدمت العملات من عرق المصريين فى الخارج للاستيراد
الاستهلاكى رأساً.

وباختصار، لم يفتبه أحد إلى أنه دخل مع هذه السياسة فوضى اقتصادية
نالت كثيراً من الاقتصاد المصرى، وخلقت - فيما بعد - المشاكل، وزادت
الديون، وقلت فرصة الإفادة من ارتفاع أسعار البترول الذى كان قد ارتفع
خاصة بعد حرب ١٩٧٣، وما إلى ذلك..

كانت سياسة الانفتاح بدون تخطيط تنبئ بخراب شديد للاقتصاد
المصرى، وأثار سلبية أقلها ارتفاع الديون وإغراق البلاد فى ممارسات مالية
لم يستفد منها الاقتصاد الحكومى فى المقام الأول..

وسوف نعرض لهذه الفوضى خلال ما كتبه بهاء الدين فى ذلك الوقت،
ولم يمض ثلاثة أشهر على بدء الانفتاح.

لقد بدأ يناقش مستويات القضية على أكثر من مستوى:

الدولى

والعربى

والمحلى

أن القروض والإنفاقات التي نعقدها معناها تحويل آلاف الملايين إلى البنوك المصرية لتتصرف فيها، ولكن كل دولار منها يقابله جنيه مصرى علينا أن نوفره، ومرتبطة بوجود مشروع مدروس جاهز للتنفيذ، فلا تنتشر روح التواكل وانتظار سقوط المطر

* إننا يجب أن ندرك أيضاً أن الطريق شاق. وأن هذه المشروعات سوف تستغرق زمناً حتى تؤتى ثمارها، وبالتالي فالمرحلة الأولى للانفتاح هي مرحلة ادخار، وحرص على الموارد، وصعوبات، وأولويات.

* إن قانون الاستثمار الجديد ذاته، ترك الكثير من الأمور للبساطة التقديرية للجهة أو الشخص المسئول عن التنفيذ. وهذا أمر له خطورته من ناحيتين: من ناحية احتمال الخروج عن الخطة العامة للبلاد، ومن ناحية عدم اطمئنان الأجانب ذاته لهذه السلطة التقديرية، فالثقة تدعم بالقواعد لا بالأشخاص. ولذلك لابد أن يستكمل القانون بلائحة أو بغيرها. أي بقواعد مكتوبة لا تعيق الانفتاح، ولكن تنظمه، لمصلحة الطرفين معاً.

* إن منطق الانفتاح، بقواعده وضوابطه، يجب أن يمتد من الوزير إلى الموظف الصغير الذى يباشر العمل اليومي ويحتك بها وجهاً لوجه، فالقرارات العليا يمكن أن تضيق

منتهياً إلى نتيجة هامة هي زيادة دعاة السداح مداح.. وكل شيء مباح،.

إنه حتى الدول الرأسمالية الفنية، كانت إذا شعرت ببوادر خلل في اقتصادها الوطني تسرع إلى إجراءات الحماية بصور شتى. فعلتها أمريكا ضد أوروبا واليابان حين ضعف الدولار في أواخر حرب فيتنام، وعمدت إنجلترا ثم فرنسا ثم إيطاليا إلى إجراءات حماية مخالفة لقوانين السوق المشتركة بمجرد احساسها بالخطر: تارة بتخفيض العملة، وتارة بفرص رسوم جمركية عالية على استيراد بعض السلع، فرغم كل الانفتاح في العالم، نحن نمر في نفى الوقت بمرحلة من (الوطنية الاقتصادية) التي يمارسها الجميع، ربما لموازنة معطيات الانفتاح الجديدة. (الأهرام ١٢ يولية ١٩٧٤).

ويعد أن يشير إلى أن المال يتجه إلى الإمكانات والطاقات، ويتردد طويلاً في الذهاب إلى حيث لا توجد الطرق والموانئ، والقدرات المحلية والعمال والمهرة والخبراء.. أى ما يسمى (بالمقابل المحلى) يسجل عدة ملاحظات حول سياسة الانفتاح حينئذ في مصر على هذا النحو:

* إن هذا «المقابل الحي» أساسى جداً لنجاح الانفتاح، ولذلك فوضع خطة لتوفير المرافق الأساسية، واستكمال كل طاقات القطاع العام، وإعطائه فرصة الانطلاق على أسس أكثر اقتصادية، أمر أساسى، لأنه من هنا نزيد «قدرتنا على استيعاب» المشروعات الجديدة.

* إننا يجب أن نشرح هذا للرأى العام باستمرار، فلا يقن

شرايينها حتى تختنق كلما نزلت إلى ساحة التطبيق، بسبب
لوائح، أو تركيز سلطة، أو مخاوف، أو رواسب.. فما معنى
أن يضع فرد، مصرى أو أجنبى أمواله المستوردة فى بنك،
ويكون له حق استخدامها قانوناً. ولكنه لا يصرف منها
شيئاً إلا بشق الأنفس، ويعشرات الإجراءات والتوقيعات؟

* الخطة.. الخطة!.. والمشروعات المدروسة الصالحة
للتففيذ، أهم من أى شئ آخر.. وبغير خطة يمكن أن
تعرض لأزمات كالتضخم المفاجئ، أو الاختناقات ساعة
تجى لحظة تحويل العائلات إلى الخارج بعملات حرة، أو
ن فقد الهدف الاجتماعى الذى نستهدفه من التنمية، أو
تطفى المشروعات الذى تجى «لتلف» أسرع وأكبر ربح
دون عائد محلى كبير..

وأروى هنا واقعة صغيرة.. حين أراد ديجول أن يفتح على
مصر أرسل بعثة من أكبر رجال الصناعة والمال فى
فرنسا، وجرت مباحثات مع الجانب المصرى كان لها
ضجيج.

ولكنهم بعد أن رحلوا قال لى السفير الفرنسى وقتها..
«جاء وفدنا وفى ذهنه أن لديكم خطة.. وبالتالي سوف
تطرحون أنتم ماذا تريدون.. ولكن الجانب المصرى سأل
الفرنسيين..

السياسة والانفتاح

- ماذا لديكم؟.. فإذا قالوا مثلاً : يمكننا أن نقيم مصنعاً

لكذا، قالوا له عظيم.. نريد واحداً منه ! -

وهكذا عاد الوفد الفرنسى وقد اقتنع أنه ليس لدينا خطة،
وإننا لا نعرف الأولويات التى نريدها، وبالتالي لا يمكن
أقامة مشروعات كبيرة بهذا الأسلوب..

* التدريب.. التدريب ! ليس تدريب العامل والموظف
وحده، ولكن أكبر المديرين أيضاً.. فعلوم الإدارة والتجارة
والاقتصاد تتغير بسرعة، وسياسة العالم المتقدم تقوم على
أساس سياسة (التعليم المستمر، التى أشارت إليها ورقة
أكتوبر؛

قال لى أستاذ جامعى ممتاز سافر مؤخراً :

كنت أدرس مادة التجارة الخارجية، فوجدت أنها صارت
فروعاً وتخصصات.. فهناك علم تخطيط التجارة
الخارجية.. وهناك.. وهناك..

ونعتذر عن إيراد هذه الفقرة الطويلة من مقالته فى هذا الخصوص،
لكنه أمر لازم للتعرف على كيفية معارضته لسياسة (السداح مداح) كما
أسماها فى ذلك الوقت..

وهذا الموقف لم يقتصر على عام الانفتاح وحده - عام ١٩٧٤ - وإنما
استمر.

ففى تلك الفترة خصصت صحيفة (الأهرام) الصفحة الثالثة بطلب من رئيس التحرير - بهاء الدين نفسه - لتأكيد سلبية هذه السياسة الاقتصادية بدون تخطيط أو درس كاف .

ورصيد كتابات بهاء الدين إلى نهاية السبعينات، تريننا أنه لم يترك فرصة إلا وتحدث فيها عن هذه السياسة، «هذا الانفتاح لم أعارضه، ولكننى عارضت انقلاته» ..

كما لم يتردد من أن لآخر إلى التمهّل عند مصطلحات هذا العصر، ويبحث أصولها فى العربية لتأكيد أن ما يحدث خارج اللغة ليس له علاقة بالواقع الحقيقى .

والمهم بعد ذلك أنه لم ينتبه فى وقتها إلى أنه يسبح ضد التيار، فقد اعتقد أن محاوراته مع السادات وكتابة بعض خطبه أو قراراته كفيلة

أولاً: بتوفير حرية الاختلاف، وتسمح له

ثانياً: بإعادة بلورة أفكاره فى الصحافة، وتنتج

ثالثاً: فى حمايته من رجال الانفتاح وزبائنه الرسميين وغير الرسميين .

غير أنه تأكد له - مع مضى الوقت - أنه كان يحارب طواحين الهواء .
ولأن العلاقة بين الكاتب والحاكم دائماً كانت تحكمها تبعية الأول للآخر، فإن ما حوله قد زاد من التوترات بينه وبين السادات، مما يمكن أن

السياسة والانفتاح

نوافقه معه أن هذا الموقف انتهى إلى (شرح) أصاب العلاقة بينه وبين السادات ..

وقد زاد هذا الشرح حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من رفض السادات - في نهاية السبعينات - مقابلة أحمد بهاء الدين، وقال لمن جاء يطلب منه ذلك. إنه،، أى بهاء الدين - كاتب بلا موقف ..
(موسى صبرى، الأخبار ٨/٢/٨٦) ..

* * *

لم يكن موقف أحمد بهاء الدين من سياسة الانفتاح الاقتصادى وحدها هى التى حددت العلاقة بينه وبين السادات، لكنها كانت - مع غيرها - مما عجل بالمصير الذى انتهت إليه هذه العلاقة .
وفى هذا السياق فقط، نستطيع، القول، إن أول رد فعل ضد سياسة الانفتاح، جاء من أحمد بهاء الدين .

الفصل الخامس

القضية العربية

أولاً

الوحدة العربية

«ماذا يراد بنا نحن العرب،
وقد تفجرت أرضنا بالبترول
فى هذا العالم الرهيب؟
استنزاف مخزونهم،
واستنزاف أموالهم،
واغراقهم فى ألف قضية ومشكلة
.. لعشرين سنة،
أحمد بهاء الدين

قبل أزمة الخليج بعدة أشهر فقط سقط مريضاً..

وكان القدر رتب هذا السقوط، فما كادت تمضى عدة أشهر على
سقوطه، حتى كانت القومية العربية - وقد كان من بين أهم رموزها -
تضطرب بعنف تحت أرجل حزب البعث العراقى فى الكويت، وتهتز بشدة
فى رياح (عاصفة الصحراء) الأمريكية، فسقط العالم العربى وسط
انكسارات لم تشهدا المنطقة من قبل.

ولم يكن هذا السقوط سوى إيدان بصعود دعاوى كثيرة بين الأجانب
تؤكد انتهاء فكرة القومية العربية، وربما كان أبرزهم على المستوى العالمى
المؤرخ المعروف برنارد لويس الذى راح يحلل ما حدث إبان أزمة الخليج،
فيرى أن ما حدث إنما يؤيد انتهاء هذه الفكرة. وأن العالم العربى يتفكك

كهوية سياسية .. مغرقاً في التحليل الذى خلص إليه فى مقالة بمجلة (الشئون الخارجية) والتى صدرت بالولايات المتحدة الأمريكية فى نهايات عام ١٩٩٢.

يحاول المؤرخ - الذى ينتمى بالجنس والديانة إلى اليهودية وبالولاء والانتماء إلى المخابرات البريطانية فالأمريكية - .. أن يصل من تحليل حاذق إلى أن هزيمة صدام حسين تعكس - على المدى التاريخى - هزيمة عبد الناصر.

كما أن الاهتمام المفقود للقضية الفلسطينية إبان اجتماعات واشنطن بين الوفود العربية والإسرائيلية. لم يعد كما كان، وهو ما ينتهى إلى خرافة القومية العربية (بعد أن انتهى نظيره فوكوياما إلى خرافة أية أيديولوجية أخرى عدا رأسمالية الغرب الأمريكى) ..

والواقع أن برنارد لويس لم يكن أول كاتب أو مؤرخ غربى أو إسرائيلى يذهب باسم العلم إلى تفنيد القومية العربية أو تأكيد انتهاء سطوتها. إذ سبقه أبا اييان إلى محاولة اللعب على هذا الوتر بكتابه (موجة القومية) والذى جهد ليؤكد، فى الخمسينات، نفس الأفكار متذرعاً بالعلمية قاطعاً التاريخ والجغرافيا بالطول والعرض ليؤكد لنا ذلك ..

فى هذا الوقت راح أحمد بهاء الدين يلتقط هذه الأفكار ويحاول التدليل على زيفها، ولم ينس أن يضمن ذلك كتابه الملحوظ (إسرائيليات) فى فصله الأخير، وكأنه كتب للرد على أبا اييان قبل ربع قرن أو يزيد، أو على برنارد لويس اليوم ..

ونحن لا نريد الآن العود إلى أفكار أبا اييان أو لويس .
 فالفكرة العربية رغم ما نالته من ضربات عاتية، ما زالت تتنفس.
 ورغم أنها تعاني من الأعداء أو الأبناء، فإن حتميتها، تؤكد، أنها، ستظل
 تتنفس حتى يستعيد الجسد عافيته ويعاود إبلاله والعود إلى ما كان.
 هذه بدهيات - رغم التشاؤم الحاضر - أصبحت راسخة ..
 ولا نحتاج للدلالة عليها ..
 غير أن العود إلى كاتب واع مثل أحمد بهاء لاستعادة الأحداث التي
 مرت عليها، يمكن أن يعيد لنا شيئاً من تفاؤل التاريخ وحتميته بوجود
 القومية العربية وحضورها ..
 وهذه ليست كلمات حماسية، ولا هي فصلاً من البلاغة العربية، وإنما
 هي حقيقة نحاول استعادتها، وما أحرانا كلما اشتد بنا الكرب العود إلى
 التاريخ لنرى في مرآته قانون الحاضر وما يؤدي إليه ..
 إن الاستعمار الأمريكي هو هو، وربما زادت شرارته.
 وقضية فلسطين هي هي، وبالقطع زادت مأساتها
 والواقع العربي لم يتغير منذ قرابة نصف قرن، وإنما زاد سوءاً ..
 فلنستعد تجارب الوحدة العربية في فكر أحمد بهاء الدين قبل أن نصل
 منها إلى ما بعدها ..
 بيد أننا قبل أن نفرغ للتجربة لابد أن نسأل:

لماذا أحمد بهاء الدين؟

وما هي ملامح عصره السياسى؟

ثم ما هي مؤثراته العربية؟

الإجابة عن السؤال تكون فاتحة للإجابة عن بقية التساؤلات الأخرى.

* * *

أحمد بهاء الدين مثقف عاصر التجارب الوجدانية طيلة الخمسينات والستينات، وعاش تردى السبعينات، وتمدد الثمانينات، واقترب من الأحداث خاصة فى عقودها الأولى لدرجة يمكن القول معها أنه (شاهد عيان) لكثير من أحداثها، وأقضى سنوات كثيرة من حياته مولعاً بتطوراتها، وأنفق أوقاناً كثيرة من السفر والفهم والقراءات.. وما إلى ذلك..

ومن هنا جاء موقفه ليس فقط انعكاساً لاضطراب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية - وما أكثرها - فقط، وإنما لانعكاس تطور الوحدة فى أطوار كثيرة على المثقفين الذى كان أحدهم، والذى كان خصماً لبعضهم وقريباً من بعضهم الآخر بحكم الانتماء إلى القومية العربية..

إلى جانب هذا أنه عاش فى فترة شهدت تطور القوى الوجدانية التقدمية الفعلية فى ثلاث دول: مصر وسوريا والعراق.. ومن هنا.. كانت الرياح مواتية ليشهد كل هذه الأحداث، ويغرق فى تياراتها، رغم الخلافات الحادة

بين هذه الأقطار مما أفرز قدراً كبيراً من المראה .

والأهم من ذلك أن المعبر عن هذا كله الغارق في تطوره، أثر أن يسجل ردود أفعاله في فترة فوران الأحداث، ثم يسعى إلى تجميع ما سجله على نفسه أثناء مساجلات دامية كثيرة، ويعيد طباعته في كتاب أسماه (أزمة اتفاقية الوحدة الثلاثية) في بداية الستينات .

وعلى ذلك .. حين نحاول فهم موقف أحمد بهاء الدين من قضية الوحدة العربية لن نخرج عن مرحلتين اثنتين:

– الفترة التي تنتهي بهزيمة ٦٧

أى الهزيمة العسكرية للوحدة العربية

– الفترة التي تنتهي باتفاقية ٧٧

أى الهزيمة السياسية لهذه الوحدة

ويدهى أن الفترة التي تلت ذلك طيلة الثمانينات إنما تعكس الهزيمة الشاملة، الثالثة، وتهيئ لها (هزيمة الخليج الثانية) وقد كان أحمد بهاء الدين نفسه أحد ضحاياها قبل أن تبدأ، فلم تكن الهجرة السوفيتية لإسرائيل حينئذ إلا أحد وجوه الفترة .

وهنا نشير بإيجاز شديد إلى ملامح هذه الحقبة

في ذكر عناوانات هذه الفترة نشير بسرعة إلى أنه عقب عدوان ١٩٥٦ على مصر، تصاعدت الأحداث في الأقطار العربية لتؤكد بروز الفكرة العربية كتحدى للقوى المعادية للعرب، ووصل التصاعد القومي إلى أقصاه

في الوحدة المصرية - السورية ١٩٥٨ .

وما لبثت أن انحصرت المؤتمرات في القوى الكبرى والنخبة الداخلية في ١٩٦١، وظل الحس القومي في صعود وهبوط، خاصة إبان الاتفاقية الثلاثية بين مصر والعراق وسوريا، لكنها لقيت نفس المصير.

وحين جاءت هزيمة ٦٧ تلقت القومية العربية أعتى الضربات ضدها..

ومع ذلك، فإن المد القومي والى صعوده بتكاتف الدول العربية ضد إسرائيل، ووصل إلى أقصى مداه في حرب ١٩٧٣. غير أنه لم يمض عام حتى تصدع البناء العربي، ووصل إلى أقصى انهيار له في رحلة السادات للقدس عام ١٩٧٧ التي تمخضت عن ابتعاد الأقطار العربية عن الشقيقة مصر..

هذه الحقبة الطويلة شهدت محاولات للوحدة، أثرت فيها قضية المصير العربي الموحد بالسلب والإيجاب، وخضعت تجاربه لقدر كبير من الهزائم والاحباطات، غير أنه شهدت المنطقة العربية لأول مرة في التاريخ الحديث عدة محاولات للوحدة الوحدة ٥٨ - ٦١، الوحدة الاتحادية الثلاثية ٦٣، خطوات في طريق الوحدة تمت بين مصر والعراق ١٩٦٤، ثم جاء اتحاد الجمهوريات العربية ٧١، فمشروع الوحدة الليبية المصرية ٧٢..

كان الزمن هوزمن الكفاح ضد الاستعمار القديم (الغربي) أو الجديد (الأمريكي)

وكان زمن افتقاد القيم السياسية والنيابية ومطامع الأحزاب والنخب الحاكمة وتحرك الشركات متعددة الجنسيات، وفساد القيم المالية والتنمية..

غير أننا قبل أن نصل إلى دور أحمد بهاء الدين في هذا كله لابد من التمهّل - هنيهة - عند مؤثراته وتكوينه الفكري في ذلك الاتجاه..

(٢)

الانتماء العربي أكثر ما يلاحظ عند أحمد بهاء الدين..

وهو انتماء قديم - فيما يبدو - يمكن تحديده أكثر منذ فترة الأربعينات، حين كان حسه العربي يحرك مواقفه الأولى.

فهو يحدثنا في هذه الفترة المبكرة أنه حين ضرب الفرنسيون دمشق بالمدافع خرج مع غيره من الطلاب في مظاهرات، فتعرض مع غيره إلى رصاص البوليس.

ولا يفتأ يذكر من آن لآخر أن أكثر من ترك أثراً عربياً فيه كان فارس الخورى الذى راح يعلو صوته في المجالس الدولية دفاعاً عن الحق العربى «صار يومها بطلاً قومياً في مصر».

وحين قامت ثورة ٥٢، وبدا أنها في الفترة الأولى ترفع شعار: مصر أولاً يذكر بهاء الدين هنا: «عارضناها بالقول والكتابة»، لكن لما بدء الانتماء العربى يميز توجهات الثورة كان في مقدمة من أيدىها وتحدث عن إنجازاتها.

وعلى ذلك، فإن التفاعل الفعلى بدأ منذ الخمسينات، إذا ارتبط بفكر الثورة ومواقفها في عديد من الأحداث التى يتميز فيها الاتجاه القومى، وخاصة حين راح يتركز هذا في أحداث هامة في سنوات ٥٦ - ٥٨ - ٦١

- ١٩٦٣ وهى، كلها سنوات، تعكس المد القومى العربى إلى غير ذلك مما يؤكد هذا التوجه.

ولا يخلو من مصادفة أن أحمد بهاء الدين قد عرض عليه رئاسة تحرير مجلة (العربى) من صيف ١٩٧٠، وحين اعتذر تكررت الدعوات حتى قبلها بالفعل فى أول يناير ١٩٧٦.

فأسهم فيها فى تأكيد الروح العربى والأفكار التى طالما دعا إليها، وراحت تكتمل الدائرة باختياره فى لجنة تنسيق السياسة بين الحكومات العربية ١٩٧٠.

وقبلها بقليل كان رئيساً لاتحاد المحامين العرب.

كذلك سعى للتعرف على القضية الفلسطينية بشكل فعلى، فكان من بين أوائل المثقفين الذين ذهبوا إلى الأرض المحتلة مروراً بالأردن، وعاش مع الفدائيين الفلسطينيين، وحضر الكثير من اجتماعاتهم، ودخل محاورات كثيرة معهم أو ضدهم.

وسوف نرى أن أكثر ما عبر فيه عن ارتباطه بالوحدة العربية كتاباته التى توزعت بين الدوريات والندوات والكتب، فكلها لا تخطئ الهاجس العربى المسكون فيه، وهو ما يمكن أن نعثر عليه منذ أول كتبه (النقطة الرابعة) فى بداية الخمسينات وحتى آخرها (محاوراتى..)

إذن أعماله فى هذه الفترة الطويلة لا تخرج عن الوعى بقيمة الوحدة العربية فى زمن يتشقق فيه الوجود العربى، فى حين يلتزم أى وجود آخر فى الشرق أو الغرب.

ففي عصر التجمعات والكتل الكبيرة لا يجب أن نحتّمى بالقطرية أو
ننمّسح في مميزاتها.

ولا يجب أن ننسى أنه في كتابه «إسرائيليات» راح يعدد الأخطار الكثيرة
التي تلتف حول العقل العربي، بل راح يخصص به فصلاً كاملاً ليتحدث
فيه بوضوح عن ضرورة القومية العربية التي راح يخرج عنها أبا أيان
كتابه ليؤكد العكس، كما أسلفنا ..

وفي هذا الفصل تفصيل فريد لما يجب أن ينتبه إليه العرب، فالقومية
ليست (موجة) كما يقول عنها أعداؤها، وإنما هي مجرى عريض يجب
العمل على توسيعه وتعميقه.

ونستطيع أن نلاحظ أن قضية الصراع العربي - الإسرائيلي كانت هي
المنطلق الأول عند بهاء الدين ليؤكد من خلالها افتقار العرب عناصر
الصراع: الوحدة.

فإن الهزائم المتكررة للعرب ليست إلا تأكيداً على تفرقهم، وهو الذي
نستطيع أن نصل إلى أسبابه حين ندرك أن ابتعادنا عن الحضارة إنما هو
الباعث الرئيسي وراء هزيمتنا، ولن نستطيع أن نعاود أمجادنا القديمة
وتحرير أراضينا إلا بمحاولة سد ثغرة التخلف الحضاري بين أعدائنا وبين
ذواتنا نحن العرب في كل الأقطار العربية وليس في قطر دون آخر.

وهو ما سنقترب أكثر منه حين نصل إلى موقفه من تجارب الوحدة
العربية

(٣)

نستطيع أن نتعرف على تجربة أحمد بهاء الدين من خلال عدة محددات رئيسية، يمكن ترتيبها على النحو التالي:

أ - التصور

ب - القصور

ج - الشهادة

ولا يمكن الدخول إلى هذا العالم دون أن نتمهل عند أهم التصورات التي تمثل المفاهيم الأساسية للقومية عنده، وهى المفاهيم التي لم يتراجع عنها أو يغيرها طيلة هذه الحقبة منذ الخمسينات حتى الثمانينات.

ولا يمكن أن نتمهل عند هذا المصطلح أو ذاك، فن تعامل معه على أنه مفهوم خام، جامع مانع، وإنما سنلاحظ أنه مفهوم يخرج من رحم الأحداث ويتلون بتغييراتها ويتشكل خلال تغييراتها.

وعلى ذلك، فإن هذا المصطلح أو ذاك إنما يعكس فى المقام الأول الأزمان التي عاشتها مصر سواء مع حزب البعث فى سوريا أو العراق فى الخمسينات، أو الستينات، أو مع التغييرات الحادة التي عرفها الوطن العربى عقب تغييرات السبعينات فى محاولة لتغيير ملامح عربية مصر أو صبغها بلون الحدث دون التمهّل عند الثوابت..

إن أهم التعريفات التي لجأ إليها فى هذا تعريف (القومية العربية). ومن بين التعريفات التي راح يعرضها فى كتابه (قوميتنا فى امتحان

الوحدة العربية

جديد) راح يؤكد على أنها - أى القومية - تلك الرابطة التى تؤلف بين الناس فتجعلهم أمة واحدة، يتكلمون لغة واحدة، ولهم تكوين نفسى مشترك، ومصالح وتقاليد مشتركة، ماضيتهم يسرى فيه تاريخ متصل، ومستقبلهم يصنعه كفاح مشترك، ثم يضاف هذه الروح أو الإرادة الشعبية العامة، (٤ - ٥) .

ولأن الشيوعيين حاولوا السيطرة فى ذلك الوقت على حزب البعث، وحاولوا أن يعيدوا صياغة الفكرة، فإنه راح، فى نفس الإطار، يشير إلى أن ما يؤكد وجود هذه العناصر للقومية أنها ليست عنصرية، كما أنها تختلف كثيراً من حيث الفكرة عن الدين، كذلك، فإنها لا تعزل نفسها عن التطور الاجتماعى .

ويلاحظ على هذا التعريف أن تحقيق القومية لا يكون بهذه الشروط التقليدية، فهى شروط يمكن الخروج - بها - نظرياً - من دراسة التجارب الوجودية التى عرفت القوميات فى الغرب، وإنما بتوفر شرط هام يسميه بنس^١ الإرادة الشعبية، وهى الإرادة التى لا تمثل عنصراً عاماً، بقدر ما تمثل المادة الاسمتية القوية التى تلتصق ببقية الشروط الأساسية، فيها يمكن امتلاك القدرة على هذه الوحدة والحفاظ عليها، ليس مجرد الفعل الذى يخلو من إرادة الاستمرار ..

على أن هذه الوحدة تظل مرهونة بشرط آخر، يكمل الشرط السابق ويؤكدده .

إن هذا الشرط الذى يجب اشتراطه .. هو شرط الاستقلال الحقيقى،

والخضوع من الاستعمار والتبعية ومناطق النفوذ (٩)، وهذا يرسم كيفية تحقيق الوحدة في عالم ما زال الاستعمار الجديد فيه (الأمريكي) يسعى لربط أقطار العالم العربي في تحالفاته، ومحاولة السيطرة على مناطق الثروة، وحماية أدااته .. (إسرائيل).

وكما يرفض أن تكون الوحدة، تحت تأثير عوامل خارجية، كذلك يرفض أن تقوم هذه الوحدة - باستشراف زكي - على غزو (برجوازية) لبرجوازية أخرى في قطر آخر.

فالشرط ليس الاستقلال عن المحاولات الخارجية الدووية للذيل من الإرادة العربية في كل قطر، وإنما أيضاً التحرر من سيطرة طبقة عربية على طبقة عربية أخرى، أو سيطرة نظام على نظام آخر، وهى الحجة التى راح الانفصاليون فى سوريا يتذرعون بها لإنهاء أول وحدة عربية فى التاريخ الحديث.

ولأن الشيوعيين العرب كانوا كثيراً ما يتحدثون عن الأممية على حساب أية وحدة أخرى، فقد أولى بهاء الدين عنايته القصوى لتعريف المثقف العربى الجديد.

وهو المثقف الذى يستطيع أن يفرق بين ما يريده الاستعمار وما يريده المثقف (التقدمى) - فى تعبيره، لقد اقتحم أسوار التعريفات المغلقة فى ذلك الوقت، وراح يفصل ذلك فى هذا التصور:

«التقدمى العربى لا يجد حرجاً ولا تناقضاً بين مبادئه التقدمية وبين إيمانه بالقومية العربية، لأن هذه الحركة

القومية قد أخذت بالفعل مجرى تقديمياً، فهي حرب ناجحة على الاستعمار في كل مكان في الوطن العربي، وهي إذا وصلت في قطر من الأقطار إلى مرحلة الوحدة، كما حدث بين سوريا ومصر، فإنها تتسم بأسلوب ديموقراطي، أي باستفتاء شعبي حر، (١٩).

ويشتد هجوم اليسار على التجربة الوحدوية بين مصر وسوريا. فيرى بهاء الدين أن ذلك موقف مريب.

وهو الموقف الذي يقف فيه اليسار (المتطرف) في صف اليمين (المتطرف)، فالتقدمي عنده - هو يساري هذا الفترة - هو الذي يحاول أن يكون أكثر الجميع يسارية، ويفصل ذلك أكثر حين يقول بوضوح:

«إن القومية العربية المتحررة، بعد أن كانت تحارب في جبهة على يمينها.. أصبحت تحارب في جبهة على يسارها» (٢٩).

وقد كان بهاء الدين يقف في صف المثقفين الوحدويين الذين كانوا يقفون في موقف مضاد لثورة عبدالكريم قاسم في العراق.

كانت حركة قاسم في العراق تشن هجوماً عاتياً على الجمهورية العربية المتحدة، وتحاول تحت ضغط القوى الأجنبية النيل من عبدالناصر رمز الوحدة العربية حينئذ.

لقد رأى أن القوى التقدمية التحررية بعد أن كانت تحارب في اليمن، والسعودية، والأردن.. الآن تحارب العراق ونظام قاسم فيه، وبذلك، فإن

محاربة اليسار الآن إنما يشير إلى حقيقة هامة، هي.. أن اليمن بعد أن تعب كثيراً من حرب تجربة الوحدة ضم إليه اليسار، فسعى اليسار بدون تردد ليخفف الضغط على الرجعية،.. وبذلك يمنحونه فرصة أكبر للنيل من تجربة الوحدة،..

وعلى ذلك، فإن هجوم بهاء الدين انصب على نظام العراق الشيوعي، فالحزب الشيوعي الذي كان يسعى نهائياً على السلطة هناك كان يسعى لسحق كل الآراء الوحدوية الوطنية بالقوة، ولتحويل العراق إلى دولة تمضي في ركاب المعسكر الشيوعي، وهنا، فإنه راح يحذر من خطر الحرب الباردة بين المعسكرين - الشيوعي والرأسمالي - على مصير الوحدة العربية، فإذا تم ذلك، فسوف تصبح البلاد للمرة الأولى، تحت رحمة الحرب الباردة (٢٠).

ذلك لأن الحرب الباردة بين المعسكرين تضخم المشكلات بينهما، وتزيد المشكلات، ويحاول كل معسكر في ذلك أن يجذب طرفاً من أطراف الوطن العربي، ومن هنا، تتجمد قضية وحدة الأمة العربية، وتتوقف (٢١). ويشغل الجميع هنا بالصراع الدائر بين المعسكرين من أجل قضايا قد لا تجد خلاص لها قط، وبذلك، تتخلص إسرائيل من الشبح الحقيقي الذي يؤرق حياتها: شعب الوحدة العربية،.. (٢٤).

وتتعدد هذه المعوقات للوحدة، وتظل أبرز ما يميز الخلاف بين من يدعون إلى الوحدة في الوطن العربي، ومن يدعون ضدها.

وتمضي الستينات لتشهد أعنف الهزائم العسكرية قاطبة تأتي من

الوحدة العربية

المعسكر الغربى بصنيعته إسرائيل، وتنفرد حبات المسبحة أكثر فى السبعينات التى تشهد تصاعد الصراع الدامى على لبنان، وتشهد مصر فض الاشتباك بين الجبهة المصرية والإسرائيلية عقب حرب أكتوبر، وتجهض انتصارات ٧٣ بعد مبادرة السادات بذهابه للقدس، ثم عقد مؤتمر كامب ديفيد، وينجم عن ذلك كله تراجع عن أفكار الحقبة القومية التى كان قد أرساها عبدالناصر على مدى عقدين من الزمان.

فى نهاية السبعينات تبدأ دعوة توفيق الحكيم بضرورة حياد مصر.

ولثلاثة أشهر بعد مارس ١٩٧٨ تفجر دعوته حواراً واسعاً بين المثقفين والصحفيين ورجال القانون لا يخرج المعنى الرئيسى فيها، عن دعوة عدد كبير من المشاركين بضرورة رفض دعوة القومية العربية، فى حين تصدى البعض الآخر لهذه الدعوة مع تحفظات لا تنفى الفكرة أو تؤكدھا، وقد طرح فى هذا الحوار إعادة النظر فى عديد من المفاهيم التى راح المشاركون يناقشونها - رغم بدايتها - بجدية شديدة ..

ورغم أن موضوع هذا الحوار لا يهمنا هنا فإن اقترابنا منه سوف يقتصر على قضية واحدة من القضايا الكثيرة التى طرحت فى ذلك الوقت، ونقصد بها قضية حياد مصر أو علاقة الإقليمية بالوحدة، ومفهوم الوحدة.

المفهوم الأول:

أثيرت قضية الإقليمية في مصر،

وخطورة هذه الآثار أن من يشير إلى الإقليمية يرى أنها تتعارض مع الوحدة، فتاريخ مصر - على سبيل المثال - يؤكد، كما يردد البعض، أن علاقتها بنفسها أقوى من علاقتها بغيرها،

وقد راح بهاء الدين يتصدى لهذه الدعوى طيلة السبعينات، توقف عندها في بداية هذا العقد وتوقف عندها في نهايته..

ففي المرة الأولى راح يضرب أمثلة لاهتمام سوريا بحضاراتها القديمة وهو الاهتمام الذي نجده في العراق ومصر وغيرها. ففي كل هذه الأقطار من الآثار والاعتزاز القومي ما لا يلغى الاحساس بالوحدة العربية.

وقد بدأ فكرته من تجواله في عديد من هذه الأقطار للبرهنة على أن التاريخ القديم لا يلغى التاريخ الحديث. فعقده التاريخ القديم السابق على التاريخ العربي، وعدم الاعتزاز به، قد زالت. وهذه بوجه عام علامة نضج، وراح يتمهل عند مصر، فيقول. وحين تعزز مصر - مثلاً - بتاريخها الفرعوني، وتاريخها القبلي، وتاريخها الإسلامي، وتاريخ الحركة الوطنية المصرية، لا يتنافى هذا التراث عبر خمسة آلاف سنة، مع إدراكها لانتمائها العربي الماضي، والحاضر والمستقبل، لأن كل أرض من حقها أن تعزز بما انبثت من تراث. وكل حضارة لا يؤذيها أن تتغذى من منابع شتى، وتنصهر من مواد ذات أصالة وغنى وعمق. (الأنوار اللبنانية ٣٠/٤ - المصور ٣٠/٤).

كان أحمد بهاء الدين يقف أمام تيار هادر يحاول أن يلغى دور مصر

العربى فى وطنها العربى فى مناخ كان الحديث فيه بشكل مستمر عن (إقليمية مصر) لا يخلو من ريبة، إذ بدأت الصحافة الأجنبية والعربية تتحدث عن اتجاه عزلة مصر، وتضرب الأمثلة بالمسرحية التى كانت تعرض فى ذلك الوقت بالقاهرة (ياسين ولدى)، فمثل هذا العرض يعزف نغمة حب لمصر ولتاريخها لكنه لا يلغى حب التوجه القومى وضرورته.

وحين ارتفعت نغمة حياد مصر فى نهاية السبعينات، كان لابد لكاتب عربى واع مثل أحمد بهاء الدين أن يعود ليواجه قدره، وهو الحديث فى البدهيات، أن يحاول أن يحل طلاسم سوء النية أو السذاجة التى تعرضت لها مصر، وربما كان وقوفه عند (الثابت) و(المتغير) فى خضم الأحداث هو ما أراد أن يبرهن به على أن الثابت دائماً هو الانتماء العربى، وراح يعجب من عدد كبير من المفكرين والمثقفين حينئذ، فخرج مصر الفرعونية من تحت انتماء مصر العربية إنما يظل من أهم طموحات «قوى عالمية كبرى تريد بغير شك أن ترى مصر، وقد خرجت من العالم العربى. فهذا بمثابة إخراج (المحرك) من السيارة، (الأهرام ٢٢/٤/١٩٧٨)

وقد راح يفصل كثيراً فى بواعث الخلط بين الثابت والمتغير: فانتماء مصر ليس ثوباً تلبسه فى عام لتخلعه فى عام آخر، كما يجب التفرقة بين خلافات الحكام والشعوب.

ولعدة أشهر بعد ذلك، حاول تأكيد هذه الفكرة. أن لا فارق بين الإقليمية والوحدة، وراح يعيد عناصر الوحدة، حتى إذا ما وصل إلى من يتحدثون عن العرقية دلالة للحديث عن الإقليمية، راح يفندها، فالأصول العرقية الواحدة لا يمكن التعويل عليها اليوم، ومحاولة إثبات أن المصريين سلالة

الفراعنية يظل حديثاً غير وارد في أى بلد. (الأهرام ٧ مايو ١٩٧٨)

مستعيداً للمرة العاشرة - ربما - أهم عناصر الوحدة من وحدة التراث وتشابه التكوين النفسى ووحدة اللغة ثم الجغرافيا والمصلحة ووحدة الآمال ليصل من كل هذا إلى الانتماء الأول وهو المشاعر أو وحدة الروح.

والتناظر بين الحالات يبرهن عند بهاء الدين على انتفاء خطر الإقليمية على الوحدة.

وهذا التناظر لا يتوقف عند القطر والقومية، وإنما يمكن رصده داخل كل قطر.

فمن السهل العثور داخل كل قطر على أكثر من قطب فى الدائرة الواسعة، تعمل على تجانس المساحات بين أجزاء الدائرة لا تنافرها.

وقد راح فى هذا يضرب مثلاً بعلاقة النوبيين بالوطن الأم فى مصر، فقد جاء وقت كانت مصر تبنى السد العالى، وكان لابد من ترحيل النوبيين عن أوطانهم الأولى توطئة لتنفيذ إحدى مراحل السد بإغراق أراضيهم، فذهبت بعثة من الإذاعة المصرية لتسجل الأغاني الفلكلورية الشعبية النوبية الخاصة للحفاظ عليها كتراث، وحين تأهبت البعثة للتسجيل فوجئت أن أهالى النوبة يغنون وينشدون الأغاني التى تبث من إذاعة القاهرة..

ويقص بهاء الدين بتأثر شديد هذا المشهد الذى عاشه بنفسه فى أسوان، ويروى كيف بذل الحاضرون جهوداً لإقناع النوبيين بتذكر أغانيهم الفلكلورية الأولى، ونقل المحلى للتاريخ، وهو يتوقف عند هذه الحادثة ليبرهن بها على أن المحلى لا يلغى القطرى، كما أن القطرى لا يلغى

القومى، بل على العكس من الممكن أن يثرى المحلى القطرى ويؤكد،

(Unesco Journal of World History, Volume XIV NO 1972)

وهو ما يؤدى إلى مفهوم الوحدة...

المفهوم الثانى

ورغم أنه يعدد أسباباً كثيرة للوحدة، فإن النغمة التى تتكرر كثيراً لديه هى أن من شروطها هذا الحس العاطفى الذى يقترب من المخزون التاريخى الثقافى أكثر منه مخزوناً وهمياً أو من قبيل الأساطيرة التى أشيعت فى ذلك الوقت فى نهاية الثمانينات، والتى ذهبت إلى أن الوحدة لا تعدو أكثر من فكرة أسطورية من هذه الأساطير..

إن القيم العليا العربية التراثية القديمة، وهذا الارتباط المعاصر بالهوية فى عالم تعمل فيه وسائل الإعلام بشكل متسارع يحول الإحساس بالوحدة إلى إحساس ثقافى خاص، وبذلك يصل إلى أن الوظيفة الثقافية لأى مجتمع يمكن أن تصون كيانه العام، وذلك بالتكيف مع العالم المتعدد الأبعاد والمساهمة - بالتبعية - فى الثقافة العالمية.

إنه يؤكد أن العرب فى حاجة إلى الانتماء الثقافى للحضارة الإنسانية حولهم، وكلما كانوا أكثر قرباً من هذا المفهوم كانوا أكثر قرباً من الوحدة الثقافية العربية.

فكما أنه لا يجب أن ينفصل الإحساس المحلى بالإحساس القطرى، وكما

أنه لا يجب أن ينفصل الإقليمى عن القومى، كذلك يجب ألا ينفصل الإحساس الثقافى العربى عن الإحساس العالمى..

وبذلك، فكلما كانت الوحدة الثقافية متينة الجذور فى الأرض العربية، كان تطويعها فى إطار ثقافة عالمية أقرب إلى تحديد (الهوية) الثقافية بدون عقد أو بواعث سلبية.

أضاف إلى ذلك كله أن قضية الوحدة العربية الآن أصبحت تحتل مكانة بارزة بين التطلعات الوطنية عند العرب على الرغم من أن كل الصراعات والتيارات المختلفة تفعل العكس.

إذ أن أهم ما يدفع إلى تأكيد هذه الوحدة واستمرارها تظل حالة الوحدة الثقافية الشاملة، وهى تعكس وحدة سياسية تحميمهم من الانفصال والتفريق والخسران خلال مرحلة التوافق والافتراق.

وفى الدراسة التى أعدها أحمد بهاء الدين لليونسكو، راح يؤكد فى جزء كبير منها على نقاط القوة فى الوحدة الثقافية، فهذا الشعور يمنح نقطة بدء يمكن أن يكون العرب عندها قادرين على التعامل مع العالم وقيمه المتغيرة.

ومما يساعد العرب فى هذا السبيل - أيا كانت الخلافات، وأيا كانت المشكلات السياسية أو الاقتصادية - أن الوحدة الثقافية فيما بينهم تظل أقوى من أى وحدة أو علاقات اجتماعية أخرى، فهى أكثر الروابط رسوخاً، وهو لذلك يضرب مثلاً دالاً. ففى أوروبا إذا ما سئل فرد عن أعظم الشعراء أو الروائيين أو الكتاب، فإن البريطانى يمكن أن يذكر شكسبير، فى حين يذكر

الفرنسي فيكتور هوجو، والألماني جوته، أما العربي فهو يذكر - أيا كان موقعه الجغرافي أو السياسي - أبو العلاء المعري والمتنبي وأحمد شوقي، وغيرهم، حتى في العصور الحديثة حيث تطورت القصيدة الكلاسيكية مثل أى شئ آخر، فإن المرجعية الثقافية لا تخرج عن قيم وتقاليد ثقافية محددة موحدة، وهو ما يجعلنا نرى أن محمود تيمور ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم كتابا مصريون وعرب معاً ..

والملاحظ أن الكتاب والأكاديميين حين يتحدثون عن التطور التاريخي لا يذكرون، في معرض الحديث عن الوحدة العربية، العلاقة الأكيدة بين مجموعات القوى السياسية والأحزاب الحكومية، وبين هذه الوحدة الثقافية التي تجمع هذا الوطن العربي ..

وكان أحمد بهاء الدين يستشرف أثر هزائم كثيرة مثل أزمة الخليج قبل مرضه .

فيشير في هذا الصدد، إلى أنه إذا كان الماضي قد وحد العرب في دولة أو إمبراطورية ضخمة، فإن المستقبل يفعل ذلك أيضاً، كيف؟ بالوحدة الثقافية، والمستقبل يتشكل بهذا العامل ويظل رهيناً به، فمهما تكن الخلافات أو درجات التخلف، فإن الوحدة الثقافية تظل هي الوحدة التي تواجه أى تحد آخر ..

وسوف نعود مرة أخرى إلى قضية الوحدة الثقافية في نهاية هذا الفصل حين نعاود التمهّل عند أفكار برنارد لويس في محاولة تمرير أفكار هدامة ضد الوجود العربي الذي كان قد اهتز بعنف اثر أزمة الخليج الثانية .

لنصل الآن إلى القصور في تجربة الوحدة العربية خلال توقفه عند تجاربها، ولنخرج من التصورات إلى الواقع الحى .

(٤)

من متابعة موقف أحمد بهاء الدين من المشروعات الوحدوية فى الستينات، مروراً بتطورات السبعينات والثمانينات نستطيع أن نلاحظ فى كتاباته، التى جاءت فى معظمها ميدانية، بواعث فشل هذه المشروعات وقصورها عن تحقيق أهدافها .

ويمكن الوصول إلى عدة نقاط تمثل القصور الذى أصيبت به التجارب الوحدوية أو الأفكار العربية فى هذا الطريق، وأهم هذه النقاط:

- مسئولية النخبة الحاكمة
- تراجع قيم الديمقراطية والنشريع
- الدور السلبي للبترول
- تناقض خطط التنمية
- الدور الخارجى

وسوف نفصل كل نقطة على حده

* * *

من أهم النقاط التى تحول دون اتمام الوحدة ،تناقض مصالح النخبة

الحاكمة مع عملية التوحيد السياسى،، وهو ما يحول بين أحلام هذه النخب وبين تحقيق امتيازاتها، واستمرارها.

هذا إلى جانب الخلافات بين الأنظمة العربية، وهى خلافات تعكس الآثار السلبية التى تنتهى إليها أية تجربة وحدوية.

وحين رصد أهم الشروط التى يجب أن تكون فى الحاكم العربى ليكون وحدوياً راح يحدد أن هناك حاكماً وحدوياً وحاكماً انفصالياً، والحاكم أو الحكم الوحدوى هو الذى ينمى العوامل والظروف التى تدعم الوحدة القومية، فى حين أن الانفصالى هو الذى يبحث عن أسباب الخلاف، وينقب عن المتناقضات التى تنقرض.. لكى يحاول أن ينمىها ويغذيها ويضخمها، حتى يقيم منها حواجز ضخمة تسد الأفق، . «أزمة اتفاقية الوحدة الثلاثية، ص ٢١)

وعلى ذلك، فإن الحكم الوحدوى هو الذى يسعى إلى القضاء على معوقات الوحدة مثل القضاء على الإقطاع، وتوحيد النظم التعليمية والثقافية، ثم الاتجاه إلى التخطيط الاقتصادى ويخلق مصلحة وحدوية مشتركة فى حروبه ضد الرجعية.

. أما الحاكم الانفصالى فهو الذى يفعل العكس.

ولأن الزمن زمن الانقلاب على الوحدة من عديد من الأقطار العربية، فقد راح بهاء الدين يذكر موقف حكومة سوريا الانفصالى ضد عبدالناصر، وهو نفس موقف حكومة سعود وحكومة حسين وحكومة عبدالكريم قاسم.. وغير ذلك.

وعلى ذلك فإن أولى المشكلات تظل قضية الحكم.

إذ أن أية نخبة في الأقطار العربية تسعى إلى الحاكم وتحاول الاستحواذ عليه وتفعل كل ما من شأنه الحفاظ عليه، فالخلاف بين الحكومات ليس إلا على منهج الحاكم في التعامل مع القضايا حوله، الخلاف بين الوحدة الثنائية والوحدة الثلاثية - وكنا قد عشنا تجاربهما بعد الوحدة مع سوريا أو بإضافة العراق مرة ثانية - بما يشير إلى أن الخلاف الأول كان حول تنظيم الحاكم نفسه. الحاكم القادر بقواه الذاتية، باستيعاب لقوى الشعب أن يجمع سوريا حوله، ويحول أمانيتها في الوحدة إلى حقائق. (٤٨).

وهذا الحاكم سواء أكان انفصالياً أو وحدوياً هو الذي يحدد طبيعة العمل السياسي العربي.

فحين يصبح العمل السياسي خلال (التنظيمات) موحداً يكون من شأنه أن يلقى في تيار الفكرة الواحدة، وقد تأكدت هذه الحقيقة بعد نشر نصوص اتفاقية الوحدة الثلاثية في ٢٧ أبريل ١٩٦٣.

ومن ثم، كشفت عن أهم حقيقة سياسية في هذا الخصوص، وهي أن المنظمات السياسية العربية سواء أكانت أحزاباً أو تنظيمات شعبية واسعة متأثرة في ظروفها بواقع التجزئة التي تريد الوحدة - أساساً - أن تقضى عليه. فكل حزب أو تنظيم شعبي له قاعدة أساسية في قطر من الأقطار..

ومعنى ذلك أننا حين نحقق الوحدة بين عدد من الأقطار العربية نصبح أمام احتمالين لا ثالث لهما:

إما أن تتوحد هذه المنظمات بصورة أو بأخرى.. وإما أن تبقى متعددة (٨٩).

إن التنظيم السياسى هو القادر على تنظيم الوحدة.

ولأن التنظيم السياسى يظل تابعاً لهذا الحزب أو ذاك، أو لهذا الحاكم أو غيره، فإنه من المستحيل أن تستمر فكرة الالتقاء الوجدوى، وبعد أن يسهب بهاء الدين عن التجارب الوجدوية فى العالم يعود ليؤكد أن وحدة العمل السياسى - انطلاقاً من الخلافات التى تمت فى اتفاقية الوحدة الثلاثية - يظل أهم العناصر فى تحقيق الوحدة.

إن اجتياز الخلافات السياسية بين الحكام، يظل أول العناصر التى تحقق الوحدة وتسعى إليها، وهوما يحرض به الشعوب على الحكام، فقد مضى زمن الاعتماد الكلى على النظم السياسية لتحقيق الوحدة، وجاء زمن العمل السياسى والاجتماعى الشعبى.

إن الحركات الشعبية أصبح عليها أن تتجاوز انغلاقها الحزبى على نفسها.. ذلك الانغلاق الذى قد تمليه ضرورات النضال ضد قوى حاكمة شرسة (٩٣).

وإذن، فإن تحقيق الوحدة عنده يظل مرهوناً بتحرر النظم السياسية فى كل بلد من أطماعها وأحلامها فى الحاكم.

وهو أمر يحتاج - للخلاص من أنانيته - قدراً كبيراً من التجرد وإنكار الذات والثقة بالنفس.

غير أن الطريق إليه لا بد أن يمر، في كل قطر، بتوحيد كل خلايا العمل السياسي لتتأهب في تنظيم واحد يكون قادراً على فرض إرادته في حالة الوحدة مع غيره، فحين نرتب عملية إيجاد الرابطة السياسية الشعبية بين الأقطار الثلاثة، نجد أن نقطة البدء هي أن توجد القوة السياسية بهذا الوصف أولاً في كل قطر، فإن تم هذا في مصر وسوريا والعراق فإن الخطوة الحتمية التالية هي إيجاد لقاء بين التنظيمات السياسية في الأقطار الثلاثة (٥٢).

وهذا يؤكد عنده أن الوحدة عن طريق اللقاء الجغرافي لا تكون على مستوى الوحدة عن طريق لقاء النخب والأحزاب في قيادة عربية موحدة.. إن الخلافات داخل كل حزب عربي أكبر من الخلافات بين كل حزب وحزب آخر داخل كل قطر، فإذا نجحنا في تأكيد الوحدة السياسية نكون قد وصلنا إلى تأكيد الوحدة العسكرية، ومن ثم، القيادات السياسية العامة بين الأقطار الثلاثة.

إن القوى السياسية على أعلى مستوى - هي (النخبة) أو (القوة التقليدية) التي تمثل حجر الزاوية في أي وحدة عربية، إذ يمكن أن تتفق الشعوب، لكن حين يأتي دور الحاكم نقف أمام الخطر الأول. (شرعية السلطة، ص/ص ١٠١ - ١٠٢). يقول:

«إذا اختلف حاكم مع حاكم آخر، أو حكومة أخرى على قضية سياسية ما، سرعان ما ينعكس هذا فوراً على القليل النادر من هذا النوع من الروابط العضوية.

إما أن تغلق الحدود، وإما أن تقلل المكاتب التجارية أو المعارض الصناعية لدى الدولتين المختلفتين.

وإما أن توضع القيود على حركة المواطنين.

وإما أن ... (شرعية السلطة، ص/ص ١٠١ - ١٠٢)

وفي مرة أخرى حين يقارن بين الوحدة الأوروبية والوحدة العربية، يسهب طويلاً في عوامل الوحدة التي لها مبرراتها وعناصرها في تاريخنا أكثر منهم، ومع ذلك، فتبنى الوحدة الأوروبية تم حثيثاً في حيث تتأخر الوحدة عندنا بشكل مستمر.

فكل مشروعاتنا في مجالات الاقتصاد وتسهيل الاتصال والانتقال وتنسيق الخطط وتكامل المشروعات، تحطمها دائماً على صخرة الخلافات السياسية، وبين نظم الحكم لا نظم الشعوب .. (شرعية، ص ٢١٩)

وما يقال عن الارتفاع بالأولويات في المشروع الأوروبي يتم أيضاً في المشروع الصهيوني على المستوى الإقليمي الإسرائيلي، بينما نحن، رغم كل الأخطار التي تحيق بنا، ما زلنا نغرق في مشكلات النخبة السياسية وتصوراتها عن نفسها، وتطلعاتها المحدودة.

وكما يحدث ذلك على مستوى النظم، يحدث على مستوى القيمة.

* * *

فتردى القيمة الديمقراطية والحرية وعدم وجود القيمة التشريعية يحول
بيننا وبين تحقيق الوحدة .

لقد زحرت كتابات أحمد بهاء الدين بافتقاد التنظيمات السياسية التي
تحقق الحرية في الاختيار، وانسحب هذا على الاتحاد الاشتراكي في مصر
بالقدر الذي انسحب على القوى السياسية في دمشق:الوحدويون
الاشتراكيون، البعثيون، القوميون العرب، الجبهة العربية المتحدة .

فرغم أن كل هذه التنظيمات تسعى إلى الوحدة، فإن الحرية السياسية
التي تتمتع بها مفقودة، رغم أن المشروع القومي ليس مشروعاً بين
حكومات بقدر ما هو اتفاق وتوحيد وجهات النظر بين التنظيمات
الديموقراطية .

بيد أن الملاحظ أن رؤية أحمد بهاء الدين لم تتركز طويلاً على البعد
الديموقراطي بشكل مباشر، لأن طبيعة الحكم في الأقطار الثلاثة في
الستينات - مصر وسوريا والعراق - كانت تفتقد كثيراً إلى الديمقراطية،
ومن هنا، فإن تركيزه الأول تحدد حول الجهاز التشريعي، وقد فصل وجهة
النظر التشريعية على هذا النحو:

«الجهاز التشريعي.. فهناك أكثر من احتمال، ففي حالة
الدولة البسيطة يتكون البرلمان القومي من أعضاء يمثلون
المناطق تبعاً لعدد سكانها، أما في الدولة المرحبة ذات
الأقاليم أو الولايات،، فالمسألة لا تكون عادة بهذه
البساطة، لأنه إلى جانب المصلحة المتساوية بحكم الواقع

الوحدة العربية

التاريخي الذي جعله «قطراً» له بعض الصفات الخاصة به ولو لمرحلة تاريخية معينة، وهذا الاعتبار يقتضى ألا يكون تمثيل الأقاليم المختلفة بالنسبة العددية وحدها، حتى لا يتمتع إقليم بأغلبية ساحقة بسبب نسبته العددية الكبيرة، أو يشعر إقليم بالغبين لأن تعداده السكاني قليل.. (أزمة اتفاقية، ص/ص ٣٨ - ٣٩).

ويحاول الوصول إلى توازن في دولة الوحدة، والمهمة التشريعية تحتاج لجهد، وفي الروابط التي تربط النظم في الأقطار الثلاثة ليس السياسية والعسكرية فقط، وإنما - أيضاً - الروابط الدستورية.

فالشكل الدستوري يظل أهم أشكال تحقيق وحدة صحيحة، والهيكل الذي لا بد أن تنفخ فيه الروح، وهو يقول: «لن ينفخ فيه الروح إلا العامل السياسي الديمقراطي، المتفتح لكل تفاعل، القادر على استيعاب كل تجربة.. وتصحيح كل خطأ، (أزمة، ص ٥٥)

فالقضية الأساسية عنده تظل تفاعل المنظمات السياسية الشعبية وعلى رأسها الشرط التشريعي اللازم للتقنين.

لقد كان حريصاً أشد الحرص على إيجاد البعد التشريعي لدولة الوحدة بعد أن يتم الموافقة على الوثيقة الثلاثية. يريد أن تعلن هذه الوثيقة عن نظام برلماني..

نظام يقوم على تعدد السلطات وموازنتها لبعضها البعض.

ولأن أحمد بهاء الدين كان رجل قانون بالثقافة والدراسة، فقد كان حرصه على الشكل الدستوري لدولة الوحدة يقوم على أهم الركائز التي تتيح لها البقاء والاستمرار.

* * *

ورغم أن أسعار النفط وصلت إلى أقصى حد لها عقب حرب ١٩٧٣، فإن كتابات بهاء الدين في الستينات كانت تولى البترول أهمية قصوى في تأكيد دولة الوحدة واستمرارها، ذلك لأن زيادة مداخيل قطر عن قطر آخر، وما يتبعه من ارتباطات داخلية وخارجية، يمكن أن يعمل على تضخيم النزعة القطرية كما حدث بالفعل في عديد من أقطار الخليج قبل غزو العراق للكويت ١٩٩٠ أو بعده.

كان ثمة إحساس طاغ بالفارق الاجتماعي بين الأقطار العربية.

ومن هنا فحين صدرت وثيقة الوحدة الثلاثية ٦٣ والسابقة ٥٨، راح يشير إلى أن الفارق بينهما ليس في السنوات، وإنما في الدروس والظروف، وراح يشدد بين هذا على الطابع الاجتماعي أو الثورة الاجتماعية التي جعلت الموافقين على الوحدة الثانية يدركون أن الاشتراكية هي الحل، ويستلهم بوجه خاص التجربة المصرية في الاشتراكية (٥٩).

وهو ما كان يشير - وإن بدا بشكل غير مباشر - إلى أن افتقار الاشتراكية في وقت تصل فيه أسعار البترول في دولة أخرى إلى أقصاها

إنما يمثل أهم معوقات التجربة ..

وهو السبب الذي دفعه ليطلق على العنصر الاقتصادي ممثلاً في
البترول عنصر القوة .

وفي الوقت نفسه يسميه ضمن عاصر القوى الناقصة ..

إنه يكتب في السبعينات بعنوان (العناصر الناقصة في القوة العربي)
فيعدد عناصر كثيرة، من بينها البترول، وإذا كانت دولة منظمة «الأوبك»،
أو منظمة الدول المصدرة للبترول قادرة على الفعل، فهي تظل مرهونة
بطبيعة هذا الفعل في كل قطر، فعناصر القوة موجودة بما فيها البترول
الذي يمثل نعمة ونقمة معاً .

فهو نعمة لاستثماراته الكبيرة، ونقمة لأحداث فارق بين الأقطار
العربية .

وفي الوقت نفسه يضع الدول الصغيرة في موضع الفريسة بالنسبة
للدول الكبرى .

وبهذا يكون قد وضع يده على أهم عناصر القوة (الناقصة) .

ولأن تجربة بهاء الدين متميزة لوجوده في أكثر من قطر عربي:
بالزيارة أو العمل، ونظرته الثاقب، فإنه استطاع أن يستشرف في السبعينات
أكثر من غير خطورة هذه القوة (البترول) .

بل يمكن بعد المراجعة المتأنية لكتاباتاته في هذه الحقبة أن نرى إلى أي

مدى استطاع أن يرى خطورة البترول في المصير الذي ستنتهي إليه القومية العربية في (عاصفة الصحراء) الأمريكية فيما بعد وحتى نهاية القرن العشرين.

إنه يكتب متنبئاً بكثير مما سيحدث، فيقول تحت عنوان (البترول والعرب والحرب العالمية الثالثة) مقالاً اضافياً مبيناً فيه كيف أصبحت حضارة العالم تعتمد على البترول، واستقى استنباطاته من الرئيس الأمريكي كارتر لخطورة أمريكا على الأقطار العربية، ثم سجل مقولة رجل أعمال أمريكي يبحث عن استثمار وسيولة مالية غير موجودة.

يقول الأمريكي:

(لا حل إلا أن تقوم حرب عالمية ثالثة)

ونحن نضيف ونسأل: ما حدث منذ صيف ١٩٩١ في تدمير الأقطار العربية مالياً وجغرافياً، ألم يكن هذا في حرب عالمية ثالثة؟ (جملة اعتراضية) .. ونعود إلى أحمد بهاء الدين.

لقد راح بهاء الدين يحلل طيلة الثمانينات بعد ذلك أثر البترول كقوة (ناقصة) في مسيرة القومية العربية، تفرق بين الأقطار العربية، وتزيد النزعة القطرية بشكل يحول بيننا وبين الفعل العربي المشترك، وينهى تحليله في إحدى مقالاته بسؤال يقول إنه لا مفر منه يفرضه على هذا النحو:

«ماذا يراود بنا نحن العرب، وقد تلجرت أرضنا بالبترول -

بنعمته ونقمته - في هذا العالم الرهيب - يجيب -
استنزاف مخزونهم، واستنزاف أموالهم، وإغراقهم في
ألف قضية ومشكلة.. لعشرين سنة على الأقل،.
(الأهرام ١/٥/١٩٨٧).

أليس ذلك ما حدث بالفعل وما سوف يحدث فيما بعد

* * *

ويرتبط العامل الاقتصادي الخاص بالبترول عامل آخر يتعلق بتفاوت
درجات التنمية الاقتصادية وخطط التطور الاقتصادي في إطار خط عربي
شامل.

فمن الملاحظ أن هذا التناقض بين خطط التنمية حالت منذ فترة
مبكرة بين الوحدة للأقطار الثلاثة: مصر وسوريا والعراق.
كما أنها حالت بينها وبين ذلك طيلة السبعينات والثمانينات.
وقد تنبه بهاء الدين لهذا أثناء الوحدة الثلاثية منذ بداية الستينات، فكتب
يقول عن الفرق بين الأقطار الثلاثة ما يلي:

«مصر اتجهت منذ سنة ٥٧ على الأقل نحو جهد قومي شامل
للتصنيع تحشد له إمكانياتها، وتأخذ لهذا الجهد متطلباته من
سياسة نقدية وقيود على الاستيراد وتخطيط وتوجيه. وقد
خلقت هذه السياسة واقعاً جديداً في مصر، يتمثل في نمو

انتاجها الصناعي واستكفائها الذاتي في معظم السلع، وقدرتها
المزاييدة على التصدير.

أما سوريا فالزراعة فيها في نمو مطرد منذ نهاية الحرب
العالمية الثانية. وقد تهيأت فيها الظروف خلال الوحدة للأخذ
بخطّة تنمية زراعية وصناعية شاملة، ثم توقفت في عهد
الانفصال..

أما في العراق فقد أطرّد إهمال الانتاج خلال حكم العرش
وحكم عبدالكريم قاسم. فالانتاج الزراعي يضمحل بدلاً من
أن يزيد، واعتماد البلاد على الاستيراد الذي يسدّد بأموال
البترول يتفاهم. وصادرات البلاد لا تزيد على سبعة مليون
دينار.. بينما وارداتها تبلغ حوالى المائة والعشرين مليون
دينار. (أزمة، ص ٣١).

وقد أثبتت خطط التنمية التي طبقت في الوطن العربي خلال الحقبة
التي تقع بين الثلاثينات والستينات أنها انطلقت بمعزل عن بعضها، وهي لا
تحمل اتجاهات مواتية لقيام أوأصر كافية لتطوير التعامل والتلاحم بين
الاقتصادات العربية بل إن هذه الحركات الإنمائية بالعكس تحمل اتجاهات
مضادة منافية للتكامل الاقتصادي الجماعي بين الأقطار العربية من ناحية
واتجاهات أخرى تدفع بالاقتصادات القطرية نحو المزيد من الارتباط التبعية
بالقوى الاقتصادية الخارجية من ناحية ثانية،

وهو ما أسهب حوله محمد شقير في كتاب (الوحدة الاقتصادية

الوحدة العربية

العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ص / ص ٢٨٨ - ٢٨٩).
وقد زاد من هذا التناقض التنامي بين الأقطار العربية الأحداث الدامية
التي زادت في الثمانينات إبان أزمة الخليج الأولى، ثم أزمة الخليج الثانية.
كما تفاقم من ذلك اتجاه الأقطار العربية إلى المحاور لاتباع سياسات
اقتصادية في الأساس الأول تستلهم مصالح كل محور، فقام مجلس
التعاون الخليجي والعربي والمغاربي.. وما إلى ذلك..

لقد بدا الصراع الاقتصادي هو الذي يصنع الواقع اليومي في الوطن
العربي، فتنبه إليه بهاء الدين، وراح يهاجم هذه المجالس بشكل خاص،
ويأسى للواقع العربي في غيبة مخطط عربي للتنمية يواجه الصراع
السياسي والاستعماري الآتي إلينا - ولنا - من خارج المنطقة العربية.

* * *

ومن يراجع كتابه الأول (النقطة الرابعة) يلاحظ دور الولايات المتحدة
من الأقطار العربية.

وبوجه خاص من قضية فلسطين.

وهو دور ينحاز لإسرائيل في صراع الحرب الباردة والمصالح الغربية..
ومن يراجع كتاباته كلها يلاحظ دور العالم الغربي كله - فضلاً عن
أمريكا - من القضية العربية، فإسرائيل أيضاً، ولمصالح استعمارية في
عصر الحرب الباردة ضد الإرادة العربية الموحدة.

وقد تنبه بهاء الدين إلى هذه (الأخطار) في تجربة الوحدة الأولى بين مصر وسوريا، وراح يردد لها طيلة النصف الأول من الستينات.

وقد قسم الأخطار التي تحيق بدولة الوحدة العربية إلى ثلاثة، أهمها الأخطار الخارجية:

الاستعمار،

وإسرائيل،

والحرب الدولية الدولية الباردة.

وقد راح يؤكد مما يمكن أن ينسحب على المنطقة العربية حتى الآن أن الاستعمار لا يمكن أن يغمض له جفن، وهو يرى الكتلة العربية المتحررة.. ومصالح الاستعمار البترولية والتجارية والاستراتيجية ليست بالطبع مقصودة لذاتها ولكنها مرتبطة بالتوازن الدولي والحرب الباردة. وهي اعتبارات سوف تستمر زمناً طويلاً. ومصالحه البترولية ليست في مجرد وصول البترول إليه، لأن الدول التي تنتج البترول لا تنتج له كثرته، ولكنها تنتج له كثرته، ولذلك لا خطر من انقطاعه عن دولة مستهلكة، إنما مصالح الاستعمار البترولية هي أيضاً في أنه يحصل على هذا البترول أحياناً بشروط أقرب إلى النهب، وأنه ما زال يرى بالعقلية القديمة أن خير ضمان للبترول هو أن تبقى المناطق المنتجة له متخلفة، ممزقة، راکعة على ركبتيها، تستجدي ثمن البترول بلهفة في آخر كل عام! والاستعمار حتى إذا اقتنع بأن الوحدة العربية أمر حتمي لا ريب فيه.. فهذا لا يجعله يعدل عن القيام بحرب تعطيل لهذه الوحدة على الأقل.

الوحدة العربية

ويضيف إلى الاستعمار إسرائيل والضجة التي تحدثها من آن لآخر ضد الأقطار العربية إما بالسلاح أو بالأقاويل المغرضة..

أما الخطر الثالث (لاحظ أنه يطلق كلمة خطر) هو الحرب الدولية الباردة، ذلك لأن القومية العربية كلما شقت لنفسها طريقاً لتطور فكرها وموقفها بعيداً عن الصراع بين الشرق والغرب لا تلبث أن تواجه ما يعوق محاولاتها.

والى جانب ذلك، فمن الملاحظ - سعى الدور الخارجى لإجهاض القومية، أن هذه القوى الخارجية تسعى للتأثير فى النخب الحاكمة سواء بادعاء الحماية أو بتأكيد خطر دولة عربية على أخرى أو الوقيعة بين الأقطار العربية. وهذا كله تعرف عليه الوطن العربى..

وفى نهاية السبعينات ينمو خاطر داخلى عند أحمد بهاء الدين مؤداه أن «العالم كله ضد.. الوحدة العربية» - وهو عنوان افتتاحية لمجلة العربى، تكررت فيما بعد - وهذا الخاطر يعلنه من منطلق أن يوضح لقومه، أن الوحدة العربية أخطر وأهم بكثير جداً مما يظن البعض، فهى ليست كلمات جميلة، ولا هدفاً سهلاً، ولا تتحقق باتفاقات هزيلة، ولا بقبلاط بين رؤساء الدول، وإنما هى تحتاج إلى نضال، وصبر، وعمل، ودهاء.

ولكن لماذا؟

يسأل ويسهب فى إجابة طويلة،

يرى فيها أن العالم على مر التاريخ كان يكره الكيانات الكبيرة لأنها تترك التوازن القائم، وتقلل من فعالية القوى القديمة، وأن التقسيم أو الإبقاء

على عوامل الانقسام أحد أهم الأسلحة التي تستخدم لتحقيق هذا الغرض في كل زمان ومكان.

وفي حين يسهب في عدد أغسطس من مجلة العربي في البرهنة على أننا نعيش الحرب الصليبية العاشرة، ويبرهن عليه من علاقاتنا بالآخرين.

فإنه يعود لتأكيد نفس المعنى، ولأكثر من مرة مؤكداً أن أوروبا القوية لم تكن لتريد أن ترى قط إلا عالماً عربياً ضعيفاً. ومع أن الظروف تغيرت، ولكن الرواسب لا تموت، وهو ما ينسحب لدى الغرب كله لا أوروبا فقط، وهو ما ندل عليه الأحداث التي شهدتها السنوات الأخيرة من الثمانينات التي راحت تؤكد على أن الحرب الباردة انتهت بسقوط العملاق الروسي، ولكنها بدأت في الوقت نفسه باستعادة الخطر الإسلامي لدى الغرب.

وبعيداً عن الاستطراد، يمكن العود إلى حرب الخليج الثانية، ونقرأ خطط الحلفاء وحتى ما تركه جنودهم في الصحراء، لتؤكد، أن الحرب الصليبية لم تنقض، وأن الخطر الأيديولوجي المتخيل في الإسلام يعاود الظهور في عيون الغرب للقضاء على الأمة العربية مرة أخرى.

في ضوء ذلك نستطيع أن نعيد التذكير بقصة صعود الوحدة العربية لنرى، إلى أي مدى يقف العالم كله للنيل منها،

ونستطيع تفسير أحداثاً كثيرة في حياتنا، كأن نستعيد - على سبيل المثال فقط - كيف أن رأس الحرية الغربية كانت تتجه إلى مصر أولاً.

فخلال ربع قرن أو يزيد كانت الحروب كلها تشن ضد مصر.

فهزيمة مصر، هو هزيمة المشروع العربي كله.

جوهر هذه الحروب التي شنت ضد مصر كانت - كما لاحظ منذ بداية السبعينات - أن تنظر مصر إلى الداخل فحسب. أن ينقطع سلك الكهرباء العربية المتصل من المحيط إلى الخليج في أحد (محولاته) الحساسة. (الأنوار ٣٠ أبريل - نيسان ١٩٧١).

وهو ما يصل بنا إلى استنتاجات أخيرة من واقع (شهادة) المثقف.

(٥)

إن أكثر ما يلفت النظر في المشروع القومي أننا لا نلتفت بما فيه الكفاية إليه، أو نعمل له بجهد دؤوب، بل نسعى للابتعاد عنه رغم حتميته.

في حين أن الآخرين - على العكس منا - يهتمون به كثيراً..

ونستطيع أن نستعيد تجارب الوحدة وفشلها منذ تحولت الحروب إلى عربية - عربية منذ الستينات، وحتى أصبحت الحرب عراقية أمريكية في بداية التسعينات، من فشل الوحدة الثنائية والثلاثية إلى فشل المحاور العربية والحرب بين الحلفاء والعرب والعرب.

في هذه الفترة الطويلة بين الستينات والتسعينات هددت القومية العربية أخطاراً كثيرة، وراحت محاولات عربية كثيرة تسعى للنيل منها. وظهر الكثير من أمثال أبا اييان قبل حرب الخليج، وأبرنارد لويس بعدها يبرهنون على انتهاء الحركة القومية العربية، وهم في ذلك، إنما يكملون ما بدأه

العرب ويهتبلون أية فرصة تسعى لتأكيد هذا القول.

بيد أن المدقق في صورة الأحداث يصل إلى اقتناع، آخر، مؤداه، أننا أكثر من غيرنا حرصاً على القضاء على القومية العربية.

في حين أن غيرنا أكثر منا فهماً لطبيعة بقاء هذه القومية.

وعلى سبيل المثال، فإن الشارع ابان حرب الخليج الأخيرة كان ينطلق - في تظاهراته واحتجاجاته الصامتة - من قضية أن القومية العربية حقيقة لا يمكن القضاء عليها سواء من أعداء عبدالناصر في الخمسينات، أو أعداء القومية من العرب أنفسهم كصدام حسين في التسعينات.

وفي الحرب الأخيرة نفسها لاحظ بيتر فيسي، مدير قسم الاستخبارات الدولية في شبكة CNN الأمريكية أن وجهات النظر التي عرضت بهذا الشبكة من زعماء المنطقة أو غيرهم، كانت تنطلق أساساً من إطار فكرة القومية العربية بدلاً من أن تكون ببساطة في إطار ديني. (وكالة الإعلام الأمريكية، واشنطن ٢٧ أغسطس ١٩٩١).

وثمة مثال أكثر دلالة من هذا كله وأبعد فهماً لواقع القومية العربية في عيون أعدائها، ونقصد به، موقف الحكومة الأمريكية نفسها.

فرغم أن مؤرخاً أمريكياً من أصول يهودية يتحدث بعد أزمة الخليج عن انتهاء الحلم بالوحدة وتفكك الكتلة العربية السياسية المتعاسكة، فإنه يستدرك أن ذلك يبدو قولاً متسرعاً إذا فهمناه على إطلاقه، وذلك لأن العديد من الأمور التي أدت إلى ظهورها في المقام الأول ما زالت موجودة.

مستدركا أيضاً أنها ما زالت حية في أوساط بعض جماعات المثقفين، وعديد من شرائح المتعلمين العرب.

وإذا تركنا أستاذ جامعة برنستون الأمريكية، لراعنا أن الإدارة الأمريكية نفسها ما زالت تتعامل مع العرب في هذا الإطار القومي العربي، رغم أنها كانت من أكثر القوى المعادية لنا.

وعلى ذلك فإن التصور الذي أشار إليه أحمد بهاء الدين أو نقاط القصور في المشروع القومي هو ما يجب العود إليه ثانية، لمحاولة فهمه في إطار الأحداث الأخيرة، وحينئذ، سوف يكون علينا إعادة النظر إلى نقاط القصور التي أشار إليها بهاء الدين وإعادة رؤيتها كما يلي:

١ - محاولة إسقاط النخب الحاكمة المعادية للتوحيد.

٢ - النضال من أجل الديمقراطية.

٣ - إعادة النظر إلى البترول والتنمية الاقتصادية.

٤ - إعادة النظر إلى العامل الخارجى في إطار النظام العالمى (الأمريكى) الجديد.

فإذا حدث ذلك، فلن نعاود طرح السؤال الذى طرحه أحمد بهاء الدين منذ قرابة خمسة عشر عاماً (ماذا يراد بنا نحن العرب؟)

فالإجابة طرحت.

وتأخرنا كثيراً في فهمها.

ويكون علينا أن نحاول السؤال الآن ونحاول الإجابة عليه من جديد.

ثانياً

قضية فلسطين

اقترح أحمد بهاء الدين
لإقامة دولة فلسطينية عام ١٩٦٧
كان أسبق مما حدث
فى أوصلو ومدريد فيما بعد،
وأكثر مما حصل عليه الفلسطينيون
حتى الآن.

كانت المقاومة الفلسطينية أغلى قيمة عربية فى زمن ردى حاولت
حكومات عربية فيه المتاجرة بها، وفى الوقت نفسه حاول بعض ممثليها
ارتكاب بعض التجاوزات والإساءة إليها..

وزهاء ربع قرن أويئف لم يتراجع بهاء الدين عن تأييده للقضية
الفلسطينية، بل قدم لها الاقتراحات والحلول القومية، ولم يثنه اعتراض
بعض الحكومات على ما يقدم.

فحين قدم اقتراحه المعروف فى نهاية العام ٦٧ بإقامة دولة فلسطينية،
أرسل إليه جمال عبدالناصر يستفسر:

- هل هناك شخص أو جبهة أو منظمة أوحى إليه بهذه الفكرة، وحين
رد بالنفى. جاءت الإجابة : «قد لا يكون هناك داع لمواصلة الدعوة إلى
قيام دولة فلسطينية.. فالموضوع ليس موجوداً أو مدرساً ولم يتخذ بشأنه

رأى نهائى. (المصور ١٢/١٩٨٨)

ومع ذلك، فإن بهاء الدين رفض التوقف عن الاقتراح، وأعلن أنه على مسؤوليته الشخصية وإذا أرادت الدولة - خلال بيان - مهاجمته فلتفعل..

ومهما يكن. فإن موقف بهاء الدين من هذه القضية يصعب تناوله في هذا الحيز، ومن ثم، سوف نسلك إليه طريقين، أحدهما:

خط أفقى، نرى فى مداه أفكاره عن القضية واقتراحاته لها.

ثم نعاود الطريق الآخر، لنتلقى عبر خط رأسى باتقى فى نقطة بالمتصل الأفقى، نرى فيه كيف يضيف التأييد للقضية الفلسطينية حق النقد فى حالة تهديدها بأى خطر..

الخط الأول: التعرف على موقفه من القضية

والخط الآخر: التطرق إلى موقفه النقدى

أولاً الموقف:

من المؤكد أن أحمد بهاء الدين كان أكثر أبناء جيله اهتماماً بالقضية الفلسطينية، إذ أنفق شبابه واهتماماته وقراءاته فى قضية فلسطين، وتمثل ذلك فى متابعته الدائبة للقضية، ربما منذ أصدر كتابه (النقطة الرابعة) عام ١٩٥١ راصداً الدور الأمريكى.

فأمريكا انقادت وراء مصلحة الرأسمالين اليهود فأرغمت العرب، ومنعت

قضية فلسطين

عنهم السلاح ليوقفوا عزلاً. وزودت إسرائيل بالأسلحة رغم قرار الحظر لتهجم .. (ص ٥٨).

ولم يتوقف بعد ذلك عن كشف هذا الدور، وإن كانت أهم جهوده بعد ذلك تقدم اقتراح لإقامة الدولة الفلسطينية. ولم تمض عدة أسابيع على هزيمة ١٩٦٧.

كان قد وصل إلى اقتناع مؤداه أن الحل الوحيد البعيد الأمد للصراع العربي الإسرائيلي ولل قضية الفلسطينية والممكن تحقيقه هو إقامة دولة فلسطينية، وحدد اقتراحه بأن «نقطة البدء البديهيّة والضرورية التي لا بد أن تدرس، بل وتقرر من الآن هي: أن تعود إلى الوجود دولة اسمها فلسطين!».

ومن المهم أن هذه الدولة عنده كانت تضم «الأردن، بالضفة الغربية للنهر والضفة الشرقية له، وتضم قطاع غزة.. أي تضم كل ما تبقى من فلسطين زائداً ما كان يسمى شرق الأردن واندماج في السنوات الماضية بفلسطين».

ولأن الشائع في ذلك الوقت - كان بين الفلسطينيين أيضاً - أن الدولة التي يجب أن تقام هي الدولة الديمقراطية العلمانية من النهر إلى البحر. فقد أسرع بهاء الدين لإرسال برقيات لعدد كبير من المفكرين الفلسطينيين من التيارات المختلفة طالباً منهم التعليق على هذا الموضوع رغم عدم رضا النظام في مصر عن ذلك.

وبالفعل استجاب له عدد هائل وأرسلوا تعليقاتهم. (منهم غسان كنفاني،

صبحى ياسين، كلوفيس مقصود، أنيس صايغ، بطرس عودة، إلياس سحاب، مارن البندك.. وغيرهم).

بعض هذه التعليقات يؤيد الاقتراح والبعض الآخر يرى أن التوقيت غير سليم على أساس أن الأرض المحتلة وخاصة الضفة الغربية كانت جزءاً من الأردن ومحترف بهذا الجزء، وأن مطالبة الأردن به قد تأتي بنتائج أسرع من البدء فى حديث عن دولة مستقلة من الضفة وغزة.

وقد التزم بهاء الدين بنشر كل التعليقات والردود فى المصور فى الأعداد التالية.

وما لبث أن علق عليها فى تحليل دقيق ومسهب فى آن واحد.

منتهياً بعد ذلك أن الدعوة يمكن أن تصدر عن مؤتمر القمة العربى.. وتصدر من السلطة المرشحة للحاكم باتفاق مع نفس المصدر اجراءات محددة.

كتحديد لدعوة مجلس تأسيسى من شعب الدولة الجديدة بعد فترة محددة من إزالة آثار عدوان ٥ يونيو.

وقانون يمنح كل فلسطينى حيثما كان حق الحصول فوراً على الجنسية الفلسطينية ولو بعد عشرين سنة.

وسواء عاد الفلسطينى أو بقى رعية فلسطينية ومقيماً فى بلد آخر..

وأن تعقد معاهدة دفاعية عسكرية بين الدولة الجديدة والدول العربية كافة، أو الدول المحيطة بها على الأقل.

قضية فلسطين

وبعد أن دعا المفكرين العرب والفلسطينيين لمناقشة القضية لم يلبث أن عاد من جديد ليبلور اقتراحه، ويرفض العلاقة السلبية بين الوحدة العربية وتحرير فلسطين - كما تخوف البعض - وراح يكتب تحت عنوان (الطريق إلى دولة فلسطين) تفسيراً ليطمئن به النفوس ويؤكد أن ما يطرحه هو رأيه الخاص ملمحاً إلى أنه لا ينتمي لنظام عربي ولا يميل إلى أى اتجاه فكري محدد.

وفى غبار المناقشات الكثيرة يكرن عليه أن يجلى بعض الأفكار الهامة ويعيد طرحها من جديد لئلا يعتقد البعض أنها من أساس أفكاره، لقد كرر أكثر من مرة أنه لا يختلف قط مع من يخلط بين موضوع تحرير فلسطين وتحقيق الوحدة العربية، فالقضيتان خارج دائرة البحث في هذا الجدل، إنما الوارد هو البحث عن أفكار محددة وفى مرحلة محددة (١٥٨).

فالحديث عن الأفكار النهائية دون التنبه إلى ظروف النكسة خروج عن الموضوع،

ولذلك، فهو فى استعادة الأفكار التى طرحت لا يرفض مقولات من مثل أن هدف إسرائيل هو ضرب الشعوب العربية وليس فلسطين فحسب، وبالتالي فالقضية هى قضية العرب جميعاً.

كما لا يرفض مقولة أن الوحدة العربية هى الحل.

كذلك لا يرفض أن «الحل هو المقاومة الفلسطينية المسلحة»، هذا كله لا ينكره، ويذكره، لكنه يعترف بأن الهدف المرحلى، الواقعى، هو إزالة آثار العدوان، ولهذا يجب، أولاً، تكريس الجهد لذلك ليحجى بعدها هدف مرحلى

آخر، هو هذا الاقتراح .. يقول:

« هذا الاقتراح بإقامة دولة فلسطينية، اقتراح يزعم لنفسه أنه ليس منفصلاً تماماً عن إزالة آثار العدوان . يمكن أن يكون قراراً معلناً ومكرساً من الآن، ويمكن أن يكون قراراً تالياً مباشرة لإزالة آثار العدوان .. اقتراح يزعم لنفسه أنه يضع العمل الفلسطيني والعربي على طريق جديد - ولكنه يديهي - من الآن، وأنه يملأ ساعة انجاز مهمة آثار العدوان بعمل إيجابي بدلاً من أن تكون مجرد ساحة لمسح الجراح، والتأمل الذي قد يقودنا إلى التجميد من جديد في أسار الخنادق القديمة العقيمة. » (١٦٠).

ويكون على بهاء الدين منذ فترة مبكرة من الوعي أن يدرك أن الاعتماد على الأقطار العربية (وأوضاعها شتى) أمر غير مضمون، كما أن الحديث عن (حكومة عموم فلسطين) تظل دعوة وهمية، وأيضاً، فإن الاعتماد على (منظمة) مسلحة ليس لها أرض يصبح أمراً خالياً من الجدية. ولا بد من الاعتراف أن أحمد بهاء الدين قد تنبه في هذا الوقت المبكر إلى سياسة إسرائيل التي سوف تسعى - فيما بعد - إلى القضاء على أية علامة (للأرض) أو آثار (للهوية).

أيضاً، فقد استطاع أن يستعيد في اقتراحاته ومناقشاته في ذلك الوقت عشرات من الردود التي جاءتته تعلن رفضها أو تحفظها.

في حين أن مراجعة عشرات الصفحات التي أنفق فيها بهاء أفكاره في

ذلك الوقت تؤكد أنها كانت سابقة لأوانها..

وهذا السبق لا يعود إلى رومانسية فيها، وإنما إلى واقعية لم يستطع معاصروه الهبوط إليها وتفهم قدر الوعي والصرامة الصائبة فيها.

وقد كان لابد أن يمضى وقت طويل قبل أن تعود منظمة التحرير الفلسطينية لتطالب به - بعد قرابة ثماني سنوات - ويصدر إعلان المجلس الفلسطيني بالجزائر مطالباً كذلك به - بعد عشرين عاماً .

واستكمالاً لذلك، لابد أن نسير عدة سنوات أخرى لنصل - عقب حرب الخليج - إلى واشنطن، فمديرد وأوسلو.. إلخ، لنلاحظ منظمة التحرير الفلسطينية تسعى للهدف القديم وتحقق حكم ذاتي جديد..

وهنا، نتمهل عند ملاحظتين هامتين، نستعيدهما من كتابات أحمد بهاء الدين واقتراحاته عن إقامة فلسطين ونحن نقتررب من مفاوضات واشنطن التي جرت فى عام ١٩٩٢: (أين نحن الآن من اقتراح بهاء الدين) ؟

وكى نتفهم ذلك جيداً لابد أن ننقل آخر فقرة جاءت فى اقتراح أحمد بهاء الدين .. وهذه الفقرة تقول:

«يجب أن تقوم دولة فلسطين، تضم ما احتل بعد ٥ يونيو بالإضافة إلى شرق الأردن، وتكون هى نقطة التجمع، والقاعدة والتعبير المباشر عن الإرادة.

يجب أن يستتبع ذلك إعادة شعب فلسطين، تدريجياً، والاختيار فى ظروف معقولة، إلى أرض فلسطين، أى

يجب أن يكون الفلسطينيون لفلسطين ، حتى تكون فلسطين للفلسطينيين .

يجب أن يتوقف تبعثر الطاقات الفلسطينية بحكم الضياع وعدم الهوية والمخيمات وأن يتحول الموج إلى إقامة وبقاء وتعليم وتدريب وتسليح .

يجب ألا تستمر الصورة السابقة : إسرائيل تحول مهاجريها إلى مواطنين ملتصقين بالأرض ، ونحن نحول أصحاب الأرض إلى مهاجرين .

هذا هو أول الطريق الحقيقي ، . (١٨١) .

وهنا نعود إلى الملاحظة / السؤال :

أين نحن الآن من اقتراح بها الدين ؟

إن مراجعة المقترحات التي تقدم بها الوفد الفلسطيني في المفاوضات التي جرت بواشنطن بعنوان (إطار اتفاق على الحكم الذاتي الفلسطيني) ، والتي دعا إليها هذا الوفد في الأرض المحتلة في الضفة الغربية وغزة .. هذه المقترحات تردد كل أفكار أحمد بهاء الدين ، وإن جاءت ، في طموحها ، أقل بكثير مما دعا إليه أو ارتد عنه نيتانياهو فيما بعد .

نحن لا نريد أن نستعيد كل هذه الأفكار ، فمجالها ليس هنا ، فضلاً عن أنها تحتاج إلى حيز كبير يخرج بنا من صميم العنوان ، بيد أننا يمكن أن نشير إلى بعض عنوانات جاءت فيها تعبر عن المضمون ، نقرأ :

- تطبيق القانون ٢٤٢ فى انتظار المفاوضات
- تنبثق الحكومة الذاتية الفلسطينية من انتخابات ومشاركة السكان (العرب) فى الأرض المحتلة بما فى ذلك النازحون والمبعدون ..
- تشمل صلاحية الحكومة الجديدة الأراضى التى احتلت عام ١٩٦٧ .
- الوقف الكامل لكل النشاطات الاستيطانية اليهودية وخضوع المستوطنين خلال الفترة الذاتية الانتقالية للأنظمة الفلسطينية .
- ضرورة عودة الفلسطينيين النازحين .
- الإشراف الدولى .

هذه عنوانات لبعض الأفكار الفلسطينية التى طرحت تحت أعين واشنطن، وقدمت فى الجولة تحت عدة تعديلات - كما قالت حنان عسراوي - ومع الأخذ فى الاعتبار بعض نواحي الاهتمام والمقترحات الإسرائيلية، وكالات الأنباء ٤،٣ سبتمبر ١٩٩٢) وتنتظر دورها فى جدول أعمال يعوزه الصبر والتفاوض المضنى، والتسويق الإسرائيلى ..

هذه بعض الأفكار التى قدمت، والتى سبق وأن أشار إليها أحمد بهاء الدين فى أواخر الستينات بما يضاف إليها تطويراً ذاتياً وقومياً عالياً. أضف إلى هذا أن بهاء الدين كان قد دعا فى اقتراحه - فى الجزء

الأخير منه - ما يفيد بضرورة أن يقوم اتحاد ما قد يأخذ شكلاً فيدرالياً بين الدولة الفلسطينية المقترحة والمملكة الأردنية الهاشمية للترابط الشديد بين الشعبين، خاصة، أنه من المعروف أن أكثر من نصف الشعب الأردني من أصول فلسطينية.

وحين وجد أحمد بهاء الدين رفضاً لاقتراحه على المستوى المصري والعربي، وراحت إسرائيل تختلق مناورات لإسقاطه، فرغ جهده إلى منظمة التحرير الفلسطينية، لم يجد غير القوى المسلحة لتحرير فلسطين على المدى البعيد.

بيد أنه لا الواقع العربي ولا منظمة التحرير كانا قادرين على شفاء ما ألم به من ألم وانتظار، فقد كان الواقع العربي يدخل في متاهات ومؤتمرات القمة، والخلافات العربية العربية، والمعارك الوهمية، في حين أن المقاومة كانت في النفق العربي المظلم تشغل كثيراً بالتخطيط المتخبط لعملياتها الحربية خارج إسرائيل، والشقاق بين أبناء المنظمة الواحدة وعالم البترودول الجديد.

الأكثر من هذا إيلاًماً أن قيادات العمل الفلسطيني كانت تضيق - شأنها شأن الحكومات العربية بالنقد البناء...

ومراجعة كتابات أحمد بهاء الدين في السنوات الأخيرة قبل سقوطه مريضاً، متأثراً، بما يجري في الواقع العربي.. كان قد وصل إلى حالة من الإحباط الشديد جعلته يصيح: «ليس أمام الكاتب العربي إزاء الأحداث الفاجعة التي تدور في العالم العربي، إلا أن يقتحى عن مسؤوليته». (أهرام ٣/٤/١٩٧٨).

ثم راح يصيح إزاء تفرق العرب وتشرذهم:

«بأى وجه نلقى العالم.

وبأى وجه نواجه القامر علينا.

وهذا الذى يحدث مستمر ومتفاقم،

ومع ذلك، لم يفقد أمله قط فى العمل الفدائى الفلسطينى، ومن هنا،

ورغم عدم رضا بعض القيادات الفلسطينية، بدأ يوجه النقد لبعض

المنظمات التى تسعى إلى العمل الفلسطينى أكثر مما تفجده...

وهو ما سنتمهل عنده أكثر..(*)

(*) تتضمن المقترحات الجديدة التى قدمها الوفد الفلسطينى إلى الإسرائيليين تحت عنوان (إطار اتفاق على الحكم الذاتى الفلسطينى خلال المرحلة الانتقالية) فى الأراض المحتلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة النقاط الآتية:

- تشكل المرحلة الانتقالية خطوة أولية لتطبيق القرار الدولى الرقم ٢٤٢ فى انتظار

المفاوضات التى ستتيح للشعب الفلسطينى ممارسة حقه فى تقرير المصير.

- الانتخابات: تتبثق الحكومة الذاتية الفلسطينية من انتخابات ديموقراطية حرة

ومباشرة وبإشراف دولى وبمشاركة السكان (العرب) فى الأراضى المحتلة بما فى ذلك النازحون والمبعدون الذين يجب إعادتهم إلى وطنهم والمعتقلون الذين يجب الإفراج عنهم.

- يجب أن تشمل صلاحيات الحكومة الذاتية كل الأراض التى احتلت فى العام

١٩٦٧ وتشمل أيضاً السيطرة المطلقة على الأرض والمياه والثروات الطبيعية والاقتصاد -

ثانياً: النقد

كان أول من تنبه إلى خطورة التشاحن بين الفلسطينيين، أو استخدام العمل الفدائي ذريعة لتصفية الحسابات أو ضرب التنظيمات الفلسطينية كما رأينا في الحقبة الأخيرة.

وكانت التنظيمات الفلسطينية قد تشطت في العمل مرة أخرى عقب هزيمة ١٩٦٧، ولم يمضى شهر على هزيمة ١٩٦٧،

وقد انعكس هذا النشاط في القيام بالعمليات المسلحة داخل الأراضي المحتلة والتصدي لحركة العدو الصهيوني داخل هذه الأرض.

في ذلك الوقت برزت ظاهرة التصدي للعدو الصهيوني خارج الأرض

= ونقاط العبور في الأراضي المحتلة.

- يجب حل الإدارة العسكرية الإسرائيلية وإعادة انتشار الجيش الإسرائيلي في مناطق يتم الاتفاق عليها.

القدس: يجب أن تطبق إجراءات المرحلة الانتقالية على المدينة المقدسة التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من الأراضي الفلسطينية المحتلة طبقاً للقرار ٢٤٢.

- ضرورة الوقف الفوري والشامل لكل النشاطات الاسيطانية وخضوع المستوطنين خلال الفترة الانتقالية للقوانين والأنظمة الفلسطينية.

- يجب مراعاة المصالح الأمنية للطرفين الفلسطيني والإسرائيلي على أن تقع مسئولية الأمن الداخلي ضمن اختصاص السلطات الفلسطينية وحدها من دون أي تدخل من الجانب الإسرائيلي.

- ضرورة عودة الفلسطينيين النازحين والمبعدين وأبنائهم إلى الأراضي كى -

قضية فلسطين

المحتلة، في أى مكان في الكرة الأرضية يكون للإسرائيليين نشاط فيه.

ومن هنا، تصاعدت في السنوات الأخيرة لهزيمة ٦٧ عمليات من قبيل حوادث خطف الطائرات وإلقاء القنابل في المطارات وانفجار الطائرات في الجو وأعلى الأرض، وحريق المعابد اليهودية.. وما إلى ذلك.

ومع أن هذه العمليات وجدت تشجيعاً لها من بعض المناصرين للحق العربي، فإنها راحت تثير كثيراً من الإدانات التي يمكن أن تسئ إلى العمل الفدائي نفسه أكثر مما تفيده.

كانت هذه الإدانات يضخم منها الإسرائيليون أنفسهم أو بعض المؤسسات التي تجد أن الاعتداء على بعض الأفراد أو الأطفال من غير اليهود مما ينال من العامل الإنساني بشكل عام..

— يمارسوا حقهم في الترشيح والانتخاب.

— الإشراف الدولي :

ضرورة تشكيل لجنة دولية مؤلفة من ممثلين عن الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة (الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والصين وروسيا) وعن الأمين العام للأمم المتحدة وعن الحكم الذاتي الفلسطيني والأردن وسوريا ومصر وإسرائيل للإشراف على المرحلة الانتقالية للحكم الذاتي وضمان تنفيذه.

— الجدول الزمني للتطبيق:

يتعهد الطرفان التوصل إلى اتفاق على المرحلة الانتقالية في فترة لا تزيد عن ثلاثة أشهر وأن تبدأ مفاوضات الوضع النهائي في موعد لا يتجاوز ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٤. وذلك لضمان التقيد بالإطار الزمني الذي حددته رسائل الدعوة إلى مؤتمر مدريد. ومضت سنوات وما زالت حكومات إسرائيل تماطل..

وفي الوقت الذي راحت فيه هذه العمليات تتزايد، ويتزايد معها بعض ردود الأفعال المضادة، كان أحمد بهاء الدين من بين أكثر المعارضين لها، على اعتبار أن سلباتها أكثر من إيجابياتها..

وقبل أن نعرض لرد فعل أحمد بهاء الدين وموقف بعض جماعات الفدائيين الفلسطينيين منه، لابد أن نشير إلى ملاسبات هذه الفترة.

(٢)

كانت الأعمال الفدائية، منذ عادت إلى فرض أسلوب المواجهة المسلحة عقب هزيمة ٦٧ (في ١٩٦٧/٧/٢٨) تشهد أن أكثر صور التمثيل لها خارج الأرض المحتلة تمارسه جبهة النضال الشعبي.

فمن هي هذه الجبهة أو هذا التنظيم؟

تنتمي (جبهة النضال الشعبي الفلسطيني) في نشأتها إلى اللجنة المركزية،

وتعود هذه النشأة إلى فلسطين المحتلة بشكل عام،

ثم امتدت إلى الضفة الشرقية في الأردن، فعدد من الأقطار العربية والعالمية.

بدأت داخل الأرض المحتلة وانتشرت في العالم كله.

وقد تحدد خطها الرئيسي في الثورة المسلحة، وقد حددت نشرة تصدر عن الجبهة في ١٦ / ١٧ نوفمبر ١٩٦٩ هذا الخط بالعنف.

بعد أن أصبح التناقض الحاد المصيرى القائم لا يمكن حسمه إلا من فوهات البنادق.

ورغم أننا نجد في أوراق الجبهة وأخبار مجلس قيادتها العسكرية عديداً من الأفكار التي تتحدث عن الديمقراطية والوحدة الوطنية وعلاقة النضال الفلسطيني بالنضال العربى، فإنه من الواضح أن وقوع الضفة الغربية وقطاع غزة بعد حرب ٦٧ تحت الاحتلال كان له من الأثر بحيث استبدل عناصر هذه الجبهة دعواتها السياسية والحركة المسلحة، وعملياتها داخل الأراضي العربية المحتلة بعمليات أقسى وأعنف في العالم أجمع ضد المصالح الإسرائيلية.

ويمكن أن نلاحظ هذا في هذه المواقف العملية.

وهو ما ترجم عنه مشروع الميثاق التي أصدرته الجبهة في ذلك الوقت، ربه فقرة تلخص هذا الموقف، فنقول:

«من حق الثورة الفلسطينية ومن واجبها أن توجه ضرباتها للصهيونية العالمية أينما وجدت سواء في فلسطين أو في أية أرض عربية، من أجل توسيع الكفاح وتشثيت قوى العدو».

وهذا يعنى - كما تردد في أدبياتها - ضرورة السعى لضرب المصالح (الإمبريالية والصهيونية) في أى مكان في العالم، وبدون تردد بهدف عسكرى هو المواجهة العسكرية.

وقد عبرت الجبهة عن فلسفتها في عديد من هذه العمليات التي لقيت استياءاً كبيراً في العواصم الكبرى.

كان يصاب فيها شيخ أو طفل أو امرأة يتواجد أى منهم فى منطقة
الهجوم..

وقد كانت أكثر هذه العمليات شهره فى ذلك الوقت (عملية أثينا)
لنسف مقر شركة الطيران الاسرائيلية هناك مما أدى الى إصابة أربعة عشر
شخصاً بجراح وإصابة عدد هائل، كان فى مقدمتهم قتل طفل يونانى وفقد
طفل يونانى آخر لبصره مدى الحياة، وكان ذلك حلقة من سلسلة طويلة
أصيب فيها عدد كبير من الركاب الاسرائيليين بالمطارات وعشرات الأطفال
أو الرجال العزل أو الضعفاء من غير الإسرائيليين.

وكان من المنطقى أن تستغل الجهات الصهيونية أو الجهات المتعاطفة
معها هذه الحالات الإنسانية غير المقصودة لتشن حملات ضد العمل
الفدائى بقصد تشويهه والدليل منه ..

وشغلت الصحف والإذاعات الغربية بمثل هذه الاحداث، الذى كان
التركيز فيها على الجانب الانسانى الراهن، دون ربط ذلك بالمرجعية التى
يمكن أن نرصد بواعثها الأولى فى فلسطين المحتلة، حين كانت المذابح
الاسرائيلية تدار فى محرقة الارهابيين الاسرائيليين، وحين كانت الوحشية
الاسرائيلية -ومازال- تقترب ضد المدنيين الفلسطينيين داخل الارض
الفلسطينية أو العربية التى احتلت بعد ١٩٦٧ . (انظر الملحق)

وهنا كان بهاء الدين أول من تنبه إلى خطورة العمل الفدائى بهذا الشكل
على القضية الفلسطينية بوجه عام، فلم يتردد فى أن يكتب مشيراً إلى
خطورة رد الفعل غير المحسوب..

لم يكن يختلف مع الجبهة على الغاية، إنما كان الاختلاف الرئيسى حول الأسلوب فقط .

وهو اختلاف يبرره انتماؤه الوجدانى إلى العمل الفدائى وإيثاره له فى هذه الفترة...

وتوالى ردود فعل الكاتب المصرى .

(٣)

كان أحمد بهاء الدين فى مقدمة الكتاب الصحفيين المصريين القلائل الذين شادروا مكاتبهم إلى الأرض العربية التى يحارب فيها الفدائيون الفلسطينيون مغادراً مكان (الكاتب الجالس القرفصاء) ، وهو الاسم الذى أطلقه هو على نفسه وعلى غيرى من الكتاب الصحفيين حين يطول بهم المكوث فى المكاتب .

والفترة التى تلى شهر الهزيمة - يونيو ٦٧ - كتب كثيراً عن (وقفة بين الفدائيين) إذ ذهب لأكثر من مرة إلى عمان ليلتقى بهؤلاء الفلسطينيين الذين يضحون بحياتهم من أجل وطنهم .

والواقع أن الفدائيين الفلسطينيين عند بهاء الدين فى ذلك الوقت كانوا يحتلون فى قلبه مكانة عزيزة، وقد كان يراهم، كما عبر عنهم، على هذا النحو:

، البارقة الجديدة فى الحياة الفلسطينية، المقاومة

الفلسطينية، هي أولى الظواهر بهذه النظرة الجديدة الخالية
من رواسب الماضي..

إن الفدائيين الفلسطينيين يجب أن نضعهم دائماً في حبات
العيون، . (الأهرام ١٢/١/١٩٦٩) .

وعلى هذا النحو، فإن موقف بهاء الدين من العمل الفدائي كان يستحوذ
لديه على أهمية خاصة، ينبغى معها، ألانتهاون في تشويهه بأية شائبة من
داخله أو خارجه،

ومن هنا، ففي هذه الفترة راح يكتب عن العديد من الظواهر السلبية
التي تشوب العمل الفدائي، وكان أكثر الظواهر سلبية حينئذ توالد المنظمات
الفدائية وتكاثرها وتعدد أجنتها وتياراتها وانشقاقاتا..

وكما كان ذلك يتعارض مع وعيه، كذلك، كان يتعارض مع العقلانية
في العمل النضالي كما يفهمها مفكر مثل بهاء الدين، وهو ما يفسر قوله
بحزم شديد، في مرحلة النضج يكون حتى للحب وللكره معنى آخر، إذ
يكون كل منهما عاطفياً وعقلياً معاً بلا غشاوة، وبلا مراهقة، . (كتابه: ثلاث
سنوات، يونيو ٦٧ - يونيو ١٩٧٠، دار الطبعة، بيروت، ١٩٧٠ ص ١٢٤) .

لقد تعددت عناوانات مقالاته في تلك الفترة بما يوحى بالأزمة التي تقدم
عليها المنظمات الفدائية، إذ نقرأ عناوانات مثل كل يوم.. منظمة فدائية
جديدة؟! و(تحولات خطيرة) .. إلى غير ذلك.

خلال ذلك كله راح يرفض هذه النزعة، ويسأل:

هل هو مرضنا القديم وحب النزعة الشللية؟ هل هو عودة

قضية فلسطين

إلى متاهات التبعض على ساحات غير فلسطينية ومضاريات
لا صلة لها بجوهر الصراع المباشر مع العدو . (ص ١٢٧) .
وقد أدى هذا التولد والتعدد للمنظمات الفلسطينية إلى أخطر
الظواهر على العمل الفلسطيني في ذلك الوقت .
وهو ما تمثل في حادثة أثينا بوجه خاص .

قنبلة أثينا

لقد حدث أن قامت إحدى المنظمات الفدائية بعملية في إحدى المناطق
الاستراتيجية في العاصمة اليونانية أثينا، ورغم أن العملية كانت موجهة
إلى اليهود، فإن الخسائر التي حاقّت ببعض الأبرياء، من غير اليهود، كانت
كفيلة للنيل من العمل الفدائي .

ومن هنا، راح بهاء الدين يرفض أن تكون المقاومة الفلسطينية عملاً
مقدساً لا يجب التعرض له أو مناقشته بصراحة شديدة . فمبدأ التصدي
للوجود الإسرائيلي ومظاهره أينما كان، مبدأ سليم، بغير شك، ولكن لا يوجد
مبدأ يؤخذ على إطلاقه، فالعبرة تكون في (جدوى) كل عمل بالنسبة
للقضية الفلسطينية الأساسية ..

إذا كان الهدف هو إصابة العدو الإسرائيلي ومحاربه فالأهداف التي
يمكن أن تضرب كثيرة، ومهما كان الأمر، فالقضية سوف تحسم في النهاية
على الأرض المحتلة ذاتها .

أما إذا كان الهدف هو تحقيق أكبر قدر من لفت أنظار العالم الخارجي

إلى القضية وأن يقرع الصوت الفلسطيني كل أذن.. فهذا أيضاً تصبح عملية الاختيار أصعب وأدق. فهناك خيط دقيق يفصل بين الحدث الذي يثير في العالم الخارجى نوعاً من رد الفعل الذي يفيدنا، وبين الحدث الذي يؤدي إلى رد فعل مضاد. (ص ١٣٤)

لقد اختارت قنبلة أثينا توقيتاً سيئاً، هو يوم محاكمة عدد آخر من الفلسطينيين كان قد قبض عليهم قبلاً في زيورخ، واختارت لها رجالاً يونانيين وأطفالاً يونانيين، خاصة أن اليونان - في ذلك الوقت - كانت من البلاد التي لم تكن قد اعترفت بإسرائيل بعد، ولذلك، كان من السهل أن يستفاد من مثل هذه الأحداث كي تدفع إسرائيل أجهزتها إلى افتعال لأحداث تطلخ بها المقاومة.

وبهاء الدين هنا - كما نرى - لا يعترض على الغاية، إنما هو الأسلوب.

فمن حق المقاومة أن تجعل إسرائيل تدفع الثمن، ثمن تشريد الفلسطينيين واغتيالهم، بل يجعل العالم كله (يدفع الثمن)، وهو ما يعود إلى مسئولية المجتمع الدولي فيما حدث للشعب الفلسطيني.

وإذا كانت المقاومة تخرج عن القانون (الطبيعى) فلأن العالم كله قد خرج على القانون الطبيعى.

ومع ذلك، فإن المقاومة هنا لا يجب أن تبحث عن (الحق) فقط، ولكن يجب أن تنصب الحركة على (الجدوى).

يمكن البحث عن الحق - كما يكرر - داخل المؤسسات الإسرائيلية داخل إسرائيل أو خارجها، غير أن المهم هنا ألا يتسصر الأمر على التخطيط

قضية فلسطين

العسكري فقط، وإنما على التخطيط السياسي، أى الآثار التى تنعكس على رد فعل أية عملية فدائية ضد المصالح الإسرائيلية فى أى مكان.

وكما بدا بهاء الدين بأنه يكتب من أجل حب ظاهرة المقاومة، راح يختم مقالاته العنيفة بأن «دم الفدائيين عزيز، ومال الفدائيين عزيز، وجهد الفدائيين عزيز. ولا يجوز أن ننفق هذا الشئ الثمين الجديد إلا حيث يكون له عائد حقيقى.. وهو ما يصفل منه إلى أن ما يكتبه هنا إنما هو اختياره فى حب الفدائيين.

إنه اختار النقد الإيجابى لا الصباح والحماس، منتهياً من ذلك كله إلى أن الاجتهاد فى الرأى هو التعبير عن طريقته فى الحب.

مطلوب اجتماع

وعلى وجه السرعة راح بهاء الدين يبلور هذا الحب أكثر من تحويل الاجتهاد فى الرأى إلى موقف عملى، وفى المقالة التالية مباشرة، راح يكتب (مطلوب اجتماع مغلق لمناقشة القضية واتخاذ قرار حاسم فيها) وراح يطرح فى ذلك قضية العمل الفدائى، ولكن على مائدة البحث والفكر والفعل.

لقد راح يعرض فى كلمات بسيطة، اجتهاده، ولم يلبث أن تمهل عند القضية الأساسية ملخصاً إياها فى هذه السطور:

«القضية، هى: جدوى العمل الفدائى فى الخارج بالنسبة للقضية الأساسية، والمعركة الأساسية، فى الأرض

العربية، . (ص ١٣٩) .

وقد يُفصّل تخوفه أكثر في أمرين خطيرين:

«الأمر الأول، هو أن السهولة النسبية لبعض هذه العمليات سوف يكون إغراء مستمرًا للمنظمات الصغيرة في أن تقدم عليها، بحثًا عن الحجم السياسي والدعائي لنفسها وليس بحثًا عن الجدوى الحقيقية للعمل وتأثيره على إسرائيل، ويزداد الارتجال مع الزمن، وتتسرب روح المغامرة إلى حيث يجب أن تزداد روح الالتزام.

هذا ما نلاحظه مع الأسف

الأمر الآخر الذي حذرت منه، وأعتقد أنه أعظم خطورة.. هو أن ذلك الوضع سوف يترك مجالاً للأعداء أنفسهم لكي يقدموا على عمليات إجرامية بقصد إلصاقها بالفدائيين.. وفي هذا المجال سوف يختارون أقبح الأعمال، أو الأعمال ذات المغزى الخاص بإسرائيل.

وليس هذا خيالاً أو اختراعاً، فهذا أسلوب عمدت إليه دول وحكومات وحركات سياسية في ظروف كثيرة، . (١٤٠).

وبعد أن يسهب بهاء الدين في هدوء شديد حول الخطورة التي تواجهها المنظمات الفدائية وهنا في الأرض المحتلة، يقول بصراحة شديدة افتقدها العمل الفدائي حينئذ:

«إن موضوع العمل الفلسطيني في الخارج لا يجوز أن يترك

للمبادرات الفردية وشبه الفردية ولعدم التنسيق، .

وقد انتهى من ذلك كله إلى ضرورة أن تتولى المنظمات الأساسية عناية خاصة بالأمر، فتعقد اجتماعاً مغلقاً تناقش فيه هذه القضية.

منتهياً من هذا كله إلى حقيقة هامة جداً هي أن العنف الثوري ليس تعبيراً مجرداً، إنه ليس العنف الغاضب، إنه العنف الذي يخدم الثورة وأهدافها. (ص ١٤٢).

وبالفعل حدث ما توقع، فلم يلبث - على مستوى المنظمات - أن أعلنت جهة النضال الشعبي مسئوليتها عن الحادث، وأرسلت له رداً اضافياً تحاول فيه تفسير دوافعها له (انظر الملحق)، فيبادر أحمد بهاء إلى نشره كاملاً، ثم دخل مع أصحابه حواراً قصد به تصحيح ما فهم منه خطأ، لئلا يعتقد أصحاب هذا الخطاب الموقف السلبي من العمل الفدائي، محدداً الشرط الذي كان قد اشترط دائماً للقيام بمثل هذه الأعمال خارج الأرض المحتلة: إنني وضعت شرطاً صريحاً هو الفائدة التي تعود على القضية، .

لقد راح يسهب مرة أخرى عن سلبية هذه الأعمال التي يمكن أن تلقى في طاحونة الأعداء، معتمداً على الرأي العام، فثمة شخصيات وهيئات ومنظمات كثيرة ترى سلبية ذلك..

ومن آن لآخر، فإن بهاء الدين لا يتردد أن يذكر لمحاوريه من أبناء هذه المنظمات أن خلافه معهم لا يتعدى خلافاً في التقدير، وأن الأحداث حولنا هي التي تثبت صحة تقديره.

وحين يعرض لغضب المنظمة من أنه لا يذكر اسمها عمداً مما يضفي استهتاراً بها أو تقليلاً منها ويرد بأن ذلك كان بقصد المجاملة، فعدم ذكر

الاسم يقصد به ذلك أحياناً، وهو لا يعكس اعتراضاً على نشاط المنظمة.
واللافت للنظر أن بهاء الدين في ردوده هذه أو كتاباته التالية لا يتعب
من ترديد فكرته الأساسية عن (جدوى) مثل هذه العمليات.
فالبحث لا يتوقف عند (الحق) ولكن يجب أن ينصب أيضاً على
الجدوى..

والحق يظل بعيداً عن متناول اليد حتى نتوصل إليه بالوسائل الصحيحة

* * *

لقد كان هذا الموقف من كاتب مصرى يعكس اهتماماً كبيراً بالدور الذى
يمكن أن تقوم به المنظمات الفدائية فى حالة التنسيق فيما بينها، وفى حالة
البحث عن (الجدوى) لا (الفعل) الغاضب فقط، وهو ما وجدنا له مواقف
كثيرة لعديد من المنظمات التى خرجت عن فتح، وخلافات تدمى القلوب
كان آخرها ما نشهده هذه الفترة من خلافات عميقة تنتهى بمواجهات
مسلحة بين عناصر من حركة (فتح) وأخرى من حركة (حماس)..

ثم ما يتردد من الأعمال العنيفة لعناصر تنتمى - كما يعلن - إلى
مجموعة عز الدين القاسم ومجموعة أخرى لا تنتمى إليها..

وكأن ما يحدث لنا منذ أكثر من نصف قرن لا يعرفه أحد ولم يتعلم منه
أحد..

ثابتاً

الاستعمار الأمريكي

«أى شيء يمتلكونه فى هذا الشرق المسكين ؟
البتروال بترولهم، وخطوط المواصلات خطوطهم..
والمشروعات الصناعية
والزراعية المزمعة.. مشروعاتهم،
فليس لنا فى بلادنا شيء،

مثل أحمد بهاء الدين - مع غيره - تياراً مناهضاً للاستعمار الأمريكى
الجديد فى الفترة التى تقع بين الحرب العالمية الثانية وحرب الخليج الثانية
- ١٩٩٠.

ففى هذه الحقبة التى تصل إلى نصف قرن تحدد تيار فكرى فى مصر
تعود قيمته الأولى إلى كشفه حركة الاستعمار الأمريكى الذى كانى سعى
إلى إرث الاستعمار الغربى القديم.

وهذا التيار يربط بين خطر هذا الاستعمار الغربى القديم. و(كل)
الكوارث التى تحقيق بنا: ضرب حركات التحرر الوطنى، مأساة فلسطين،
تأييد إسرائيل، إجهاض الوحدة العربية، ضرب العلاقات السوفيتية العربية،
استنزاف موارد البلاد، استنزاف الرجعية للقوى الوطنية فى حرب اليمن،
هزيمة ١٩٦٧، الهجوم على عبدالناصر حياً أو ميتاً، ضرب القطاع العام..

إلى آخر هذه الكوارث التي تسعى لتحطيم الإرادة العربية والتيل منها..

كان هدف المثقف الواعى هو التصدى لصور الاستعمار الجديد.

وكان على هذا الاستعمار أن يغير أساليبه ويحدد أهدافه..

فى هذا المناخ يمكن أن نرصد لموقف أحمد بهاء الدين أحد أولئك المثقفين التقدميين، بدءاً من محاولات الغرب الأمريكى السيطرة على مقدرات الشعب العربى فى مصر، وتحديداً، من هذه الفترة التى سعى فيها هذا الاستعمار ليلقى بشبائه الاقتصادية فيما يسمى (النقطة الرابعة) على مصر.

وهى الفترة التى راح يشغل فيها أحمد بهاء الدين بمواجهة هذه القوى، ويعمل فى كتاب يخرج به بعد فترة وجيزة من قبول الحكومة المصرية للبرنامج الأمريكى.

وسوف تظل محاولاته النقدية الأولى فى بداية الخمسينات، هى النواة الأولى لموقفه العام من الاستعمار الأمريكى، وهى النواة التى ستشهد تطوراً ونضجاً شديداً مع تطور الأحداث..

وحين نعرض لموقف أحمد بهاء قبل نصف قرن سوف نلاحظ أهمية هذا الموقف الذى كتب فيه كتابه (الاستعمار الأمريكى الجديد أو برنامج النقطة الرابعة)، وقد سعى بهاء إلى الانتهاء من الكتاب ولم يمض على الاعتراف «بالنقطة الرابعة» عدة أشهر، وأسرع بنشره على حسابه الخاص، وحمله بنفسه إلى المثقفين والكتاب فى عصره.

الاستعمار الأمريكي

بيد أننا قبل التوقف عند هذا الكتاب، لابد من الإشارة إلى الموقف الأمريكي، لنرى، إلى أى حد دفعه الموقف الأمريكي إلى استجابة واعية، تعكس وعي كاتب مثل أحمد بهاء الدين.

(٢)

يمكن تحديد الموقف الأمريكي منذ بدأ اهتمامه بالمنطقة العربية، وهو ما تحدد بشكل عملي مع نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، وخاصة أن الدور الأمريكي الجديد كان يمر بتحول عميق إذا استندت القيادة السياسية الأمريكية على مدى معظم الأربعين سنة الأخيرة إلى قاعدة قوية من التفوق الاقتصادي والعسكري، ونشأ معظم الدافع إلى ممارسة هذا التفوق عن قلق بأن الاتحاد السوفيتي يسعى إلى خلع الولايات المتحدة عن مكانها والحلول محلها (Foreign Affairs, Spring 88, Vol 66 no 4).

وخاصة أن الاتحاد السوفيتي لجأ لأساليب عديدة لإثبات وجوده مثل اتفاق معايضة ١٩٤٦ القطن بالقمح بالحبوب والقمح بين مصر والاتحاد السوفيتي. وفي نفس الوقت نجح في تفجير قنبلته الذرية الأولى، فضلاً عن بعض الأحداث التي شحذت حاسة الولايات المتحدة الأمريكية كانهاء الحرب بين العرب وإسرائيل بهدنة ٤٩ وتطور أزمة تشيكوسلوفاكيا وحصار برلين.. وما إلى ذلك.

كان اعتقاد أمريكا - باختصار - أن السوفييت لا يخططون فحسب، وإنما يخططون للإفادة من التطورات الاجتماعية في العالم العربي لتأكيد

العقيدة الشيوعية، ومن ثم الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأرض تهدد الوجود الغربى الكونى، وهو ما يدفع الأمريكان إلى محاولة استرضاء العرب ومحاولة ضمان ولائهم، وقبل هذا كله محاولة السيطرة عليهم بشتى الأساليب إما بالتحالف أو التسهيلات العسكرية أو بالإغراء الاقتصادى، أو بأية وسيلة، لاستعادة السيطرة على المنطقة التى اعتبرت أنها (نقطة ضعف) الغرب فى مواجهة الاتحاد السوفيتى.

ومن هنا جاءت اتفاقية (النقطة الرابعة) ..

لقد نجحت الولايات المتحدة الأمريكية بالتسلل إلى حكومة الوفد، فعقدت معها هذه الاتفاقية فى ٥ مايو ١٩٥١، ومن يراجع محافظ جلسات هذه الفترة فى الأربعينات، يلاحظ خضوع مجلس الوزراء المصرى لشراء قطع حربية أمريكية بالشروط الأمريكية، وبالفعل، بعد مرسوم فى ١٧ سبتمبر من وزارة المالية افتتح اعتماد اضافى لذلك (انظر محافظ الوزراء رقم ٨٤ من جلسة ٢٠/٩/٤٦ بدار الوثائق).

وكان أن تسلل هذا الاتفاق إلى الصحف المصرية، فراحت - جميعها - تهاجم الوفد، بل إن الوفديين أنفسهم راكحوا يهاجمون أنفسهم، إلى درجة أن هذا الاتفاق قد هوجم من الطليعة الوفدية - أحد أجنحة الوفد التقدمية - فى بيان عنوانه: (الاشتراكية) (انظر مصطفى مؤمن فى كتابه النقطة الرابعة - دار النشر المصرية ٥٤).

وقد كان أكثر من هاجم هذه الاتفاقية فى ذلك الوقت شاب صغير السن، هادى خجول هو أحمد بهاء الدين، فأنتهى من كتابه ضد هذه

الاستعمار الأمريكي

الاتفاقية ولم يمض أربعون يوماً على عقدها (١٥ مايو من نفس العام):

وهو ما يعود بنا ثانية إلى موقف بهاء الدين خلال كتابه.

وأهمية هذا الكتاب تعود إلى أنه ينظر إلى (النقطة الرابعة) في الإطار العريض للاقتصاد المصري، وليس فقط في إطار (برنامج) عام أو (اتفاقية اقتصادية) عادية، ومن هنا، فهو يربط بينه وبين الواقع السياسي لمصر.

كذلك تأتي أهميته - في نفس السياق - إلى أنه دائم الربط بين التجربة الاستعمارية القديمة للإنجليز والتجربة الاستعمارية الجديدة للأمريكان، وما يرتبط بذلك كله من تغييرات هذا النظام العالمي الجديد بعد الحرب العالمية الثانية كما سنصل إليه.

على أن الأهمية القصوى للكتاب تعود إلى أن (النقطة الرابعة) إنما تمثل في الواقع الجديد النقطة الأولى التي تستل من كل خيوط الهيمنة الاستعمارية الجديدة فيما بعد، فضلاً عن أن هذا الكتاب سوف يستشرف ما سوف يحدث في المنطقة العربية بعد ذلك على مشارف التسعينات من نفس القرن، حين تصل أهداف الاستعمار الأمريكي (وحلفاؤه) إلى درجة الاكتمال إبان حرب الخليج (عاصفة الصحراء) ..

ومهما يكن، فإن هذا الكتاب يجهد أن يضع - منذ البداية - نص الاتفاقية كما هي (من وجهة النظر الأمريكية) قبل أن يفرغ إلى تعريتها وكشف أهداف الاستعمار الجديد (على حقيقته)، جاهداً أن يكون محايداً، جاهداً أن يجمع جماع عقله، فهو يضع تصريحات أصحاب البرنامج وتعليقاتهم في إطارها الصحيح، بما يوحى بحقيقة الاتفاق، بل ولا يستطيع

أثناء نقل وجهة النظر الأخرى مقاومة التعليق عليها كما فعل مع كلمات الرئيس ترومان، إذ يلاحظ أن أمريكا تتسلل إلى صميم اختصاصات الدول الاستعمارية الأخرى، كإنجلترا وفرنسا، مثل المغرب والسودان وبورما، كما يلاحظ أن المناطق التي لا تبذل فيها أمريكا نفوذًا كبيراً، فإن هذا يعود، لا إلى زهد، وإنما إلى خوف من أن تصطدم مصالحها اصطداماً سافراً مع إنجلترا وفرنسا وغيرها.

وهو ما خلص منه إلى أن المحاولات الأولى لها لا بد أن تكون في بلاد مستقلة مثل سوريا وتركيا. وفي بلاد يتزعزع فيها النفوذ الإنجليزي كمصر. ويعجب بهاء الدين وهو يعرض للبرنامج من (أن تحاول الحكومة الأمريكية إقناع الشعوب بنواياها الطيبة.. وكان أجدى عليها في هذا أن تسير سيرة أخرى في قضايا الشعوب المستعمرة والمحتلة. تقوم على تحريرها من نفوذ الإمبراطوريات، بادئة بنفسها). (الاستعمار الأمريكي الجديد، بدون، القاهرة ١٩٥١، ٢٥).

بيد أنه يتوقف أكثر عند خطورة البرنامج..

وأول ما يلتفت نظره بذلك عند تصدير رؤوس الأموال الأمريكية أن هذه الأموال تمثل مرحلة جديدة من مراحل النظام الرأسمالي العتيق مورداً نصاً لأحد خبراء السياسة الأمريكية ومعقفاً عليه، فحين يقول أوبن لاتيمور رأياً مدافعاً عن صندوق النقطة الرابعة، ينبرى بهاء الدين قائلاً:

«إن تصدير رأس المال ليس جديداً تماماً، فقد كان المال يهاجر من إنجلترا وفرنسا وهولندا وغيرها، إلى

الاستعمار الأمريكي

المستعمرات، ثم سرعان ما تلحق به حماية الدولة، توطد أقدامه وتثبت مصالحه. أو كما كانوا يقولون في إنجلترا منذ قرن ونصف، العلم يذهب وراء التجارة، ثم تذهب تجارة أخرى وراء العلم، والعلم هنا هو الدولة بحمايتها الأديبية والمادية والعسكرية.

وبهذه الطريقة ذهبت شركة الهند الإنجليزية وشركات المطاط الهولندية إلى إندونيسيا، وذهبت رؤوس الأموال الإنجليزية إلى إيران والعراق، والأوروبية إلى مصر، وفي أعقابها جميعاً ذهب الاحتلال: المظهر السافر للاستعمار.

أما الجديد حقاً، فهو أن ينظم تصدير الأموال «مقدماً» على هذا النحو، وإن تهيأ له الحماية بمعاهدات واتفاقيات واستقصاءات تحمل الدولة مسئوليتها قبل أن يخطو رأس المال ذاته خطوة واحدة، كما تفعل النقطة الرابعة. وما جاء هذا التطور إلا نتيجة للهجرة التي استفادها النظام الرأسمالي بغير منهج مرسوم، ثم يضطر للاستعانة بالقوة العسكرية. (ص ٣٠).

إن الاستعمار يرتب البيت، ويستعين بالقوى العسكرية، لكنه لا يلبث أن يستغنى عنها فيما بعد.

غير أن الاستعانة بالقوات العسكرية يمكن أن تكلف الكثير، ومن ثم، يحسن الاستغناء عنها.

لكن: لماذا تصدر الولايات المتحدة رؤوس أموالها؟

ولماذا سلكت كل الدول الرأسمالية هذا الطريق من قبل؟

وما هو أثر تصدير رأس المال على الدولة المصدرة والمصدر إليها؟

أسئلة يطرحها بهاء الدين، ولا يلبث أن يحاول الإجابة عنها في هذا الفقرة التي نجتزأها من الإجابة:

«في الخارج تجد الخامات الوفيرة، لا صاحب لها تقريباً،

وتجد العمال يعملون بأجور بخسة، وبلا ضمانات.

وتجد الحكومات لا تفرض الضرائب الكافية على الإنتاج

والاستهلاك والتصدير، اكتملت هذه السلسلة في الدول

الرأسمالية الكبرى جميعاً.

وفي أمريكا أيضاً اكتملت السلسلة على نحو لا سابق له

في السرعة والضخامة، (٣٢).

وعلى هذا النحو يكرر، وفي أكثر من سياق، إلى تجارب الاستعمار

السافرة حيث يستخدم رأس المال في الهند وإندونيسيا، مؤكداً أن ما يفعله

الاستعمار الأمريكي الجديد الآن ليس غير نوع من أنواع الاستعمار الخفي،

إشارة إلى خلوه من مظاهر الاحتلال والقهر، وهو يسعى للسيطرة على أي

بلد متخلف دون أن يتحمل شيئاً من أعباء الحكم أو العنف.

وتأسيساً على ذلك، يصل منطقياً إلى منطقة هامة، هي أن النقطة

الرابعة، لا تترجم غير الرغبة في تصدير رؤوس الأموال الأمريكية إلى

الاستعمار الأمريكي

البلاد المختلفة، واستثمارها فيها، وهي تجربة ليست جديدة، إنها هي قديمة، معروفة. «فأين هو الفارق بين هذه النقطة الرابعة التي تدعونا إليها وبين الاستعمار؟ لا جديد تحت الشمس،.. (٤٨).

إن الكاتب يكون واعياً بحيث يدرك أن الصراع العالمي حينئذ (عقب الحرب العالمية الثانية كما هو بعد حرب الخليج) ليس غير محاولة للسيطرة على المناطق الاستراتيجية في العالم، وهي المناطق التي لا تتمتع بموقع سياسي، بقدر ما هي تحصيل حاصل لأوضاع اقتصادية في الظاهر وسياسية في الباطن، فمصالح هذا الاستعمار الجديد تدفع به دفعا إلى السيطرة على أي بلد يمثل له أهمية قصوى، سواء على المستوى الاقتصادي أو المستوى السياسي، فكل اهتمام اقتصادي يلقي في التيار السياسي ويؤكد.

ويكون ذلك كله ادعى إلى التركيز على المعنى الرأسمالي التراكمي للاستعمار الجديد، وهو معنى يأخذ بخناق الدول التابعة، ويصب في تيار الرخاء والسيطرة في الدول المتقدمة، وبذلك يصبح اقتصادنا فرعاً مكملًا للاقتصاد الأمريكي.. واتباطنا بأمريكا على هذا النحو يجعل لها حق التدخل في الكثير مما يعتبر من صميم كياناتنا، وبناء على هذا الحق تطالب أمريكا مقدماً بتعديل نظام الضرائب في الدول المستفيدة من البرنامج، وتعديل قوانين الشركات وقبول مشورتها في إصلاح نظم النقد والجمارك وبرامج التعليم.. إلى آخره. (٥٦).

وقد استلزم ذلك سنوات طويلة قد تنتهي بمصر إلى هذا المصير.

وهي السنوات التي تفسر العلاقة بين أمريكا ومصر.

وهو ما يدفعنا لاستدعاء هذا الواقع الذي نعيش فيه الآن.

نحن نحيا في واقع يذكرنا بأجراءات كثيرة دفعت مصر إلى سياسة الانفتاح الاقتصادي - سداح مداح - وهذا هو تعبير بهاء الدين في أهم مقالاته في السبعينات - ثم توالى بيع الشركات العامة لإنهاء نظام التخطيط المركزي، وتطبيق نظام اقتصاد السوق وتعديل نظام الضرائب، وتنفيذ إصلاحات كثيرة فرضت علينا من صندوق النقد الدولي (الغربي) فحررت الأسعار وألغى الدعم وتسريح العمالة.. وما إلى ذلك مما يدفع دفعا للسقوط في قبضة الاستعمار الجديد،

وهو ما يتمشى مع الدولة صاحبة الحول والطول - أمريكا - التي تملك فضلاً عن ذلك كله - ومعه - ديوناً ثقيلة على ميزانيتنا مما يمنحها حق الضغط السياسي والاجتماعي على الإرادة المصرية.

فلنحاول أن نعود بحزم، إلى هذا اللون من الاستعمار في الخمسينات..

لقد لعب الاستعمار الأمريكي داخل كتاب أحمد بهاء الدين وخارجه أدواره السياسية الأخرى ضد الإرادة المصرية بما لا يمكن رصده، ولعل أكثر مثالين دلالة في هذا ما يتوقف عندها الكاتب.

يرى أن أولهما: الدور الأمريكي في فلسطين، ونفس الموقف من الأمم المتحدة..

لقد عجب في ذلك الوقت بمن يحاول أن يدافع عن الولايات المتحدة الأمريكية، فيضرب المثل بمن يحسن الظن به، إنه يعجب من ذلك، فيقول:

الاستعمار الأمريكي

إن لدينا مدداً من أحداث حاضرننا تتزاحم وقائعه: لدينا موقف أمريكا من قضية فلسطين وكيف أنقادت تلك الدولة الضخمة وراء مصلحة الرأسماليين اليهود فيها فأرغمت العرب على الهدنة، ومنعت عنهم السلاح ليقتلوا عزلاً، وزودت إسرائيل بالأسلحة رغم قرار الحظر لتهجم. فلما هجمت سكنت أمريكا عنها وما زالت ساكنة على مليون من اللاجئين، (٥٨).

والنقطة الأخرى أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تريد أن تسير هذه السيرة في طريق الأمم المتحدة بأية حال، لقد عمدت للقضاء على مؤسسات الدولة أو إضعافها أو الإنفراد بالعمل.

عمدت - كما حدث في الخمسينات أو التسعينات - إلى التخلص من الأمم المتحدة بحيلة بارعة، هي، محاولة الإيهام أنها تتحدث وتتصرف بتوكيل عنها، في حين أنها قد وصلت إلى ذلك إما بالتهديد أو الإغراء أو الهيمنة المالية أو العسكرية.

ورغم أن أحمد بهاء الدين كان قد سقط صريع المرض قبيل حرب الخليج بأشهر قلائل، فإنه كان واعياً منذ كتب (النقطة الرابعة) إلى خطورة أمريكا وموقفها الثابت المعلن وغير المعلن من السيطرة على منابع الثروة الطبيعية في العالم القديم واحتكارها ما أمكن لتمويل صناعاتها، ولسد حاجاتها الاستهلاكية ومطالب قوتها الحربية على حد سواء.

وهو ما يفسر تدخل أمريكا في الخليج العربي مع حلفائها القدامى -

انجلترا وفرنسا - هل يمكن قراءة جملة مثل هذه دون أن نجزم أن صاحبها كتبها إبان الغزو الأمريكي للخليج في حين أنها مكتوبة في عام ١٩٥١. لنقرأ:

«واليوم تقف أمريكا هذه الوقفة، وتشعر شعوراً عنيفاً بحاجتها الملحة إلى وضع اليد على منابع الثروة الطبيعية في البلاد المختلفة». (٧١).

نحن في هذا الكتاب أمام صفحات، بل فصولاً كاملة يمكن أن تصور ما جرى أخيراً في صحراء الخليج العربي ومناطق البترول فيه، وكأن رضاء أمريكا يجب أن يبنى على تعاسة الشعوب». (٧٣).

وإن دل ذلك على شيء فهو يدل على أن الموقف الأمريكي لم يتغير رغم مرور قرابة نصف قرن من الزمان على تعرفه على المنطقة العربية عقب الحرب العالمية الثانية.

إن تأمل اللوحة ترينا أن ثمة تغييرات طفيفة في الخطوط العامة، ليس في «موضوع» الرؤية.

فإذا كانت الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة قد دفعت هذه الأخيرة إلى تحكيم القوة واستخدام المشروعات والبرامج الاقتصادية لتحقيق هدفها، فنحن الآن أمام سقوط الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية كلها، وانتهاء الحرب الباردة ومبرراتها..

نحن أمام نفس الدافع الاستعماري القديم، الجشع لثروات العرب

الاستعمار الأمريكي

وبترولهم وأرضهم، والولع بالسيادة على أية أرض جديدة يمكن أن تزيد غلبة (الاستراتيجية) الأمريكية على هذا الكون، وحماية (أداتها) إسرائيل .
لم يتغير شيء كثير من المشهد، فمن لم يعرف جيداً أبعاد (الاستراتيجية) الأمريكية ومبرراتها في النظام الجديد .

هل نحن الآن في حاجة لسرد صفحات كاملة من كتاب أحمد بهاء الدين لندرك أنه كتاب مفتوح، ما يزال يتحدث عن ممتلكات أمريكا في الشرق الأوسط، لنستعيد كلماته:

«أى شيء يمتلكونه في هذا الشرق المسكين؟ البترول يترولقهم، وخطوط المواصلات خطوطهم... والمشروعات الصناعية والزراعية المزمعة - كما النقطة الرابعة - مشروعاتهم، فليس لنا في بلادنا شيء». (٧٩) .

ونكتفى بهذا القدر من ذلك الكتاب، فسوف نلتقى به مرة أخرى حين نخرج من زمن الخمسينات (زمن النقطة الرابعة) إلى الأزمنة التالية حتى التسعينات .

(٣)

وقبل أن نهبط إلى الستينات، ثمة ملاحظتين لابد من الإشارة إليهما:
أولاً: إن رؤية بهاء الدين للاستعمار الأمريكي لم تتوقف عند مصر أو أحد الأقطار العربية وحدها، وإنما اتسعت دائرة العدسة إلى

مداها على العالم كله.

ثانياً: إن بهاء الدين أضاف إلى صورة التحدى العسكرى أو الاقتصادى الأمريكى صورة أخرى، هى صورة التحدى الحضارى، فالهزيمة أمام الاستعمار الجديد أو أدواته (إسرائيل) إنما يكون حسب اتساع الفجوة الحضارية بين العرب والغرب.

لقد راح الكاتب يفصل هنا ما حاول إيجازه هناك لكشف صورة الأمريكيين مع تطور الزمن، فهو لم يتردد قط عن تكرار أهداف الاستعمار الجديد، وهى أهداف تسعى فى سبيلها لإجهاض حركة استقلال كثير من أقطار العالم التى كانت تسعى إلى التحرر سواء بالخلاص من الاستعمار، أو بمحاولة الحرص ألا تقع فى شركه ثانية (أخبار اليوم ٢٨/٢/١٩٦١).

كما راح فى ذلك السياق يكشف العودة إلى التحالف بين الدول المستعمرة، فراح يعلن تحالف الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا للسيطرة على دول المغرب العربى (السابق ١/٤/١٩٦١) قبل أن تعاود السيطرة على بقية الأقطار العربية.

وقد تمهل بهاء عند الأساليب الجديدة التى راح يلجأ إليها هذا الاستعمار الجديد ويكشف عنها..

لقد بدأت الولايات المتحدة تكشف عن أهدافها بشكل سافر، ومع ذلك راحت تسعى لتحقيقها بعملائها السريين لاستخدامهم فى عديد من العمليات المشينة فى شتى أنحاء العالم، ومثال ذلك أنها راحت تتحالف مع دول الاستعمار التقليدى وتمثلها بلجيكا، لقد كشف بهاء الدين أن أمريكا تقوم

الاستعمار الأمريكي

كازافوبو وبلجيكا تمول موبوتو وتشومبي وغيرها، والمساعدات الأجنبية تذهب إلى جانب آخر.. (الأخبار ١٥/٣/١٩٦١).

وفي مرة أخرى يتم الكشف عن غرور القوة الذي يتمثل في التورط الأمريكي بكوبا، فهو يؤكد اتجاهات نابليونية خطيرة لدى الرئيس الجديد جون كينيدي. (الأخبار ١٩/٤/١٩٦١).

أيضاً من الأساليب التي لجأ إليها الاستعمار الجديد هو استخدام هذا الاستعمار مخبراته المركزية في تنفيذ أهدافه. يقول:

«إن المخبرات هي التي اختارت قيادة الثورة المضادة لكاسترو، وهي المسئولة عن وضع زعيم يطالب بإلغاء الإصلاح الزراعي وإعادة الأراضي إلى الإقطاعيين». (الأخبار ١/٥/١٩٦١).

ويكون الكاتب واعياً لهذا الدور في مواجهة التماسك العربي.

فهو حين يشير إلى هذا الإدراك يذكر شهادات لبعض العرب في الأقطار العربية مما نجد له تفصيلات كثيرة في صفحة الأخبار في شهر مارس من عام ١٩٦١، أيضاً في أخبار اليوم في شهر مارس من عام ١٩٦١، أيضاً في أخبار اليوم ٧/١٠/١٩٦١.

ويلاحظ أن الهجوم على الاستعمار الأمريكي يتصاعد في فترة عبد الناصر حين يتخذ الزعيم مواقف عنيفة ضد هذه القوى سواء في مواقفه المباشرة أو رحيله إلى الأقطار العربية إما بالسلاح أو القوات أو بكليهما معاً كي يعصد هذا القطر أو ذاك ضد ألا عيب الاستعمار.

غير أن نبرة هذا الهجوم زادت واتسعت عقب هزيمة ٦٧، فقد كان مؤكد دور الولايات المتحدة في هزيمة العرب في هذا الوقت.

لقد كان عليه أن يتناول في أكثر من مرة لعبة (الانتظار) التي تلجأ إليها الولايات المتحدة وإسرائيل في مواجهة المطالبة العربية بالإنسحاب، وقد حدد أكثر من طرف داخل (مصيصة الانتظار) من أول هذه الأطراف تأتي أمريكا التي تحاول أن تبدو واقفة خارج المصيصة، مفسراً أن أحلام أمريكا كانت تتحدد في حالة الهزيمة أن تسقط النظم والحكومات العربية المشاكسة تعيد كل ما ذهب من السيطرة الغربية في المنطقة، تعيد فرض الحصار والعزلة في هذه المنطقة على الاتحاد السوفيتي، ولكن هذا لم يتم. الآن مؤكداً أن حلاً أمريكياً على هذا النطاق الشامل مستحيل ..

وعقيدتي أن أمريكا لا تتمكن من أن تواجه نزيفاً جديداً مستمراً في الشرق العربي في الموقف الراهن، (المصور ١٨/٨/١٩٦٧)

وهذه هي الفترة التي يرصد كل ما يحدد الاستراتيجية الأمريكية التي تكون قد نضجت أكثر، ففي حين ترتبط برباط مقدس مع إسرائيل، فإن ذلك لا يكون بغير سبق إصرار على (خطة) أمريكية تحاول الهيمنة بها على أقطار الوطن العربي كله، وقد نشر في ذلك الوقت في المصور مقالته بعنوان (تقرير خطير من جبل الحديد) يشير فيه إلى ذلك التقرير الذي نشر أخيراً في أمريكا ويثير ضجة واسعة ويصل إلى نقطة خطيرة يوجزها على النحو التالي (إنه إذا كان تحقيق السلام ليس في مصلحة المجتمع المستقر. فالحروب تلعب دوراً في هذا الاستقرار، والإنسانية لم تكشف بعد أسلوباً آخر

يحل محل الحروب في تأدية الوظائف التي تؤديها) .

ورغم أن هذه الأفكار ليست جديدة تماماً، فإن أهميتها هذه المرة تأتي من أن مثل هذا التقرير يؤكد أنها تصدر من داخل مؤسسة الحكم الأمريكي التي نتحدث عن ضرورة بقاء السلاح، وينتهي الكاتب من الإشارة إلى خطورة ذلك على الدول المتخلفة التي تبقى - في حالة احتكار السلاح لقوى أخرى - تابعة اقتصادياً ونفسياً واجتماعياً للدول المتقدمة، الدول التي تسعى الآن للسيطرة على دول العالم الثالث، وهو ما لم يتغير في السبعينات..

(٤)

والملاحظة التي لا يمكن إغفالها في السبعينات، أن مصر السادات التي كانت تنجح للميل للشاطئ الأمريكي، وتقدم تنازلات كثيرة لقوى الاستعمار الجديد بالمجان لم يكن مثقفوها على إطلاعهم يؤيدون هذا الرأي..
لقد وجدت مدرستان في ذلك الوقت.

أحدهما قادت الدعوة للتحالف مع الولايات المتحدة واكتساب صداقتها وتجميل صورة الولايات المتحدة على المستوى الصحفي والسياسي، وقد كانت (أخبار اليوم) من أصحاب هذه المدرسة.

أما المدرسة الأخرى فقد كان أحمد بهاء الدين من بين أبنائها، قادت دعوة الاعتماد على القوى الذاتية لاسترداد الحقوق العربية ومقاومة النفوذ

الأمريكي الجديد في مصر والتحذير من الاعتماد المطلق على الولايات المتحدة الأمريكية والتأكيد على دعم التوجه العربي لمصر وتعزيز الصداقة العربية - السوفيتية والتصدى رغم الظروف القاسية في عامي ١٩٧٤ - ١٩٧٥ لحملات اليمين المصري في الهجوم على عبد الناصر والتجربة الاشتراكية في الستينيات

ورغم ان احمد بها الدين كان قريب الصلة من انور السادات ، خاصة في منتصف السبعينات ، يمكن القول انه كان اقرب الي التيار اليساري العريض الذي كان يلتزم بالقضايا العربية في الصراع ضد الاستعمار الامريكي بشكله الجديد وبصفة عامة من اسرائل وامريكا .

وفي هذا الاطار يمكن تصور موقف احمد بهاء الدين حينئذ

تحدد موقعه في الفترة بين هزيمة ٦٧ ونصر أكتوبر ٧٣ في استمرارية الهجوم علي الاستعمار الامريكي وادائه اسرائيل ولم يلبث عقب سياسة الانفتاح ان تردد هنيهة في حيرة من النظام وما لبث ان عاود موقفه الاول المناقض لامريكا التي راحت تعمق تيار الانفتاح ..

في الفترة الاولى راح يهاجم امريكا التي لا تقوم بأي ضغط علي اسرائيل كما يزعم ممثلوها ، وما يحدث في العالم العربي من هزائم ونكسات انما يحدث لمصلحة امريكا ، وامريكا هي التي تقوم بتصعيد الموقف بين اسرائيل والوطن العربي بسبب الاسلحة التي ترسلها لاسرائيل فتعمل علي تشجيعها (١٩٧١/٣/١٩) ، مدركاً ان ما يطلبه المعسكر الغربي وفي مقدمته الاستعمار الامريكي هو ان يستسلم العالم العربي كاملاً امام

الاستعمار الأمريكي

القوة المسلحة، القوة الاسرائيلية الامريكية المسلحة، (المصور ١٩٧١/٣/٢٦).

وهو يتخذ نفس الموقف إبان مبادرة روجرز ، فيحذر في سلسلة من المقالات من الخطر الاميركي متهماً امريكا - صراحة - بالتواطؤ مع اسرائيل بل ان امريكا تستمرى اللعبة التي تلعبها معها وهي لعبة الانتظار (١٩٧٢/٥/١٤) ، مردداً في الوقت نفسه تبعية اسرائيل الخالصة لامريكا بالقدر الذي تمثل فيه - كما جاء في عنوان مقالته في الاهرام ١٩٧٢/٣/١٢ - (حاملة طائرات غير قابلة للغرق) للاستعمار الاميركي.

ويؤكد ما ثبت ان رده مرات من قبل - خلال وثيقة - موقف رؤساء امريكا من اليهود وتأثير هؤلاء في الانتخابات الاميركية حيث يسعى كل رئيس اميركي مرشح او بعد نجاحه في الانتخابات الي استرضاء دولة اسرائيل بأي شكل (١٩٧٢/٨/١٣).

وقد استمر احمد بهاء الدين مردداً هذا العداء للاستعمار الاميركي واداته (اسرائيل) في فترة السبعينات ، خاصة عقب حرب اكتوبر ٧٣ مؤكداً ان هدف الغرب هو الاستيلاء علي اموال العرب وبترولهم وموقعهم الاستراتيجي مستشهداً بامريكيين خبراء وسياسيين حول ذلك مستعيداً دور المخابرات الامريكية في ذلك كله (١٩٧٤/١/٢٨).

يختلط الموقف المناوئ للاستعمار الاميركي بفترة الحيرة في منتصف السبعينات، في هذه الفترة التي بدا فيها توجه السادات الي امريكا توجهها مؤكداً ، وخاصة ، أنه كان بالقرب من الرئيس السادات ، يكتب له خطبه

وقراراته وتكليفه الوزاري (كما فعل مع وزارة د. حجازي).

كذلك اعتقاده بأنه يسهم خلال (محاوراته ..) مع السادات في بلورة القرار السياسي ، فقد اتسمت نظرة بهاء الدين بحيرة مؤكدة طرح فيها أسئلة كثيرة عن طبيعة هذا التوجه ، ومع ذلك ، فإننا لا نستطيع اغفال أنه كان معارضا لسياسة الانفتاح الاقتصادي .

لم يستطع ان يخفي دهشته ، حين كان يسأل هل ما يحدث هو خطة محسوبة وان هذا جزء من الثمن السياسي المطلوب دفعه للولايات المتحدة الأمريكية حتي تساعد علي فك الحبل من حول عنق مصروأي حاكم مصري ، بالضغط علي إسرائيل ؟ ام ان الأمر أبسط ، (محاوراتي مع السادات ، دار الهلال ، ص ٩٠) .

ويمضي في هذه الحيرة مدركاً أن علاقة السادات بأمريكا تأخذ من رصيد علاقته ببعض الدول العربية ، ومع ذلك ، كان يجهل ما يدور في عقل السادات أزاء أمريكا ، خاصة ، ان حدود الكاتب -رغم مكانته قرب السلطان- لم تسمح له بالنفاذ الي عقل السادات ، مما كان يكتف في داخله طبقات من الحيرة لا يجد لها تفسيراً .

ومع هذه الحيرة من المفيد أن نؤكد أنه لم يفقد إحساسه قط بخطورة الغرب الأمريكي أبداً ، كان يردد دائماً أن إسرائيل تعتمد بشكل مستمر علي العدو الأمريكي لتجد لديه قبولاً مؤكداً .

أيضاً كان واعياً -كما سجل في «محاوراته» فيما بعد- لتكنيك الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تعري السادات مرة و(تستعطفه) مرة أخرى ،

ثم تدفع به للتنازل دون أن يدري حتي تورطه تماماً .

وحين احس بهاء الدين بخطورة تورط السادات مع الأمريكان ، قال في محاوراته التي كتبها فيما بعد عبارة لا تخلو من معني ، قال : « واتخذت قرارا غريباً هو : ألا أري السادات بعد ذلك » (محاوراتي ، ص ١٦١ - ١٧١) .

ومع ذلك ، فلم يتوقف بهاء الدين طيلة السبعينات عن التحذير من الأمريكين ، متسائلاً دائماً ماذا نستطيع أن ندخر من عناصر القوة العسكرية والتماسك والاحتمال والمخيلة السياسية لمواجهة هذه القوي .

مضيفاً الي ذلك تكرار الدعوة التي كان اكثر أبناء جيله ترديداً لها ، وهي التنبية للفقوة الحضارية التي بيننا وبين عدونا سواء العدو الغربي أو أدواته إسرائيل .

كما لم يكف عن ترديد أننا يجي أن نحتاط للروس أو الأمريكان ليقفوا دائماً خارج حدودنا ، وقد وضع الأولويات عنده عند حدود هذا الهدف ، إذ كتب ، أكثر من مرة ، وبأكثر من طريقة هذه الفقرة :

المهمة الأولى : الإجماع علي رفض أي وجود لقوة عسكرية ضارية ، سوفيتية أو أمريكية ، علي أي أرض عربية .. مهما كانت الاسباب ..

فإن ثبت وجود شيء من هذا ، فمن المهم حصره ، والضغط عليه ، حتي ينحسر تماماً .. ولا يسمح بفكرة الاستعانة بقوة خارجية كعنصر في أي صراع داخلي عربي مهما كان . (الاهرام ١٩٧٨/٧/٢) .

بما يشير إلى أنه تنبيه، منذ فترة مبكرة، إلى ما سوف يحدث في نهاية التسعينات، حين يحدث كل ذلك مرة واحدة، ويجد الوطن العربي نفسه في تكتلات ضد بعضه البعض وفي صفوف الاستعمار الجديد والقديم (أمريكا وحلفائها) ضد الإرادة العربية.

ويكون على بهاء الدين أن يستكمل (فائض) التفرق العربي، وصعود الاستعمار الأمريكي إلى أقصاه في حقبة الثمانينات..

وهي حقبة الوعي العربي وترديه

فلنصل إلى الفصل الأخير في حياة أحمد بهاء في الثمانينات .

(٥)

وإذا بدأ أن الاستعمار (الأمريكي) الجديد يقف خلف إسرائيل منذ نكبة ١٩٤٨، فقد وصل هذا الموقف إلى أقصاه في نهاية التسعينات، حين ركزت الولايات المتحدة مواقفها المناوئة للعرب في تشجيع هجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين واشعال أزمة الخليج والإفادة منها.

في هذا العقد - الثمانينات - برهنت الولايات المتحدة على تأييدها الخالص لإسرائيل في كثير من المواقف منذ تشجيع الغزو الإسرائيلي لبيروت، وقبله ضرب المفاعل الذري في العراق ١٩٨١ وبعده قصف ليبيا، وضرب مقر سكن رئيس ليبيا واغتيال عدد كبير من القيادات الفلسطينية.

فمن المؤكد أن الاستعمار الأمريكي لم يكن بعيداً عن كل هذه المواقف

سواء بالاشتراك فيها بشكل مباشر، أو من خلال إسرائيل.

وقد استطاع أحمد بهاء الدين رصد كل هذه الأحداث وتسجيلها كما فعل الجبرتي. وهذا المؤرخ كان أثيراً لديه واستخدم اسمه لأكثر من مرة.

وهذا الرصد نجده في الفترة الأخيرة قبل مرضه (في يوميات) الأهرام التي استمرت بين يناير ١٩٨٢ (عام قصف القوات الأمريكية البحرية لمدينة بيروت في عملية الحصار، وفبراير ٩٠ (عام قصف القوات البحرية لمدينة بيروت في عملية الحصار، وفبراير ٩٠ (عام استنفار الولايات المتحدة لحلفائها لاستكمال، فيما بعد، عملية «عاصفة الصحراء»).

وعلى هذا النحو راح يسجل مواقف هذا الاستعمار الذي لم يعد جديداً الآن، وإنما أصبح تقليدياً سافراً.

ولأن الأحداث والمواقف تحتاج إلى حيز لا يتسع مداه الآن، فسوف ننتفي موقفين لنرى كيف تعامل معهما قلم الكاتب وعقله وهما:

– الموقف في لبنان

– الموقف من هجرة اليهود السوفييت.

أما الموقف الأول فقد رد فيه أن موقف أمريكا ما زال يحسب لإسرائيل حينئذ، ويعمل لها، سواء إبان الغزو الإسرائيلي للبنان أو تورط أمريكا نفسها في هذا البلد الغربي.

وقد رصد للموقف الأمريكي إبان الغزو الإسرائيلي متعجباً أن تطالب أمريكا انسحاب السوريين والفلسطينيين دون أن تشير إلى ضرورة أن

تسحب إسرائيل، ويسأل هل إسرائيل هي المفوضة لتنفيذ هذه المهمة؟، (يوميات ٢٧/٧/٨٢)، وحين يلاحظ أن أمريكا تتحدث عن معاقبة روسيا لغزوها بولندا دون أن تشير إلى ما ترتكبه إسرائيل في بيروت من الغزو والقتل والتدمير (٢/٨/٨٢)، بل يلاحظ موقف أمريكا نفسها، في الذي يتم فيه حادث نسف مبنى قيادة القوات الأمريكية في بيروت يعيد استنكاره لوجودها. متطرقاً إلى وجود أمريكا الغريب في نيكاراغوا، يسأل: ماذا تفعل أمريكا هناك.

على أن الكاتب لا يكتفى بالرصد والهجوم على الاستعمار الأمريكي. بل جاوز ذلك إلى تحسب هذا المصير الأمريكي المعدد في لبنان، يقول:

لبنان لن تخسر أكثر مما خسرت. وكذلك الفلسطينيون، وكذلك العرب جميعاً. الدور الآن في الخسارة الجسيمة.. على أمريكا..

وقعت أمريكا فعلاً في رمال الشرق الأوسط المتحركة، والتي تزعمها باستمرار سياسات إسرائيل.. وسارت كرامة أمريكا في الميزان، (يوميات ٢٩/١٢/١٩٨٢).

هذا هو الموقف الأول، ويمكن أن نستطرد فيه كثيراً، لولا أنه يقترب ويتشابك مع عدة خطوط أخرى تؤدي إلى كوارث نهاية الثمانينات، فقد تدخل مع خط هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل.

ورغم أن الموقف من هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل موضوع فصل خاص، نتمهل فيه كثيراً عند هذه القضية، فسرف

الاستعمار الأمريكي

نكتفى منه الآن، برصد موقف الولايات المتحدة الأمريكية، لنرى جانباً، من رؤية أحمد بهاء الدين لهذا الموقف.

والظاهرة الأساسية هنا أن بهاء الدين يعاود الرأى الذى لاحظته منذ بداية الخمسينات، وهو أن بذور تأييد إسرائيل فى الاستراتيجية الأمريكية منذ فترة مبكرة استتبتت ثماراً كانت عميقة والجذور فى البنية الأمريكية لا المصالح الأمريكية فقط.

وهذا الموقف الأمريكى هو ما راح يكشف عنه من آن لآخر، من أن (الجذور) الصهيونية فى الحياة السياسية الأمريكية أقوى من رجحان كفة هذا الرئيس الأمريكى أو ذاك، أو رغبة هذا الرئيس الأمريكى أو غيره، فالرئيس الأمريكى أياً كان سيكون مكبلاً بالارتباطات الإسرائيلية - الأمريكية الاستراتيجية التى تشابكت مستعرضاً تسع شخصيات عرفت الرئاسة الأمريكية ومبرهنات من خلالها على هذا الرأى. (المساء ٨٤/١١/٥).

وعن ذلك راح يطلق تعبيرات دالة على سياسة أمريكا فى الشرق الأوسط، فأمرىكا تقوم فى مشكلة الشرق الأوسط بدور (الناقد الفنى) ببراعة يحسدها عليها أعظم النقاد فى العالم، وأحياناً تقوم بدور المذيع والمعلق التليفزيونى فى مباريات التنس أو كرة القرم.. فهى تمدح اللعبة الجيدة وأحياناً تنتقد اللعبة الخشنة أو السيئة.. معطية كل طرف حقه من اللوم أو الثناء. ولا شأن لها بما هو أكثر من ذلك.

كما أن أمريكا لا تقوم بهذا الدور إلا فى الشرق الأوسط أى إلا إذا تعلق

الأمر بإسرائيل، معدداً عمليات التدخل فى شئون الدول الأخرى وسوابق الغزو وإرسال الأساطيل إلى غير ذلك. (يوميات ١٣ / ١١ / ١٩٨٩).

وهذا الموقف ترجم له مرة أخرى بتعبير (الحياد المطلق) وهو حياد بين قوم اغتصبوا الأرض وجثموا عليها. وقوم ألقى بهم فى البحر أو الصحراء. (١٩٨٩/١١/١).

وتستمر هذه التنويعات فى يومياته مصوراً الاستعمار الأمريكى حتى تستفحل قضية هجرة اليهود السوفييت، وهنا يجد نفسه غارقاً إلى أذنيه للتنبه إلى خطورة هذه الهجرة، حارقاً ما تبقى من جهد نفسى وجسدى حول بيان لإدانة هذا الفعل.

إن شهرى يناير وفبراير كانا أكثر شهور الكاتب التى شهدت إعياء شديداً وإجهاداً عصبياً بالغاً، صور فيهما الموقفاً أمريكى تصويراً دالاً..

فما يحدث يسمى (جريمة العصر) وهى إحدى جرائم العصر بكل المعايير.

وقد تركز لوم بهاء الدين للأمريكيين خاصة على المساعدات التى تبذل لإسرائيل رغم تدفق هذه الهجرة، فهى مساعدات يصعب حصرها، كما تسمح باستخدامها فى توطين اليهود الروس فى الضفة الغربية بما يصعب تصديق ذلك، فهى تدخل إسرائيل من النوافذ والأبواب ومن تحت عتب الباب، ومن المال العام والخاص..

ولا يلبث أن يعود لأكثر من مرة لهذه المساعدات الخارجية الأمريكية، ورغم أن الكاتب يتحدث بعجب عن إعلان أمريكا المستمر للدفاع عن

حقوق الإنسان، فهو يجزم أنها ما زالت - فى قضايا العرب - تكيل بمكيالين ..

وعلى هذا يبرهن على أن ثمة خطأ متصلاً بين نكبات العرب جميعاً بين ١٩٤٨ / ١٩٩٠ والموقف الأمريكى، وهو خط ما زال يمتد فى اتجاه أفقى، يرفض أن يتوقف.

فهو لا يتأثر بتغيير هذا الرئيس أو ذاك، أو تعديل قنوات هذا القطر أو ذلك ..

وهو ما زال يتلمس وسائله فى (النقطة الرابعة) أو فى (صندوق النقد الدولى)، و(الديون) .. وما إلى ذلك ..

والأكثر من هذا أنه كشف النقاب عن وجهه أخيراً، فلم يعد يعنيه أن يستخدم وسائل اقتصادية إلا بالقدر الذى تعمل فيه الآلة الرأسمالية الغربية، أما الوسائل العسكرية، فقد كشفت عن وجهها الحقيقى .. وهو ما لم يخطئه كاتب مثل أحمد بهاء الدين.

(٦)

وهنا نصل إلى عدة استنتاجات أخيرة:

- يلاحظ أن أحمد بهاء فى الخمسينات والستينات تعامل مع الاستعمار الأمريكى فى إطار دولى وإطار محلى، وكلاهما - الدولى والعربى - يسعى إلى التركيز على خطر هذا الاستعمار

سواء تعلق الأمر بمصر أو بأى قطر من أقطار آسيا أو إفريقيا أو أمريكا اللاتينية، فى حين أنه حدث انقطاع عام فى فهم هذا الدور، إذ عاد للتعامل مع هذا الاستعمار فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى فى فترة السبعينات بوجه خاص.

وقد كان ذلك طابع توجهات مصر السادات.

- وتبعاً لتطور الدور الأمريكى السلبى، انعكس فى القومية العربية،

فالخطر الأريكى حاضر فى الستينات لكنه غير فعال فى التوجه العام.

وهو السبعينات فصاعداً حاضر بما يكفى للتأثير فى وحدة الصف العربى، بل لعب دوراً هائلاً فى ضرب الوعى القومى وتنشيطه.

- وهو ما انعكس - كذلك - فى قضية فلسطين، فهو فى الخمسينات والستينات يحاول التأكيد على الدور الإسرائيلى ومساعدته، فى حين أنه يضيف - فيما بعد - السيطرة على المقدرات العربية مستعيناً بإسرائيل..

ومن هنا، ظهر أكثر من قبل أن العدو الحقيقى للأمة العربية هو الاستعمار الأمريكى وليس إسرائيل، فأمرىكا هى التى تكيل بمكيالين.

الاستعمار الأمريكي

وأمریکا هی التي تمول إسرائيل بترسانات الأسلحة.
وأمریکا هی التي ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير
الفلسطينية.. وما إلى ذلك.

- والملاحظة التالية تلخص في أن (كل) القضايا التي واجهها
كاتب مثل أحمد بهاء الدين منذ الخمسينات هي هي لم تتغير.
وهو يعكس افتقار الوعي العربي بقدر تأكيد هذا الاستعمار
لسيطرته وتطويرها عبر استراتيجية علمية متوالية..

- وقد كان من الآثار الكثيرة التي انتهت إليها تجربة الاستعمار،
وصول الإجهاد الذهني والجسدي عند الكاتب العربي إلى
أقصاه.

وهو ما انتهى إليه أحمد بهاء الدين - بالفعل - مع هجرة
اليهود السوفييت لإسرائيل بمباركة أمريكا وضغطها.

إن الإمبراطورية القديمة والجديدة تسعى للسيطرة على المنطقة العربية،
وهو ما لاحظته وعمل له بهاء الدين منذ (النقطة الرابعة) ودعا في مقدمة
كتابه أن يلاحظه المثقفون ويعملون له، وبذلك، يصبح التصدي لهذا الخطر
مستمراً لم يتغير وإن تغيرت أساليبه وتدهورت وسائل المقاومة العربية.

وهو ما انعكس بالسلب على بهاء الدين الذي سقط مريضاً..

فلنتأمل أكثر عند هذه الهجرة (جريمة العصر) قبل أن نحاول التعرف
على فترة السقوط.

الفصل السادس

جريمة العصر

أولاً

اليهود السوفييت

«أليس لهذا الخبث من آخر،
(أحمد بهاء الدين)
«إن ما يرتكبه المستكبرون
في صفحة من صفحات التاريخ،
سوف ينقلب عليهم ذات يوم
في صفحة أخرى
من صفحاته الكثيرة،
بيان (جريمة العصر)

«جريمة العصر» هو التعبير الذي أطلقه أحمد بهاء الدين على الهجرة
الصهيونية من الاتحاد السوفييتي إلى إسرائيل لتشغل الأرض المحتلة
خاصة الأرض العربية التي احتلت عام ١٩٦٧ كالضفة الغربية.

وقبل أن نتمهل عند ملابسات هذه الهجرة وظروفها عبر (يوميّات)
الكاتب، ثمة إشارات لا بد من التوقف عندها..

الإشارة الأولى أن هول هذا الحدث على وجدان كاتب مرهف مثل بهاء
الدين، عرف ركاماً كثيفاً من المآسى العربية في نصف القرن الأخير،
وانعس فيها مشاركاً في عديد من كتاباته ومناصبه الفكرية..

هذا الحدث كان لا بد أن يصل إلى أعماقه، ويفجر فيه بركاناً عاتياً جهد

الكاتب طويلاً أن يخفيه تحت العقل لمواجهة الخرافات التي كانت تمسك بتلابيب الوعي العربى،

وعلى ذلك، فما كاد يواجه هذه الجريمة الجديدة طيلة يناير وأغلب أيام فبراير من عام ١٩٩٠، حتى نال الإجهاد العصبى منه كثيراً، وانعكس هذا كله فى نزيف مفاجئ فى المخ، نقل بعدها إلى أكثر من قسم للعناية المركزة، وانتهى به الأمر فى مستشفيات عربية وغربية إلى فقد جزء كبير من التحكم فى أعضائه، وتركيزه ذهنى.

وهو ما سنتمهل عنده أكثر فى الفصل التالى.

لم يكن بهاء الدين بعيداً عن الهم العربى، ولم يكن ليستطيع أن يكون بعيداً، فتداخل الخاص بالقومى.

فلم تعد جريمة العصر هى فقدان فلسطين فى النكبة الأولى ١٩٤٨، أو النكبات والهزائم التالية التى راح فيها أجزاء أخرى من الأقطار العربى، كما لم تعد جريمة العصر هى تواطؤ العالم كله ضد (الحق) العربى ممثلاً فى هذه الهجرة الأخيرة..

ولما أضيف إلى هذه الجرائم جريمة أخرى، تمثلت فى سقوط الكاتب العربى، ولم يهجر القلم أو الدعوة للمواجهة المستمرة.

لقد شهدت الفترة الأخيرة من شهر فبراير عام الهجرة اليهودية إلى الأرض المحتلة حول الشعلة العالمية إلى شئ أشبه بنار أخذت تأكل بعضها لهول ما انعكس فيها من واقع درامى حزين..

أما الإشارة الأخرى - فى نفس السياق - أن بهاء الدين تميز عن غيره من كتاب ذلك الزمان، بالدعوة المستمرة لمواجهة إسرائيل بالتفوق الحضارى .

إن هذه الجريمة لا تعود إلى الغفلة بقدر ما تعود إلى التخلف الشديد .
وهو ما انعكس فى الجريمة الأولى - قيام إسرائيل فى المنطقة العربية .

ثم ما ترتب على ذلك من جرائم أخرى .

كان آخرها الآن (نقل حوالى نصف مليون يهودى إلى إسرائيل ليشغلوا الضفة الغربية بالكامل، ويتم بناء على ذلك طرد الفلسطينيين من جهة، ومضاعفة قوة إسرائيل من جهة أخرى . (الأهرام ٢٧ يناير ١٩٩٠) .

إن ما يحدث حينئذ من تطاول الدول الكبرى علينا وخداعها لنا - الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وبريطانيا .. إلخ - إنما يعود إلى افتئادنا إلى الحس العلمى الذى يجب أن نتعامل به مع غيرنا ..

وهو ما انعكس منذ فترة مبكرة من موقفه فى قضية الصراع العربى - الإسرائيلى .

فمن يراجع كتاباته فى عديد من المنابر الصحفية أو الفكرية منذ نهاية الأربعينات حتى اليوم لا يخطئ حقيقة، هامة، هى: أن هزائمنا عنده إنما ترتبط أساساً بما أسماه (الفجوة الحضارية) بيننا وبين الغرب .

واسرائيل إنما هى جزء من الغرب ..

وإسرائيل إنما تقوم وتبارك من قبل الغرب..

وعلى هذا النحو، فإننا نستطيع أن نلاحظ أن كتاباته - وبوجه خاص السنوات الثلاث التي أعقبت هزيمة ٦٧ - لا تركز فقط على المواجهة العسكرية، وإنما في المقام الأول على هذه (الفجوة) الحضارية.

فالمسألة لم تتحدد الآن في الكثرة أو القلة، ولكن في التفوق الحضارى.

وقد لاحظ حاضروا معرض الكتاب في شتاء ١٩٩٠ - في يناير - أحمد بهاء الدين وقد خصص محاضراته عن الفارق الحضارى في الأساس الأول، وراح يكرر - لأكثر من مرة - أن الجندى العربى الذى حارب في ١٩٦٧، و١٩٧٣ فلاح.. مستوى وعيه الثقافى والحضارى أقل من الجندى الإسرائيلى، ولن تحل مشكلتنا مع إسرائيل - عسكرياً - طالما بقيت هذه الفجوة الحضارية، إن التقدم الحقيقى لا يحدث إلا باستخدام العلم والعقل والحر.

بيد أن هذا المفهوم لم يغفل نظرة الغرب لنا أو خداعه لمقدراتنا حين يلهج الكثير من سياسية الآن بالدعوة إلى (حقوق الإنسان)، ويقولون إنه من أجل حقوق الإنسان سمح الاتحاد السوفييتى بهجرة يهود من أوكرانيا أو موسكو إلى الضفة الغربية، أو القدس، ومن أجل حقوق الإنسان المتذرع بها تسعى الولايات المتحدة لتأكيد ذلك خلال الضغط على الاتحاد السوفييتى ومنح الأموال لإسرائيل لتحويل الهجرة إلى واقع.

وهو ما يصل بنا إلى ملابسات القضية وظروفها.

(٢)

لقد بدأت (جريمة العصر) بعد أن سمح الاتحاد السوفييتي بهذه الهجرة،
وشارك فيها بوجوه شتى أطراف أخرى كثيرة ..

ولهذا قصة لا بد من الإشارة إليها.

كانت قد بدأت رحلة اليهود السوفييت إلى إسرائيل بعد أن سمح الاتحاد
السوفييتي بهذه الهجرة، وشارك في هذا الرئيس الأمريكي بوش.

والواقع أن الدور الأمريكي كان واضحاً وراء هذه الهجرة.

بل سعت الولايات المتحدة إلى استخدام القضية للتشهير بالسياسة
السوفييتية واتهامها بانتهاك حقوق الإنسان، وزاد ذلك خاصة بعد مجيء
جورباتشوف إلى الحكم.

وتحت هذه الضغوط اضرت موسكو إلى منح اليهود - بالفعل - حق
مغادرة الأرض السوفييتية بشكل منظم منذ البداية، ثم عادت في مطلع عام
١٩٩٠ لتسقط كافة الحواجز أمام الهجرة، فظهرت موجات اليهود
المغادرين للأراضي السوفييتية أكثر من ذي قبل، وزادت ..

وقد راحت وكالات الأنباء والصحف في العالم كله تشير إلى هذه
الظاهرة الجديدة مما انعكس في وجدان الإنسان العربي بشكل محزن، وقد
كان المثقفون أكثر من تأثر بهذا، وراحوا يوزعون اتهاماتهم ذات اليمين
وذاات الشمال، وخاصة مع تزايد هذه الموجات. ففي الوقت الذي أقدمت
فيه موسكو على إطلاق حرية السفر لليهود انطلاقاً من روح العلانية

والتفكير الجديد غادر الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٨٩ حوالى ١٠٢ ألف شخص، أى ٣,٥ مرة أكثر من عام ١٩٨٨، بل إننا فى الأسابيع الأولى من عام ١٩٩٠ بلغ عدد المهاجرين ٨ آلاف شخص، فى حين كان عددهم فى العام السابق يصل إلى ١٢,٨٠٠ شخص.

كانت هذه الأسابيع - من بدايات عام ١٩٩٠ - هى الأسابيع التى شهدت موجات الهجرة اليهودية وهى تتصاعد.

وهى الأسابيع التى شهدت موجات الألم والإجهاد العصبى تتفاعل فى أعماق أحمد بهاء الدين وتتصاعد إلى أقصاها؛ إلى النقطة التى سقط فيها مريضاً، غير قادر على الفعل النفسى أو الجسدى..

ولعد مرة أخرى إلى ظاهرة الهجرة كما ترددت فى هذه الفترة..

لقد بادرت الولايات المتحدة الأمريكية التى أسهمت فى زيادة حدة الهجرة إلى إسرائيل، بغلق الأبواب أمام اليهود المهاجرين إليها من موطنهم الأول، وتم ذلك بفرض حصار على النازحين إليها لحساب السفر لإسرائيل.

فإذا كان اليهودى فى السابق يلقى، بمجرد مغادرته الاتحاد السوفييتى، صفة لاجئ، وهذا يعنى حوالى سبعة آلاف دولار إضافة إلى توفير السكن والمساعدات الأخرى، فإن عليه الآن أن يثبت مبررات تخوفه من أنه ببقائه فى الاتحاد السوفيتى سيعرض نفسه لخطر المطاردة، وهو ما ينعكس على إسرائيل، فبعد هذه النقلة الأمريكية الموفقة، يمكنها الآن أن تكون على ثقة بأن اليهود الذين يغادرون موسكون بتأشيرة إسرائيلية لن يفضلوا عليها أى مكان آخر فى أمريكا.

اليهود السوفييت

وعلى هذا النحو، ففي حين كانت الأصوات الإسرائيلية - خاصة القوى اليمينية - تثير غضب البلاد العربية، كان الموقف السوفييتي والأمريكي يثير الحفيظة العربية.

خاصة أن موقف الكثير من القوى اليمينية في دول غرب أوروبا، وفي مقدمتها بريطانيا - كانت لا تخفي شماتها في الأقطار العربية بشكل سافر..

وقد كان أكثر ما يثير الوجدان العربي أن هذه الهجرة كانت تصب في الأرض العربية المحتلة، في وقت كان اسحق شامير لا يتردد في القول أن هذه الهجرة إنما تكرر لتكوين إسرائيل الكبرى، مما كان يثير التوتر في المنطقة كلها..

ورغم التصريحات التي خرجت في الفترة الأخيرة من الاتحاد السوفييتي بما يؤكد حرص الاتحاد السوفييتي على رفضه لسياسة إسكان اليهود المهاجرين في الأرض التي تحتلها إسرائيل، فمن الملاحظ أن جميع المثقفين العرب، وفي مقدمتهم المثقفون اليساريون، كانوا يبدون غضبهم الجارف من هذه السياسة، التي لا تشارك فيها قوى الإمبريالية الأمريكية فقط، وإنما القوى السوفيتية الصديقة في المقام الأول..

ويتحدد هذا الغضب عند دعوى حقوق الإنسان التي يتذرع بها الآن جميع الأطراف، ولا يقصدون منها إلا حقوق الإنسان اليهودي، لا العربي.. وهو ما عبر عنه أحسن تعبير مثقف مثل أحمد بهاء الدين..

(٣)

يتحدد لوم أحمد بهاء الدين، منذ البداية، على العالم كله وليس الاتحاد السوفييتي فقط، في قضية (حقوق الإنسان)، وقد كنا - نحن - كأطوار عربية كثيرة - نتسابق لنهاجم ما سميناه مع الغرب انعدام حقوق الإنسان في روسيا، وكان ذلك بقصد لوم الذات قبل لوم الآخرين.

غير أن بهاء الدين لا يلبث أن يقول صراحة بمسئولية الاتحاد السوفييتي ريترك مساحة (اليوميات) لأكثر من مرة لتأكيد ذلك، فالاتحاد السوفييتي ليس بريئاً من ذلك، صحيح أنه لم يساوم لصالحه في ذلك، غير أن هذا لا يقلل من مسئوليته، إذ راح يخلط بين حقوق الإنسان، وهجرة هذا الإنسان إلى أرض أخرى تغتال فيها الحقوق.

إن الاتحاد السوفييتي مسئول مسئولية كاملة عن هذه الجريمة النكراء والتي ترتكب في حق الشعب الفلسطيني المقلوب على أمره، . (يوميات ١ فبراير ١٩٩٠).

إن روسيا تقول إنها ضد توطيين مهاجرين منها إلى الضفة الغربية وأنها - وهنا يشدد الكاتب بسخرية لاذعة - وقد اعتنقت المفهوم الأمريكي لحقوق الإنسان لم تعد تملك شيئاً، ولكنها ضد توطيتهم بالضفة الغربية .. (و) المهاجرون الروس هل سترسل روسيا جنوداً يراقبون من يسكن في الضفة الغربية رأساً؟ ومن يسكن في إسرائيل مكان مهاجر سابق يذهب للضفة الغربية .. كلام فارغ، . (٣ فبراير).

غير أن الهجوم الأكبر تركّز ضد الولايات المتحدة الأمريكية، فبعد ترديد

اليهود السوفيت

وكالات الأنباء مسئولية أمريكا في هذه الهجرة وخطورتها، فإن واشنطن تذيب على لسان المتحدث الرسمي البيت الأبيض أن أمريكا لا توافق على تروطين المهاجرين اليهود في الضفة الغربية بعد ضغطها لسنوات على روسيا للسماح بهذه الهجرة تحت شعار حقوق الإنسان.

إن أحمد بهاء يعقب على إعلان واشنطن أنها ترفض أن تنفق مساعداتها لإسرائيل على المشروع، فيقول:

«الذي رفضته أمريكا تحديداً أن تعتمد ميزانية جديدة لهذا الغرض بالذات .

أما الحديث عن عدم استخدام المساعدات الأمريكية الهائلة لإسرائيل في هذا المجال، فهو حديث مضحك حقاً..

إن أنواع المساعدات الأمريكية متعددة ومتنوعة بدرجة يصعب حصرها .

سلاح ومال ومشروعات وشراء من إسرائيل وأبواب خاصة بها لتبيع في أمريكا ، وإعفاءات من الضرائب، إلى آخره، فهي مساعدات تدخل إلى إسرائيل من الأبواب ومن الشبائيك ومن عقب الباب ومن كل مدخل،

ومهما قيل في تخصيص هذا المال لذلك الغرض، فكيف يمكن الرقابة.. وهل سيوجد حارس أمريكي على كل منفذ للصرف في إسرائيل؟..

وإذا كانت أمريكا تساعد إسرائيل بالسلاح والطعام والتجارة
والمنح والقروض والتبرعات الخاصة.. أليس منطقياً
وطبيعياً أن تحصل إسرائيل من هذا كله ما تنفقه تحت
عشرات المسميات على إسكان اليهود الجدد في الضفة
الغربية؟.

.....

أليس لهذا الخبث السياسى من آخر؟ (٢٨ يناير ١٩٩٠).

وهو يصل من ذلك كله أن الدولتين الكبار في حالة تواطؤ أكيد، بحجة
حقوق الإنسان، وهذا التعبير (حقوق الإنسان) إنما يحمل في هذا العصر
دلالة مغايرة لما نعرفه عنه، فهو يعكس وضع حقوق الإنسان اليهودى في
مرتبة مقدمة، وحقوق الإنسان الفلسطينى في مرتبة متدنية، فهو استخدام
لحقوق الإنسان كسلاح ضد حقوق الإنسان.

وكما أنه لم يبريء الروس أو الأمريكين من ذلك. كذلك لم يبرئ
الإنجليز إذ كانت تاتشر في هذا الوقت تعلن عن معارضتها لتوطين اليهود
السوفييت في الأراضى المحتلة، وتخريفا لهجة الغضب والسخرية المرة من
رئيسة وزراء بريطانيا أن نجتزئ هنا هذه الفقرة الطويلة في يومئذ
الأخيرة.

يقول:

«يجب أن نوجه الشكر إلى مسز تاتشر رئيسة وزراء
بريطانيا، فهي بوصفها رئيسة وزراء انجلترا أولاً، وبوصفها

خليفة لورد «بلفور» صاحب الوعد المشهور بإقامة «وطن قومي»، لليهود في فلسطين، وليس دولة، وإن كان «وايزمان الأول» زعيم الحركة الصهيونية وقتها حين قال له أنصاره إنهم يريدون دولة وليس مجرد وطن قومي، قال إن كل لبيب يجب أن يقرأ «وطن قومي» على أنها دولة في الوقت المناسب.

ولأنها رئيسة وزراء إنجلترا التي قامت - أي إنجلترا - لا تاتشر - قامت بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، حتى سلمت فلسطين لليهود..

بكل هذه الصفات، والحيثيات، يجب أن تشكر مسز تاتشر لأنها بكل هذه الصفات والحيثيات رأت أن الأمر زاد عن حده، لأنها أعريت عن معارضتها لتوطين اليهود السوفييت في الأراضي المحتلة، وقالت إن الغرب عمل جاهداً من أجل تحقيق هجرة اليهود السوفييت من الاتحاد السوفييتي، ولكنه سيكون من غير العدل إلى حد بعيد أن تتحقق حرية اليهود السوفييت على حساب حقوق الفلسطينيين،.. (٢٢ فبراير ١٩٩٠).

لم يتوقف الكاتب عند الإدانة وكشف المواقف، وإنما بدأ أكثر إيجابية حين حاول أن يزرع الكاتب المصري (الجالس القرفصاء) لينهض، ويجاوز التعبير النقدي إلى التعبير الفعلي..

وهنا تصاعد هذا التعبير رويداً رويداً..

لقد راح - عبر يومياته - يدعو المثقفين إلى تدعيم الانتفاضة بمبالغ كبيرة تشد من أزر أصحابها..

وراح يشير بأسى شديد إلى ما يحدث في لبنان كانعكاس محزن لهذا الواقع العربي الذي أدى - ضمن ما أدى - إلى هذه الهجرة..

وراح يعيد - لأكثر من مرة - أن ما يحدث الآن من الهجرة لا يزيد من قوة إسرائيل وحسب بقدر ما يزيد من عنجهيتها، ومن ثم، عدم استقرار المنطقة، بل وينسف أى أمل في المستقبل للاستقرار، فما يحدث الآن، من فهم حقوق الإنسان من جانب واحد إنما يدفع بالمنطقة إلى حالة من الفوضى يصعب التنبؤ بها بما ستؤدى إليه، وهو ما يجب معه ألا نضعف أو نسكت عن الكفاح مهما كانوا مستكبرين ومهما كنا مستضعفين.

بيد أن التعبير وصل إلى أقصاه، حين انطلق الكاتب المصرى - بالفعل - ليحول التعبير إلى واقع عملى شديد الوعى بما يحدث، مترجماً ذلك الواقع إلى «الوعى الممكن»، فانطلق يدعو المثقفين إلى اتخاذ موقف عملى أكثر من اللوم والشجب، فشغل منذ منتصف فبراير وربما قبل ذلك بقليل بصيغة (بيان) دعا إليه القوى الوطنية، ويسجل جميع الوطنيين المخلصين موافقهم من هذه الهجرة.

وبالفعل انتهت جهوده الحثيثة إلى صيغة (إبيان) اختار له عنوان (جريمة العصر في ضمير التاريخ وفي طيات المستقبل) واستجاب له أحد المواطنين العرب في الكويت، فقام بدفع تكاليف نشره (كبيان) فى جريدة

(الأخبار) فى ٢٥ فبراير.

ويلاحظ على هذا (البيان) أنه وقع عليه عدد كبير جداً من الوطنيين المصريين ومن شتى التيارات الفكرية .. والحزبية.

كما انتمى هؤلاء إلى شتى المؤسسات الرسمية وغير الرسمية فى الدولة ..

كذلك، يلاحظ أنه انتمى إليه عديداً من المثقفين من شتى الأجيال التى عرفتها مصر منذ الأربعينات حتى اليوم ..

لقد استطاع أن يؤلف أحمد بهاء الدين بين صلاح حافظ ومأمون الهضيبي، كما استطاع أن يؤلف بين أحمد حمروش وثروت أباظة ..

وقد كان من الغريب أن نقرأ مثل هذه الأسماء متجاورة فى (بيان) واحد، وعلى سبيل المثال: إبراهيم بدران، إبراهيم سعد الدين، السيد يس، الفريد فرج، جلال أمين، حلمى التونى، سعيد سنبل، سناء البيسى، عادل إمام، عادل حسين، فاتن حمامة، فيليب جلاب، كمال الطويل، ليلي تولا، محمد إبراهيم كامل، محمود السعدنى، ميلاد حنا، يوسف إدريس ..

وتتعدد الأسماء لتصل إلى قرابة تسعين اسماً، تتباين الانتماءات وتتعدد، لكنها تتحدد عند (الموقف) الواحد ..

وهو موقف وصل بأحمد بهاء الدين إلى حالة من الإعياء الشديد إلى درجة السقوط فى صراع مع المرض الطويل ..

ومن الصواب أن ننشر هنا (البيان) كاملاً مدبجاً (بتصحيح) بعض

العبارات بخط أحمد بهاء الدين نفسه،

تقول صيغة البيان:

جريمة العصر

فى ضمير التاريخ وفى طيات المستقبل

نحن أبناء الأمة العربية فى طليعة المنادين بحقوق
الإنسان، ليس لأن حقوق الإنسان جاءت، أول ما جاءت،
فى بلادنا عبر الأديان السماوية فحسب، ولكن لأن
المظلومين هم عادة أول
المطالبين بحقوق الإنسان وأخلصهم، ونحن فى هذا العصر
مظلومون.

إن من أول حقوق الإنسان حقه فى أن يرحل إلى حيث
يريد، وأن يعيش حيث يريد،

وما تاريخ الدنيا إلى هجرات عمرت أرجاء الأرض،
مكتشفة قارات جديدة بأكملها، ولقد كانت

الهجرة دائماً عفوية اختيارية غير منظمة، خالية من أى
نية غزو أو عدوان، ولكن تهجير

مئات الألوف من اليهود السوفييت لا يندرج في هذا الإطار، فهذه أول مرة في التاريخ يتم التهجير بتواطؤ دولي، وعلى يد الأقوياء، واغتصاب لأرض الآخرين، وعدواناً ومحوً لحقوق

الإنسان الفلسطيني في أرضه الأصلية، فحق الإنسان لم يقترن أبداً بإجراءات ترغمه على

الذهاب إلى مكان معين، وليس سرّاً أن المهاجر اليهودي السوفييتي يريد أن يذهب أساساً

إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها من دول الغرب، بينما كافة الإجراءات اتخذت

لكي ترغم المهاجرين على الذهاب رأساً من الاتحاد السوفييتي إلى إسرائيل، دون توقف في

مكان يقررون فيه بملء حريتهم إلى أين يريدون الذهاب، كما كان يحدث من قبل.

إنها عملية غزو متكاملة أركان الغزو، وإذا كانت أسلحة القتال لم تستخدم فيها، فإن

المستخدم فيها هو أسلحة القدرات المادية الطاغية الأخرى من مال غزير وطائرات كثيرة

وسطوة دولية بغير حدود، هدفها الأساسي طرد العرب من

أراض لهم، لا تصل مساحتها إلى
واحد من الملة من أراضى الدولتين الأكبر، يسكنها ثلاثة
ملايين مواطن، وذلك فى عملية
إجبارية تفرض عليهم من دولتين بهما أكثر من خمسمائة
مليون مواطن، لاقتلاعهم اقتلاعاً
ومحوهم محوًا، ولانتزاع أرض مقدسة، ولد فيها أنبياء من
شتى الأديان، من ذاكرة البشرية
جمعاء، استنادًا إلى أسطورة فى غياهب التاريخ عن وعد
بين اله وبين شعب مختار، منحه بمقتضاه قلب الدنيا، ما
بين النيل والفرات، وإلى كذبة غاشمة عن «أرض بلا
سكان» .
والأخطر من هذا كله أن هذا يجرى فى إطار من الدجل
السياسى على مستوى فريد من
حكام العالم المتجبرين وتحت عنوان حقوق الإنسان .
إن الترجمة الصحيحة والوحيدة لحقوق
الإنسان فى هذه القضية هى الاعتراف بحق تقرير المصير
للشعب الفلسطينى فى إقامة دولته المستقلة على أرضه،
وحق اليهودى السوفيتى فى أن يهاجر إلى حيث يشاء .
وما هذا البيان إلا لتسجيل الجريمة فى ضمير التاريخ،

ولتأكيد أن ما يرتكبه المستكبرون في حق المستضعفين في
صفحة من صفحات التاريخ سوف ينقلب عليهم ذات يوم
في صفحة أخرى من صفحاته الكثيرة.

* * *

والبيان لا يحتاج إلى تعليق..

فإذا جاز لنا أن نعيد النظر إليه، في ظروف عصره، لرأينا أنه
يتحدث عن هجرة اليهود من أوكرانيا إلى القدس حيث (المستضعفين)
أمام هذا الغزو الكامل لنا، في عالم كان واقعته يشي بما سوف نصل فيه في
نيران (عاصفة الصحراء).

البيان يتحدث عن (المستضعفين)، بيد أنه لا يخفى - ضمناً - حالة
أولئك المتخاذلين في هذا الشتات العربي التعس .
وهو ما دفع ثمناً له فادحاً صحياً وعصبياً..

ثانياً

جريمة العصر

«بهاء»..

ما الذى منعك أن تقاوم

طارئ المرض الذى ألم بك ؟،،

(محمد حسنين هيكل)

«دفعت ثمنًا صحيًا وعصبيًا،

«بأى وجه نلقى العالم..

وبأى وجه نقاوم التآمر علينا،

«دفعت ثمنَ صحيًا وعصبيًا»..

هذه هى الحالة التى وجد نفسه فيها عشية إقتراف (جريمة العصر)

إبان هجرة اليهود السوفييت إلى الأراضى العربية.

لقد كان أحمد بهاء الدين نموذجاً فريداً للمثقف العربى الذى لا يستطيع وجدانه تحمل وطأة الحاضر القاسى، أو يفهم طبيعة هذه العلاقة فسقط صريع المرض، لم يستطع أن يصدق هول ما يحدث حوله إبان تبدل التحالفات الدولية وتغيير كثير من المواقف العالمية، فسقط فى الفترة الأخيرة من الثمانينات أسير القلق الدائم وأعراض المرض وأطياق الكآبة، ولم يجد طريقاً واحدة للخلاص مما هو فيه فى وجود واقع عربى ردى.

لم يعثر على راحة أو طمأنينة فى وجود عدو خارجى يعمل حثيثاً لتنفيذ

مخططه الاستيطاني، وداخلي لا يريد التنبه إلى ما يحدثه حوله:

«كيف والصحف لا تتحدث إلا عن قتال بيروت وقتال في طرابلس ولبنان، وقتال في حماة بسوريا، وقتال بين العراق وإيران.. وقتال على الحدود الجزائرية المغربية». (يوميات ٦ مارس ١٩٨٣).

ولم يكن من المصادقة أن يصاب أحمد بهاء الدين بضغط عال عقب انفصال الوحدة بين سوريا ومصر ١٩٦١.

أو يصاب بمرض السكر عقب هزيمة ١٩٦٧.

أو يصاب بنزيف المخ ويفقدان الوعي إبان جريمة هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين، وقبل الأحداث الدامية في الخليج قبل غزو العراق للكويت بعدة أشهر فقط. فبراير ١٩٩٠.

لقد اختفى الخاص في العام، أو تداخلت الذات في قضية الهم العربي بحيث كان من الصعب التفرقة بينهما.

وأصبح الشعور الذاتي والحس القومي لديه أشبه بنظرية الأرائي المستطرفة، إذ يتساوى السائل في الطرفين بقدر واحد وفي وقت واحد.

ونستطيع في ضوء ذلك مراجعة مواقفه القومية كلها إبان عقد الستينات - عقدها - مروراً بعقد التمزق العربي في الثمانينات وصولاً إلى عقد المحاور الزائفة والأحلام الخائبة في الثمانينات..

فلنتمهل أكثر عند انعكاس هذا الواقع على وجدان المثقف العربي قبل أن نعود إلى آثاره المباشرة.

(٢)

كانت الخلافات الأيديولوجية قائمة بين الأقطار العربية، ولم تنته المبادرات الوهمية.

وكانت الخلافات بين النخب السياسية كامنة، ولم تنفجها سياسة (تبويس اللحي) بين الحكام.

ثم كانت الخلافات بين الثروة والثورة دائمة لا ينفجها الخطر الخارجي المترص بالجميع.

ولم ينقص هذا المشهد سياسة الدول الغربية التي لم تتوقف عن إلقاء المياه في طاحونة الخلافات، أو خلق الحدود واستثمارها في عصر ما بعد الاستعمار التقليدي، لا يختلف في هذا إنجليز عبدالكريم قاسم في عام ١٩٦١ أو أمريكيان صدام حسين في عام ١٩٩٠.

كان المثقف العربي يحيا كل هذه التناقضات حائراً.

فقد تعدى الأمر الخلاف التقليدي - كما كرر ملاحظته - من مرحلة التمزق السياسي إلى التمزق المسلح.

وأصبحنا نستبدل سياسة قطع العلاقات بسياسة قطع الأمل من حوار قائم على التفاهم إلى حوار قائم على قطاع الرقاب.

لقد استمر هذا الواقع العربى لنصف قرن أو يزيد.
وأصبح المثقف العربى (تشخيصاً) لهذا الواقع وتعبيراً عنه..
مر المثقف العربى بفترات طويلة حاول فيها التغيير والإصلاح،
مر بمرحلة فقدان الأمل إلى فقدان الوعى إلى القصور الذاتى..
ونستطيع أن نراجع مصائر المثقفين فى النصف قرن الأخير لنرى -
بسرعة - كيف تحول المثقف العربى من متمرد إلى متردد إلى مبرر
وضحية فى نهاية الأمر..

الجيل السابق من المثقفين العرب سقط - فى أغلبه - فى أحابيل
الأمراض العصرية، وليس المرض العضوى غير وسيلة للتعبير عن موقف.
إن محمد مندور يسقط بنوبة قلبية ولم يكن قد تعدى الخامسة والخمسين.
وأثور المعداوى بانفجار فى المخ وموت مبكر ولم يكمل الخامسة
والأربعين.

ورميس يونان لقى مصيره فجأة بعد معاناة طويلة لإثبات الذات.
ومحمد الخفيف وفؤاد كامل سقطا بنوبات القلب.
ثم جاء الجيل التالى لنرى تحول أمراض العصر إلى علل ذهنية:
نقل إسماعيل المهدي من المعتقل إلى مستشفى العقلية، إلى القبر،
وشوهد نجيب سرور ينظم المرور فى إحدى إشارات مدينة الإسكندرية.
ومثل هذا المصير لقى صلاح جاهين ويوسف إدريس ومحمود دياب

وصلاح عبدالصبور.

بدأت النهايات عضوية أو نفسية، غير أن الخلل العقلي - في الغالب - هو الذي حدد المصير الطبيعي لهم .

ونفتح عين العدسة إلى نهاياتها لتعاود مصائر مثقفين عرب كثيرين في الأقطار العربية لم تختلف نهاياتهم عن هذه النهايات وإن اتخذت أحياناً شكلاً نفسياً أو عضوياً:

غسان كنفاني بمرض السكر، وتيسير سبول بهزيمة ٦٧،
وخليل حاوي الذي رفض رؤية الدبابات الإسرائيلية في شوارع بيروت،
فأثر أن يلقي مصيره بيده هو.

ثم جاء دور ناجي العلي وعزيز جاسم. وغيرهما..
ويبدو أن ثمة علاقة أكيدة بين نهاية كل من ناجي العلي وأحمد بهاء الدين، إذ أن الأحداث تشير إلى أن الأول قُتل في إحدى شوارع لندن، في حين أن أحد التقارير الطبية الصادرة في لندن تقول غير ذلك: إن ناجي العلي مات بسكتة قلبية، قبل أن تصل الرصاصة إلى الرأس وهي تتجه إلى الدماغ بأعشار قليلة من الثانية، إذا ما قسمت الثانية إلى مائة عشر.. أمن ناجي العلي، فيما يبدو، فإنه اختار هذا المصير..

هل رفض ناجي العيش في هذا الواقع العربي وهزله؟
نجيب عن هذا السؤال حين نصل إلى أحمد بهاء الدين..
تشير التقارير الطبية إلى أن أحمد بهاء الدين وصل في نقطة معينة من

تهرو هذا الواقع العربى ورداءته إلى اختيار عدم الوعى .،

لقد فقد الوعى تماماً والسبب كان - بشهادة طبيب القلب المعالج له د/محمد عطية . نزيف فى المخ، انتهى به إلى حالة من شلل فى الحركة وخاصة فى جانبه الأيسر.

لقد كان ذلك فى الظاهر مرجعه إلى الإرهاق العصبى والنفسى الشديدين إبان ارتفاع المد العالى لهجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين إبان تفكك الاتحاد السوفييتى فى نهاية الثمانينات،

أما حقيقته، فقد كان يحمل آلاماً مبرحة - إكلينيكية و نفسية - لسنوات طويلة خلت من قبل ..

وهنا، يعاود السؤال مرة أخرى على شكل إجابة:

هل رفض بهاء العيش فى هذا الواقع العربى وهزله؟

فلنحاول الاقتراب أكثر من هذا السؤال / الإجابة.

(٣)

فى الحقبة الأخيرة من الثمانينات كان السهم الأحمر يصل إلى غايته بهجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين.

كان اليسار العريض منذ فترة مبكرة فى مصر يضع آمالاً عريضة على الاتحاد السوفييتى فى مواجهة خطر الاستعمار الغربى - والأمريكى بوجه خاص - إذ كان يمثل فى الحرب الباردة القوى المناصرة لحركات العالم

الثالث.

كذلك كان موقف الاتحاد السوفييتى على المستوى الاقتصادى هاماً لإنجاز الكثير من المشروعات الصناعية والإنمائية.

وهو ما اتفق حوله القوميون العرب واليسار بجميع فئاتهم.

غير أن مضى الأحداث فى نهاية الثمانينات أشار إلى تخلخل هذا الدور وتراجع.

وقد كان أحمد بهاء الدين مرتبطاً، وإن يكن بشكل غير مباشر، بالقومية العربية وحزب البعث السورى فى فترة من الفترات، وهو ما اتسق مع موقفه من الاتحاد السوفييتى المؤيد لكثير من الحريات فى الوطن العربى..

ويقدر ما كان دور الاتحاد السوفييتى باعاً على الثورة ضد الغرب الاستعماري بقدر ما كانت صدمته فى تخليه عن هذا الدور، إذ رضخ للولايات المتحدة الأمريكية فى عملية تسهيل هجرة اليهود السوفييت لإقامة «إسرائيل الكبرى»، مما أطلق معه بهاء الدين على بشاعة الظاهرة (جريمة العصر)...

وقد انعكس موقف بهاء الدين - ضمن شريحة من القوميين العرب - فى هذا الغضب وتلك الحيرة التى واجه بها هذه الهجرة، فى حين كان غائباً عما يجرى ضده، وهو ما عبر عنه بجملة ترددت كثيراً فى كتاباته فى الشهر الذى سقط فيه، كان يقول دائماً:

بأى وجه نلقى العالم وبأى وجه نقاوم التآمر علينا. (١٩٩٠/٢/٥).

ولأنه لم يستطع تصديق ما جرى لصراوته، سقط مريضاً...
كان الموقف - بتراكماته الطويلة السابقة - أعلى من منطقة..
وهنا، يأتي دور التفسير الطبي.
ويتعدد شهود العيان لهذه الفترة الأخيرة.

يفسر د. عطية - طبيبه الخاص - ما جرى بأنه يعود إلى الإنفعالات
النفسية الحادة والمستمرة التي عرفها بهاء الدين لسنوات طويلة،

لقد أفرزت مواداً منشطة في الجهاز السمبثاوى Sympathotic، فمع
تقلصات هذا العصب، وتوتره المستمر مع توالى الأحداث العنيفة
والإنفعالات المتوالية حدثت تفاعلات سلبية في الشرايين التاجية، فإذا
أضفنا إلى ذلك أن بهاء الدين كان مصاباً - منذ الستينات - بارتفاع حاد
في الضغط والسكر، يسهل تفسير الحالة التي انتهت إليها، وهي حالة نزيف
المخ المفاجئ في ظهر أحد أيام الجمع الحزينة - ٢٣ فبراير ١٩٩٠ -
وأصبحنا أمام تفسير إكلينيكي محدد هو انفجار في شرايين المخ مع تصاعد
ارتفاع الضغط وأخطار السكر، وانعكس ذلك كله في الكلام والتفكير
والوعى. (محضر نقاش مع د. محمد عطية ١٣/٧/١٩٩٢).

تؤكد ذلك سكريتيرة مكتبه في اليوم السابق مباشرة - الخميس - بأنه
وقد عرفنا فيه خفوت الصوت والهدوء الشديد، لم يعد كذلك، فقد بدا التوتر
لديه ينعكس في لفتاته وحركاته وصوته المرتفع.

سألته: لماذا أنت كذلك؟

فأجاب (مراوغاً) : «لأن زياد ابني مسافر اليوم» .

كان الإرهاق المستمر ليقع على البيان أكبر عدد من المثقفين والمسؤولين المصريين، قد وصل إلى مداه، وكان الكثير من أولئك يصمتون في تأدب حتى يقرأ لهم البيان - غالباً ما يكون في التليفون - ثم يبدأون في المراوغة كيلا يوقعون.

اصطدام المثقف في كثير من أصدقائه وزملائه، أو بالأحرى اصطدامه بمواقفهم الغريبة عليه.

ذهب بهاء الدين في هذا اليوم - مسرعاً - إلى لقاء كان محدداً سلفاً مع السفير الأمريكي، ليعود إلى منزله مجهداً، ليصبح في اليوم التالي وقد نال منه الإعياء مداه ..

وهنا تبدأ شهادة زوجته .

لقد لاحظت - تؤكد - أن الشهر الأخير كان أسوأ شهر في حياته على الإطلاق.

كان دائم التفكير في البيان.

دائب السؤال عن أصدقائه .

دائم التوتر لكتابة يومياته حول (جريمة العصر) وهو من صك لأول مرة هذا المصطلح.

كنت أراقبه وهو يعمل بجذ ودأب وهو يحمل ثقل أمراض كثيرة:

- ارتفاع الضغط

- زيادة نسبة السكر
- القصور في الدورة الدموية
- جلطة في القلب (يشير ملفه الطبى أيضاً إلى ضعف القلب)
- التهابات روية.

ويشير طبيبه المصرى ونظيره الإنجليزى بعد نزيف المخ إلى أنه لم يعد
ليستطيع التحكم فى أعضائه أو تركيزه الذهنى أو وعيه بشكل عام، فسقط
فى غيبوبة لم يخرج منها أحد خارج الذات.

يقول طبيب القلب. كان أحمد بهاء الدين أكثر مرضاى هدوءاً، لكنه -
على العكس من مظهره الخارجى - كان بركاناً داخلياً بفعل الأحداث
العربية المؤسفة التى كنا نعيشها جميعاً.

ونعود إلى شهادة الزوجة صبيحة الجمعة الحزين:

استيقظنا صباحاً على صوته المتهدج وهو يعانى من حرارة مرتفعة جداً
عن القدر الطبيعى، سحب ذلك ارتفاع مخيف فى الضغط واضطرابات
فى القلب،

اعتقدنا جميعاً أنها نزلة (برد) اتصلت بأحد أقسام الطوارئ بالمستشفى،
جاء طبيب اختصاصى لا يعرف بهاء، بعد الكشف عليه اعتقد هو أيضاً أنه
مصاب بنزلة برد، كانت حالته الصحية تتصل بحالته النفسية السيئة طيلة
الشهر الأخير، بناء على تشخيصه غير الصحيح قام بحقنه ضد البرد، ساعد
ذلك فى الوصول بحالة الضغط إلى أقصاها واقترن بنزيف المخ.

جريمة العصر

نظرت إلى وجهه، أدركت - فى حالة الإغماء وبوادر الشلل الذى ظهر على وجهه - أن ثمة أمر غير طبيعى يمر به، استدعيت أكثر من صديق له، نقلناه إلى المستشفى، انتقل إلى أكثر من مستشفى فى القاهرة وخارجها ولم تتحسن حالته، لم يعد يتحرك كثيراً، فقد القدرة على الحركة والوعى.

هل رفض العيش فى هذا العالم فراح إلى هذا المصير؟

تكمل شقيقته:

لم أربها بهذا الغضب وتلك العصبية إلا هذا الشهر الذى سبق إصابته، كان دائم الحديث عن (الجريمة، جريمة العصر)، وكان المجهود المصنئ الذى يبذله مرسوماً على خطوط وجهه، لم يكن ليطلق أن يتحدث أحد معه خارج هذا الموضوع، كان دائم الشرود، والصمت، والشكوى من أقرب أصدقائه الذين - كما ردد - رفضوا التوقيع على البيان الذى يدين الموقف السوفييتى والأمريكى والإسرائيلى.. كان حزيناً جداً من الخارج والداخل، من أعدائه وأصدقائه.

يفسر الموقف أكثر اختصاص عالم النفس - د. مصرى حنورة -

يضيف:

هناك عامل ينسحب على المثقفين والمفكرين هو ما عرف فى الدراسات الإبداعية - الحديثة باسم الحساسية للمشكلات أو رؤية المشكلات.

بمعنى أن المفكر المبدع هو الذى يستطيع أن يرى العيوب الموجودة حوله، وهو لا يراها فحسب بل إنه يحاول أن يتعمق فى داخلها بشكل أو بآخر، وهو مطالب دائماً بأن يحاول أن يقدمها إلى من يهيم الأمر، سواء

كان قارئاً أو زميلاً أو مسئولاً بالشكل الذى يلفت النظر ويسلط الأنواء ويركز الانتباه، بحيث يكون من السهل على من يتلقى أن يحس نفس الإحساس، وهو موقف ناقد أو على الأقل موقف يحمل رأياً ووجهة نظر.. والقيام بهذا الدور يصحبه انفعال. حيث اتضح لنا فى كثير من الدراسات التجريبية حول الأداء الإبداعي أن أحد أهم العوامل المؤثرة فى مسيرة فعل الإبداع هو البعد الوجداني بانفعالاته ودوافعه وتهويماته وعشقه ورفضه وقبوله.. إلخ. بحيث أن المبدع فى لحظة الكتابة يكون واقعاً تحت تأثير قوى متباينة، بل بعض المبدعين والمثقفين ذكروا أنهم لا يستطيعون الخلاص من لحظة الانفعال الحادة لفترات طويلة.

وينطبق هذا على أحمد بهاء الدين، فمن المعروف أنه كان شديد الإخلاص للقضايا العربية، إذ يتعرض للدفاع عنها بجدية بالغة وصرامة وانفعال، فحين يتعرض لقضية من هذه القضايا كان يتعرض لها بكليته، إذ كان مخلصاً شديد الإخلاص لهذا النوع من القضايا.

وقد كانت مسألة هجرة اليهود - تحديداً - من القضايا التى أصابته بالهلع والذعر الشديدين، إذ كان ذلك قد أورثه ألماً نفسياً مرجعه أنه كان يعتقد بأن الاتحاد السوفييتى (سابقاً) لا يمكن أن يضحى بصداقة الفلسطينيين، بل العرب قاطبة، وهو الأمر الذى كان سيجعله حذراً فى السماح لليهود السوفييت بالهجرة لفلسطين، وبالتالي، حين سمحت ظروف دولية كثيرة لهذه الهجرة اهتز بهاء من أعماقه، وزاد من هذه الحالة موقف الكثيرين حوله، وقد أدى هذا الاهتزاز فى الإطار المرحلى المنظم لسلوكه الموجه لأفكاره، وبذلك سقط صريع القضية العربية وأصحابها.

(محضر نقاش مع د. مصرى حنورة رئيس قسم علم النفس بجامعة المنيا)
واختار أن يفقد الوعي خيراً من العيش فى هذا الحاضر العربى الردى.

(٤)

تشخيص حالة بهاء الدين، إذن، لا تعود فقط إلى حرية هجرة اليهود السوفييت فحسب، وإنما فضلاً عن غضبه من المثقفين حوله، ... من أبعد نقطة وعى لمس خلالها حجم الأخطار التى تحيق بالمشروع العربى إبان تحرره من ربة الاستعمار فى النصف الأول من هذا القرن، خاصة فى أربعيناته، وقد تمثلت تراكماته الآن فى (جريمة العصر) - هجرة اليهود السوفييت - حيث الخطر الغربى - اليهودى يحدث بأمة يغفل أبناؤها عن السلاح الحضارى والاقتصادى فى المعركة.

لقد عاش المثقف العربى هنا لحظات ألم كثيرة طيلة هذه الفترة التى امتدت إلى ما قبل نصف قرن من الزمان، ومن ثم، فإن آثار دواعى الهزيمة المنكزة على الوجدان المثقف أسلمه إلى حالة من عدم التصديق، أسلمته إلى هذا الشعور بهول ما يحدث، فمر وقت طويل - كما يقول: - قبل أن يجتاح نفسى ذلك الحزن العميق الأسود، (المساء ٥/١٠/١٩٨٣)، وهو الحزن المتراكم الثقيل الذى عرفه ولم يستطع أن يستوعبه فراح فى إغماء طويلة قبل عدة أشهر من حرب الخليج الثانية ٩٠/٩١، وكأنه أثر اللاشعور - هذه الغيبوبة، كيلا يحيا الغيبوبة الخارجية الدامية حوله.

لم يكن ليختلف الأمر كثيراً أن يعلم شيئاً أو أشياء عن هذه الكارثة، فقد

كانت بداياتها بحكم حاسة التدبُّر التي تمتع بها تتراءى في مخيلته في بداية الستينيات حين سعى عراق قاسم إلى التهديد بالغزو للكويت، لكن حجم الكارثة وقسوتها هو ما كان يخشاه، لقد قال بهاء الدين قبل ذلك بقرابة ثلاثين عاماً (أخبار اليوم ١٥/٧/١٩٦١)، كلام مثل هذا..

كتب يقول:

«إن المواطنين العرب في هذه البلاد الشاسعة - الخليج، سوف يواجهون كثيراً من الامتحانات القاسية، وسوف يصادفون أنواعاً كثيرة من البلبلة، ولذلك، من المهم إبقاء حقيقة أن القومية العربية فكرة لا تقبل منطق الضم.. ولا تنقيد نفسها بالمعاهدات والقرارات التاريخية الدولية».

أى حس عربى حى عبر عنه هذا المثقف العربى من هذا الوقت البعيد.

ويحكى محمد حسنين هيكل أنه فى أحد الزيارات الأخيرة لأحمد بهاء الدين، وقد حملون أمام التليفزيون إبان أزمة الخليج، وحاول أن يفسر ما يحدث حوله مهمهما (هو فيه إيه) وحين أبلغون فى جملة واحدة تفاصيل ما حدث قال منفعلاً «ليه.. ليه، ثم تنساب دموعه. وظل السؤال حائراً على لسانه، والدموع جارية من عينيه. (يوميات هذا الزمان، محمد حسنين هيكل).

وقبل أن يترك هيكل بهاء راح يسأل بأسى:

«بهاء، ما الذى منعك أن تقاوم طارئ المرض الذين ألم بك؟».

جريمة العصر

وكانت الإجابة التي تتمثل في (حالة) بهاء الدين، هي أنه رفض واقع هذا الحاضر العربي، وعرف ما سوف يتمخض عنه، ولذلك، فقد أثر هذا المصير الذي انتهى إليه، الغياب عن الزمن العربي. وهو غياب اختاره - كناجى العلى من قبله - بمحض إرادته.

* * *

وظل غائباً عن الوعي من شتاء ١٩٩٠ حتى رحل وسكن الجسد تماماً في صيف ١٩٩٦.

وُثائق

- ١ - شهادة أحمد بهاء الدين.
- ٢ - خطاب أحمد بهاء الدين إلى أنور السادات.
- ٣ - حكم محكمة ضد أحمد بهاء في ٢٦/٤/١٩٨٣.
- ٤ - رسالة جبهة النضال الفلسطيني.
- ٥ - صورة من بيان جريمة العصر.

١ - شهادة أحمد بهاء الدين

****** يلاحظ أن ثورة ١٩٥٢ فى أول قيامها اهتمت بالعمال والفلاحين أكثر من المثقفين.. لماذا؟

- علاقة الثورة بالمثقفين حكاية محزنة ومؤلمة..

فحين قامت الثورة، ومنذ الأيام الأولى، حاولت الاتصال بالمثقفين، غير أن المناخ كان مشوباً بالضباب، وهو ما أفسد ذلك الاتصال، ويمكن أن ألخص هذا الواقع الجديد بأمرين اثنين:

الأمر الأول:

كان جمهور المثقفين، وأنا منهم، لا يعرف أحداً من أولئك الضباط الجدد الذين قاموا بالثورة..

كنا نلتقى بعدد من الضباط فى اجتماعاتنا قبل الثورة.

ولم يكن ليطراً على ذهنى فى هذا الوقت المبكر - طيلة الأربعينات - أن أولئك الضباط يمكن أن يكونوا فاعلين فيما بعد..

لم أكن - قبل الثورة - أطرح حتى هذا السؤال:

من هؤلاء؟

وكان تفسير ذلك، هو أنه كان من الصعب على الإنسان أن
يسهل قيادة بسهولة لأناس لا يعرف تاريخهم ..

وقد كان الاستنتاج الأرجح حين قاموا بالثورة، هو، التفسير
الوحيد أن أولئك الضباط هم كولونيالات، مثل أولئك
المعروفين في أمريكا اللاتينية، وكانوا كثيرين في ذلك
الوقت، وكانت وجوههم المعروفة لنا حينئذ تتمثل - في
الشرق - في حسنى أنزعيم والحناوى والشيشيكلى ..
وغيرهم ..

وكان البعض الآخر منا يرى أن الضباط الجدد ليسوا ضباط -
زيادة في التأكيد - جاءت بهم أمريكا التى كانت تتأهب لمثل
ذلك الدور .

كانت تحوطنا - كمثقفين - الشكوك فى حين لاحظنا أن
حولهم يتقرب عدد كبير من الوصولييين والانتهازيين،
واليمينيين .

لقد التفت حول الثورة أول قيامها أعداد كبيرة من الشخصيات
السياسية القديمة ومن المثقفين الذين لا يتمتعون - فى
الغالب - بسمعة طيبة ..

لقد نهياً المثقف المؤيد. الانتهازى، إلى لعب دوره فى أول
لحظة ..

وباختصار، عرف الضباط - لأول مرة - أردأ أنواع الساسة

والمتقنين،

يسعى بعضهم إلى الحصول على المراكز، والبعض الآخر على المال، والبعض الثالث على تصفية حسابات قديمة.. إلخ.

لقد كان رد فعل الضباط الجدد منطقياً حين سألوا:

من هؤلاء؟

هل هم المتقنين بالفعل؟

وماذا يفعلون؟

وهو يقترب بنا من الأمر الآخر.

الأمر الآخر: فإنك لو عدت إلى السنوات الأولى بعد قيام الثورة، قبل أن يتأكد الجانب الاجتماعي، ستجد أن أقطاب اليمين المصري كانوا هم الذين يؤيدون الثورة..

وقد كانوا أكثر الغلاة - في الظاهر - في التحيز لها.

أما نحن المسمون بالتقدميين، المتقنين التقدميين.. كنا نطالب بإطلاق الحرية وإطلاق يد الأحزاب وتهياة المناخ للديموقراطية إلى غير ذلك، وهو ما تجده في عديد من صحف هذه الفترة، ويمكن العود إلى (روز اليوسف) على سبيل المثال لترى إلى أي حد كانت مطالبنا مباشرة.

أما في الجانب الآخر، فقد كان اليمين (رجال الملك وبعض

السياسيين والمثقفين والصحفيين.. إلخ) تصوروا أن الثورة جاءت بعد أن فشل الملك في قمع الحركة الوطنية وتلجيمها (لاحظ أن الثورة جاءت بعد فترتين هامتين: من الحرب العالمية إلى عام ١٩٥٠، ومن عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٥٢ حين قامت الثورة).. إذ أن هذه الفترة شهدت فوراناً هائلاً.

لقد كانوا غير معترضين على النظام القديم عقائدياً، وإنما معترضين عليه من أنه فاشل وضعيف وسى، وجاء الحكم العسكرى ليقبض بيد من حديد على كل شئ، تصوروا أن عبدالناصر (أوليغاركيا) سهل القيادة فأيدوه بكل شدة ..

أما بالنسبة لنا، نحن العديد من المثقفين التقدميين، فقد سعوا إلى تقديم البلاغات ضدنا، وبتهمونا بالتهمة الشائعة السيئة حينئذ من أننا (شيوعيين) ..

أنا - على سبيل المثال - غير شيوعى، وليس لى علاقة بالشيوعية، ومع ذلك، لم يفقدوا حماسهم ضدى، إذ كانت التهمة هى الشئ الذى يهددوننا به، وفى الوقت نفسه يكسبون - كما يتصورون - ود الرجال الجدد..

الأكثر من هذا كانوا يحرضون رجال الثورة على ألا يعود البرامان، كان الغالبية فيهم أعداء الوفد الرسميين.

المثقف الخطأ

هؤلاء هم من أحاط بالثورة، ومثلوا الوجه الخطأ للمثقف ..

****** تقصد جماعة عبدالرازق السنهورى وسليمان حافظ..
وغيرهم؟

- بالطبع، هؤلاء وغيرهم، ولا أريد تحديد أسماء أكثر، ولمن يريد أن يتعرف على عديد من هذه الأسماء يمكن العود - على سبيل المثال فقط - إلى جريدة (أخبار اليوم) ليرى مصطفى أمين ومدرسته وأبناء اليمين جميعهم.

كانوا يتصورون أن الثورة جاءت لتقمع الناس لكونها ثورة عسكرية، وقد زاد هذا سلوك الثورة عنفاً في الفترة الأولى خاصة بعد إعدام خميس والبقرى.

وإذن، أحيط بالثورة المثقف الخطأ، هذا المثقف الذى استطاع خداعها ثم الانقلاب عليها، ليسهم فى إخراج الثورة من المسار الثورى الحقيقى.

وبدون الدخول فى ممارسات كثيرة معروفة الآن، فإن الثورة لم تتفق منذ البداية مع المثقفين الذين أيدوها والتفت معهم فى فترة تالية.

وأستطيع أن أقول إن ذلك كله أسهم فى ابتعاد الثورة عن المثقفين المعروفين، المفكرين خاصة، المهمومين بقضايا الوطن، وكان من مظاهر هذا الابتعاد، الاقتراب أكثر من المثقفين التكنوقراط.

لقد بدا أن الانفصاح الكبير مؤكداً بعد التعاون مع الكوادر

العملية من أساتذة الجامعة بوجه خاص .

وأنت تعلم أن المثقف الذى ينتمى للتكنوقراط لا تكون لديه ملكة الفهم والمعارضة والنضج الفكرى مثل غيره .

قبل الثورة كان طريق الاشتغال بالسياسة (بالوزارات) ينبع أساساً من السياسيين (كبار الملاك / المحاميين .. إلخ) .

بعد الثورة ، لاحظنا التعاون التام مع نوع جديد من المثقفين الفنيين من أمثال عبدالمنعم القيسونى ومصطفى خليل وحجازى .. وغيرهم .

لقد استعانت الثورة بأولئك الأخيرين لأنهم غير مسيسين و تتوفر فيهم الكفاءة فيما يريدون من أجله ، فى الوقت نفسه ، متقبلين العمل مع النظام ..

ومع ذلك ، يمكن أن نستدرك هنا لنقول إن الثورة بدورها الاجتماعى الذى توفر لجمال عبدالناصر ، كانت ترى جيداً ما هى الفئة الغالبية ، التى يجب أن ترفع عنها الظالم .

ولأن هذه الفئة ، فى ذلك الوقت ، لم يكن من بينها الكثير من المثقفين ، فقد كان لابد أن نعرف فئات كثيرة من العمال والفلاحين يحتلون المواقع والمراكز ، فى حين كان المثقفون بعيداً إلى حد ما عن حركة التغيير .

كان عبدالناصر يرى أن القاعدة العريضة الممثلة فى

المجالس النيابية وفي عديد من المؤسسات يجب أن تكون من
العمال والفلاحين

** لنقترب منك أكثر، هل كتبت بعض خطب عبدالناصر
وأدبياته؟

- لا

** فهل كان وضع (تصور للعمل الوطني) الذي أنجب
(الميثاق) هو تكليف من عبدالناصر؟

أنا وعبدالحكيم عامر

أذكر في ذلك، أن الرئيس جمال عبدالناصر كلف عدد من
أقرب الناس إليه بأن يتصلوا بأسماء معينة وضع هو أسمائهم،
ثم الالتقاء وجهاً لوجه مع أسماء أخرى - هم هذه المرة من
المثقفين - لسؤالهم عن أفكارهم في هذا الموضوع.

وسوف أضرب مثلاً بحالتي الشخصية التي أعرف أنها
(كحالة) تكررت عدة مرات.

كان أول من اتصل بي السيد كمال الدين حسين وقد كان
في ذلك الوقت مسئولاً عن الاتحاد الاشتراكي.

استدعاني (وكان معي كل من إحسان عبدالقدوس وكمال
الحناري) وكان هذا الأخير حينئذ مسئولاً بصحيفة.

وأخبرني مع غيري أن القيادة السياسية تعتز بانتسابكم إلى العمل الوطني.

وسألنا عن أفكارنا العامة.

ثم أعطانا فكرة عما يريد من قضايا قومية.

غير أن ذلك في الواقع كان مجرد استدعاء للأفكار أكثر منه إعطاء رأي.

كانت تطرح أمامنا الأسئلة التي في أذهانهم، ثم يتلقون عنها إجابات مطلوبة، وقد تقابلنا نحن الثلاثة (كمجموعة) عند كمال الدين حسين في أكثر من مرة تطرح أمامنا القضايا وتناقش وندلى بآراء وجهات نظر..

الاتصال الآخر الذي جرى معي في نفس الفترة هو التقائي بعبدالحكيم عامر، للمرة الأولى كما هو الحال بالنسبة لكمال الدين حسين..

طلبني عبدالحكيم عامر في بيته، ذهبت.. ولأول مرة أدخل بيت هذه الشخصية في حياتي.

وهناك وجدت عدداً كبيراً من الناس، أذكر منهم شقيقه حسن عامر والسيد عباس رضوان والسيد كمال رفعت.

وطرح عبدالحكيم على، وعلى الموجودين، هذه القضية.

إننا -من العسكريين طبعاً- بصدد إعداد ميثاق، وهذا الميثاق

وثائق

يحتاج فكر واع جديد، وهذا الفكر لن يكون إلا بحصيلة الأفكار العامة التي يمكن أن نجريها هنا الآن، وأمامه..
 ظللنا نتناقش لساعات طويلة إلى بعد منتصف الليل..
 وقد تكرر استدعاء عبد الحكيم عامر لى - مع آخرين من المثقفين - فى نفس المكان.
 أحياناً كنت أجده بمفرده وأنا معه وجهاً لوجه.
 وأحياناً أخرى أجد معه أخيه حسن عامر الذى كان يكتفى بالسماع دون المشاركة..
 وكنت فى كل مرة أتحدث طويلاً، وأقترح أفكاراً كثيرة..
 لا أستطيع أن أذكر الآن ما اقترحته فى ذلك الوقت، ولكنى أذكر جيداً أننى استمعت فى هذا المكان، لأول مرة. حكاية نسبة الـ ٥٠٪ من المجالس الشعبية للفلاحين والعمال..

الـ ٥٠٪

وهذه النسبة اتخذت منى جهداً كبيراً ومناقشات واسعة، فقد فوجئت بها، وكانت غريبة عنى تماماً.
 قال عبد الحكيم فى إحدى المرات التى اشتد فيها الحوار أن هذه الفكرة مطروحة لأن الثورة هاتخلص ذات يوم، وسوف تكون هناك انتخابات عادية بمعزل عن النظام السائد.

فما هو الضمان لبقاء البرلمان .

بمعنى آخر - ظل عبدالحكيم يتحدث طول الليل - لو جرت الانتخابات بالقوى الانتخابية المعروفة في البلد التي تريد الدولة تغييرها، فإنه يمكن أن يأتي برلمان جديد ولا يلغى الإصلاح الزراع.

ففي غيبة هذه النسبة يمكن أن يتصدر عدة قرارات تلغى الثورة الاجتماعية .

فالضمان في هذه الحالة أن تكون هناك نسبة كبيرة من العمال والفلاحين، وهم من المستفيدين الحقيقيين من قوانين الثورة الاجتماعية ..

وأذكر، في هذه الفترة .. أنني استمعت طويلاً .

ثم عارضت طويلاً هذا الاقتراح وبشدة ..

كان هذا الاقتراح بالذات قد أخذ منا جلسات طويلة .

بصراح أقول ذلك الآن بعد هذه الحقبة الطويلة، وبعد التغييرات التي انتهت بنا إلى عصر مبارك .

أقول الآن أنني تشككت في دوافع رجال الثورة حول ذلك، قلت:

- لا تؤاخذني، لدى رد فعل خاص، وبصراحة، فإن العمال والفلاحين ليسوا مهنيين ليكونوا أعضاء في المجالس

وتناقى

التشريعية، وبكل صراحة، فإن القابلين للرد والمناقشة والفهم هم الذين على درجة من التعليم.

ومن الثقة بالنفس والاستقلال والوعى.. إلخ، أما أى حكومة تأتى وتحاول أن تحشد ما تشاء من العمال والفلاحين فى المجالس النيابية، فإن هؤلاء سيستخدمون كبراج على ظهور المثقفين.

بصرامة أقل لك، كنت متشكك بشدة.

وقد ضربت لهم أمثلة على ذلك، فإنه من السهل - فى هذا الحالة - أجد أى إنسان ديماجوجى يقف ليخطب فى مجموعة من العمال والفلاحين (وقد رأينا ذلك بالفعل لسنوات فى الاتحاد القومى)، فيجر هؤلاء إلى مواقف صعبة..

لم يكن لدينا العمال والفلاحين كما هم الآن..

رد الفعل الأول لدى كان هو أن إعطاء هذه النسبة لهذه الفئة، يمثل كبراجاً على ظهور المتعلمين والمثقفين الذين لهم دور.

الميثاق والأحكام الجاهزة

على أية حال، تجادلنا كثيراً حول هذا الموضوع، ولم

يشعرنى عبدالحكيم عامر أن ذلك قرار نهائى، ويجب أن أعترف أنا أيضاً، أننا تناقشنا كثيراً حول هذا القرار، لكن، حين ألقى الرئيس عبدالناصر قراره فى ذلك الخصوص، كان كل شئ قد انتهى .

إن الطريقة التى كتبت بها الميثاق كانت حصيلة لعدد من الأحكام والآراء التى سبقت اتخاذ القرار، وعرفت فيما يشبه اليقين، أن عبدالناصر كان قد اتفق مع عدد ليس بقليل من أعضاء مجلس الثورة من الدرجة الأولى بالاتصال بعدد من المثقفين، كل مسئول سياسى يتصل بعدد كبير من المثقفين فى مصر، وأستطيع القول من واقع هذه التجربة، ومن رصد التحركات فيها وردود الأفعال، أن من أسهم فى أفكار الميثاق والإعداد له قرابة (٥٠٠) خمسمائة من المثقفين المصريين، كل منهم قال راية بالإيجاب أو بالسلب، وكل منهم تم التعامل مع فكره بديموقراطية ..

كانوا يجتمعون ويجمعوا كل الأفكار، ويتم تسجيلها، كانت لجنة كبيرة من السياسيين يحركهم عبدالناصر تتولى هذا العمل، ومن المؤكد أن أى من المسؤولين لم يكتب الميثاق، ولم يطلب عبدالناصر من أحد أن يكتب الميثاق وحده، أو من وحى فكره وحده، بل بتعدد كبير من المثقفين بواسطة مجلس قيادة الثورة - كما ذكرت - .

وأستطيع أن أقول في نهاية الأمر، إن كل ما دار عن -
وحول - كتابة الميثاق كان بين يدي جمال عبدالناصر، وقد
تبلورت جميعاً في أفكار الرئيس بعد أن استمع إلى المثقفين
والسياسيين، ثم قام عبدالناصر بالإضافة والانتقاء، ثم وضع
ذلك كله بين يدي محمد حسنين هيكل ليصاغ الصياغة
الأخيرة ..

لم تكن الأفكار عشوائية.

لكنها كانت أحكاماً جاهزة حصيلة فترة طويلة من العمل
السري، والمناقشات المستفيضة ..

** ما هو السر وراء قبولكم لرئاسة تحرير مجلة (صباح
الخير) في يناير ١٩٥٦ لأول مرة؟

- إذا كان يقصد بهذا - كما يردد البعض - بإيعاز من جمال
عبدالناصر، فإنني أستطيع القول الآن أن ذلك غير صحيح ..
إن توليتي لصباح الخير لم يكن له علاقة بأية جماعة أو
تنظيم ..

ببساطة، السيدة روز اليوسف صاحبة المجلة كانت لديها
«رخصة» منذ فترة طويلة، كانت تأمل إصدارها يومية، غير
أن هذه الآمال تحطمت مع الوقت، ففكرت أن تكون صباح
الخير (صباحية) وتصدر.

وحين عملت في روزاليوسف، وكنت قد التقيت بها وتعرفنا على أفكار بعضنا البعض، فعرضت على أن أقوم بتولى هذه المجلة على اعتبار أنني شاب، وعلى اعتبار أن تصورهما كان لابد أن تكون (صباح الخير) مجلة للشباب تخاطب الشباب. وأذكر أن إحسان عبدالقدوس عارض هذا بشدة.

لماذا؟

لأن كل مجالات الشباب كان محكوماً عليها بالفشل، فليس لها مادة إعلانية، (حتى الآن ليست لدينا مجلة للشباب)، وقال إحسان إنه غير مسئول عنها، فإنها - كما أكد - سوف تؤثر على مستقبل (روز اليوسف) كمجلة.. ترددت كثيراً بالتالي.. ولكن تحت إلحاح كبير من السيدة روزاليوسف قبلت.

على أن يعمل مشروع (ماكيت) قبل أن نقرر إصدار المجلة واستمرارها..

وبذلك (فصباح الخير) لم يكن - كما تردد - لها علاقة بالسياسة.

** المنظمات السياسية في مصر عبدالناصر... هل كانت في الأصل تقوم بهدف استقطاب المثقفين؟

- هذا صحيح...

ومع ذلك، لابد أن أضيف هنا - أننا، كلنا، لم نكن لنقبل ذلك

وثائق

بحماسة شديدة، لأننى (وأنا هذا أتحدث عن نفسى فقط)
كنت متحمساً للتنظيم الشعبى فقط، (لا الحزبى)
وهناك فرق كبير بين هذا وذاك.

الحزب يختار أعضاؤه، لكن حين نقول أن يصبح كل موطن
منتسباً فى هذا الحزب، فهو لا يصبح كذلك، أقصد لا يصبح
حزباً.

وحين نعرف أن تنظيم شعبى ضخم يقدم فيه كل الناس، فإن
فى ذلك ببساطة أو تبسيط للأمور يتصل إلى حد السذاجة،
لقد أعلن أن ٦ مليون مواطن كتبوا استمارات للاتحاد القومى
فى يوم واحد.

كيف يكون ٦ مليون أعضاء فى بلد لا يزيد سكانه عن ٢٠
مليون فقط؟ كيف يكون ثلث الشعب أعضاء؟ الطريقة غير
صحيحة

لم يحتملونا

كان المثقف أمام هذا كله متحمساً..

وكان فى أحيان أخرى، بعد أن يتخذ فعلاً عملياً بالانتساب
لهذا الحزب، سرعان ما كان يكتشف أن صوته ضائعاً، فيعود
إلى عدم التحمس..

المهم فى ذلك أننا داخل هذه التنظيمات كنا نجد العنصر
العسكرى الذى أفرزته الثورة يتولى مسئوليات التنظيم.
أنا، على المستوى الشخصى، كنت أجد العنصر من الضباط
الأحرار الضباط معى فى نفس التنظيم.
مع ذلك، لم أجد فى ذلك عيباً.

كنت أرى أن ذلك حقاً له، فهو قام بالثورة، وعرض نفسه
لأخطار، إذن فهو أحق من غيره ليصبح سياسياً مشاركاً، غير
أن الذى حدث أننا كنا نجد فى نفس التنظيم أو اللجنة التى
ننتمى نحن لها - معشر المثقفين - كنا نجد شريحة كبيرة
ليس لها علاقة بالثورة قط.

كانوا من شريحة أخرى صعب علينا الاتفاق معهم..

وهنا نعود لسؤالك فى الاستقطاب: ما هو الاستقطاب؟

كان يتم دعوة أحد المثقفين فى لجنة من لجان الاتحاد
الاشتراكى - على سبيل المثال - ولم يكن يفرض عليها شيئاً،
من يريد أن يستمر بهذه الشروط كان يستمر، ومن كان لا
يقبل، لا يقبل، ولهذا، فإن المثقفين من مسئولين إلى حد كبير
فى هذا أيضاً.

ولكى أوضح رأى أكثر سأضرب مثلاً بنفسى، لقد حضرت
العديد من هذه التنظيمات، لكننى لا ألبث كل مرة أن أحتج

وأصطدم وأخرج.. إلخ.

حين أنشأ التنظيم الطليعى دعيت، فجأة، إلى أعلى مستوى، وقد كنت أحس بالامتحان لذلك، فأنا لم أكن فى دهاليز السلطة.

المهم، ما كادت تمضى عدة اجتماعات حتى أسقط ثلاثة من المثقفين، وقد كانوا من أكبر الأسماء المعروفة فى ذلك الوقت كنت أنا أحدهم.

قيل لنا فى بداية الاجتماعات أن التنظيم هام، وسوف يتناول كل القضايا فى جو من الحرية.

اكتشفنا أن لقائنا الأول كان فى مجلس الوزراء، تكلمنا نحن الثلاثة بصراحة شديدة (كنت أنا وإبراهيم الشربىنى وفتحى فودة).

وأشهد للثلاثين الآخرين بشجاعة كبيرة خاصة الأخير منهم.. المهم بعد ثلاث أو أربع ساعات لم يحتملونا.. وكانت النتيجة أننا أسقطنا..

وعرفنا ذلك حين استمرت الاجتماعات بعد ذلك فى حين لم ندع مرة واحدة وتم تجاهل أسمائنا تماماً.

** لماذا لم يقبض عليك بعد أحداث ١٩٦٨ على أثر بيان نقابة الصحفيين الذى أعلنته وقد كنت نقيباً للصحفيين،

خاصة أنه وشى بك عند جمال عبدالناصر؟

«ملاحظة: على أثر مظاهرات الطلبة والعمال التي تمت في النصف الثاني من فبراير ١٩٦٨، عقد مجلس نقابة الصحفيين جلسة ظهر يوم ٢٨ فبراير لمناقشة هذه الأحداث، وأصدر المجلس برئاسة أحمد بهاء الدين مذكرة بيان طالب فيه بعدة مطالب من النظام، فبعد أن ركز على شرعية المظاهرات طالب بالإسراع في حساب المسؤولين عن النكسة ٦٧، كما طالب بإعادة بناء التنظيم السياسى، وتوسيع قاعدة الديمقراطية والمشاركة في اتخاذ القرار والإسراع بإصدار القوانين المنظمة للحريات... وما إلى ذلك، في وقت كانت السلطة التنفيذية تعاني من ارتباك كبير خاصة في الجبهة الداخلية في حين كان العدو الصهيونى يقف في سيناء بعد احتلالها.. وهو ما يعود الى جرأة النقيب وحنكته التي لم تفقده شجاعة التعبير عن نقابة الصحفيين في ذلك الوقت العصيب..»

مخه كده

- بداية، كنت أعرف أن هناك مرات أعرف بعضها ولا أعرف بعضها الآخر، كان يعرض فيها شئى جمال عبدالناصر اتخاذ قرار ضدى...

أذكر أنه قدم أكثر من قرار لعزلي من رئاسة التحرير..

وأكثر من مرة طوّل القبض على صراحة..

وأكثر من مرة طوّل بضرورة اتخاذ قرار صدى بإيقافي أو
منع من الكتابة

كان هذا كله في السنوات الأولى من الثورة ١٩٥٤/٥٣/٥٢..

في هذه الفترة التي كانت المعاني العامة لم تتحدد بعد
بالنسبة إلى النظام الجديد..

وقد كان يبلغني دائماً، تعليق مصدره عبدالناصر نفسه، ففي
كل مرة أكون مهتد بالعزل أو القبض على أو التوقف عن
الكتابة، فإن عبدالناصر كان يرفض قائلاً:

– رأيه كده.. مخه كده..

كان يعرف عبدالناصر أن هناك صحفيين كثيرين المعروفين
لهم علاقات مشبهة بالنظام.

وكنا نحن نعرفهم في الوسط الصحفي.

وكان يعرف أيضاً أن الخطر الأكبر يأتي من هؤلاء، كما
يأتي من أولئك المنظمين في تنظيم، أما من يكتب رأيه،
فقط، فلم يكن له خطورة إتخاذ قرار ضده.

وهو ما يدفعني للتوقف هنا هنيهة لتأكيد أمر هام، أعتقد،
بتجاري بالنسبة لعلاقة المثقفين بالنظام....

فى الفترة الناصرية لم تكن المشكلة قط هى إبداء الرأى ..
ولم يكن يتخذ قرار عنيف ضد من يهتم بإبداء رأيه، وغاية ما
كان يفعله ضده، هو، المنع عن الكتابة (وخلص) ..
وأستطيع أن أؤكد، أنه لم يقبض قط على صحفى، أو كاتب
فى ذلك الوقت له رأى فقط، أو يعبر عن رأيه بمعزل عن
أى انتماء حركى آخر ..

كان من يقبض عليه دائماً يتهم بأن له نشاط غير صحفى .
كان من يقبض عليه دائماً كان يكتشف أنه عضو خلية
سياسية، وحين يتم ذلك الكشف، يكون من الطبيعى أن يتم
القبض على من فيها من الصحفيين .

كانت القضية الخطر دائماً هى النشاطات غير الصحفية ..

** إذا كان الأمر كذلك: بماذا تعلل عزل فكرى أباطلة عن
دار الهلال بشكل عنيف ومخزى فى حين لم ينتم إلى تنظيم
سياسى أو جماعة معادية، ولم يعد إلى منصبه قط، اللهم إلا
حين استكتب اعتذاراً رسمياً؟

— أنا لا أدافع عن المثقفين، غير أننى أتحدث عن الشكل
العام .

وبالنسبة إلى فكرى أباطلة، فهناك أشياء كثيرة لا أحب أن
أذكرها .

المثقف والخمر

هل أزيدك، حسن (وهنا انخفض صوت بهاء الدين إلى درجة الهمس).

ثم أضاف:

إن فكرى أباطة في هذا الوقت الحرج من تاريخ الثورة كان طاعناً في السن، وكانت له علاقة حميمة بالخمر.

المثقف والخمر دائماً.

أنا كرئيس تحرير في نفس الدار الذي عمل فيها كنت أجده دائماً يكتب أشياء غريبة.

أشياء لا يكتبها مسئول وفي منصب حساس..

على أية حال، فالمهم أن رأيته هذا جاء في وقت كانت البلاد العربية - في أغلب أقطارها - تهاجم مصر، وتتسقط أي موقف أو خبر ضده.

والذي حدث بالضبط، أنه اعتقد خارج مصر ودخلها أن فكرى أباطة قد عرف أنه مسئولاً في الدولة ويتحدث باسمها،.. أن لديه تفويض بذلك..

وعلى أية حال، تظل هذه حالة خاصة..

** وإذن، في هذا السياق، دعني أعود إلى سؤال سابق لك.. ولم تكن أجابته كافية... لماذا لم يقبض عليك إذن عام

١٩٦٨ ؟

- الإجابة، كما أسلفت، لأننى لم أكن عضواً فى تنظيم، ولكن
كان لى رأى فقط،، فلماذا يقبض علىّ إذن؟

عود إلى عبدالناصر

ويهمنى قبل أن ننهى هذا الحديث أن أشير إلى موقف
خاص، أو حكاية أكدها لى سامى الدروبي وهو صديق قديم،
وكان صديقاً شخصياً لجمال عبدالناصر.

يفصل لى بهاء الدين فى استطراد طويل كيف أن العلاقة
بين الدروبي وعبدالناصر توثقت ووصلت إلى درجة حميمة،
وحين وصل عبدالناصر إلى يوغوسلافيا فى أحد زيارته بعد
الانفصال عام ١٩٦١، وفى الاستقبال الرسمى راح يصيح
بصوت عال بالعربية فجأة:

- يحيا جمال عبدالناصر.

وحين سأل عبدالناصر عن صاحب الصوت جاءته الإجابة
أن:

- هذا الدروبي، سفير سوريا فى يوغوسلافيا.

المهم أن عبدالناصر أخبر الدروبي، بعد بيان نقابة
الصحفيين، بشئ من العتاب.

وثائق

وقد كان يعلم مدى الصداقة بينى وبين الدروبي:

- كنت غير متوقع من صاحبك هذا، بهاء يعمل كذا؟

سأل سامي الدروبي:

- عمل إيه يا ريس؟

أجاب عبدالناصر بسرعة:

- البيان اللي خرج به، كان طعنة خنجر في ليلة مظلمة..

- قال الدروبي وكأنه لا يعلم ما حدث..

- بهاء لا يعمل كده..

شرح عبدالناصر طويلاً له ملابسات ما حدث ليلة شهرى

فبراير ومارس ١٩٦٨، ثم قال بحزن شديد:

كل منا كل النقابات ألا يعملوا اضطرابات، أويخرجوا

بمظاهرات أو أى شئ يؤثر على أدائنا ضد المظاهرات.

ومع ذلك، راح هو وأصدر هذا البيان..

عاد الدروبي للقول:

- أذكر أن البيان، بكل ما جاء، لم يكن أكثر مما صدر فيما

بعد باسم (بيان ٣٠ مارس).

جاء صوت عبدالناصر:

- هو ما كنش عارف اللي احنا عارفينه..

ويعود صوت بهاء ليقول بهدوء وكأنه متأثراً مما حدث:

- طلع إن الدولة كانت تنتظر إلى الحدث بمنطق آخر.

كان معنى أن تستمر المظاهرات وتكثر الاضطرابات، أن يصل كل هذا إلى نتيجة، أن تقع الدولة كلها في أيدٍ أجنبية، وكان ذلك معناه - وهو ما عرفت تفصيلاته فيما بعد - أن يسقط نظام الحكم..

كان الصراع معروف في ذلك الوقت بين عبد الناصر والقوى المضادة له..

لقد كان الخلاف المحتد بين الثورة وأعدائها (كما أسهب عبدالناصر في ظروف هذه الفترة) معناه أن ينزل الجيش بعد إصدار قرار بذلك ويطلق النار في المليون لقمع الفتنة.

وقد تصادف أن هذا البيان - بيان مجلس النقابة - أعلن في هذه الليلة، حيث كان الجيش على وشك أن ينزل وينهى الفتنة، لولا أن عبدالناصر رفض هذه الفكرة، وذهب في اليوم التالي إلى الشعب وألقى خطابه المعروف.

وقد تبني كل المطالب التي طالبنا بها في هذا البيان..

لقد قال عبدالناصر إنه قدِمَت إليّ مذكرة حينئذ للقبض على بهاء الدين، ولكنني رفضت، قلت لهم إن بيان النقابة سيء، أنا أعرف.

لكن أن أعرف أكثر أنه (مخه كده) .

فهو لا يعمل مع أى تنظيم وليس وراءه أى شئ مريب .

ولم تكن هناك شبهة أننى أتعاون مع أى من العناصر
المريبة ..

طالب الدروى من عبدالناصر أن يبلغنى بذلك، مضيفاً:

- قل لبهاء لماذا تفعل ذلك فى مثل هذه الليلة .

وطبعاً - يضيف بهاء بأسى

- فلم يكن فى ذهنى أى شئ من هذا .

خطاب أحمد بهاء الدين ... للسادات

أقدم إلى سيادتكم أطيب التحية، ثم أحب أن أعترف بأننى أحاول أن أكتب هذا الخطاب إلى سيادتكم وهو ما ساورنى مراراً وأنا كالسائر فى الظلام، ذلك أننى بكل إخلاص لا أعرف بالضبط ما هى الشكوك المتعلقة بى والتي على أن أحاول إيضاحها.

إن ما أكتبه من مقالات، مسئوليتى عنه واضحة، ومن العدل أن أتحمّل نتائج هذه المسئولية، وليس لدى دفاع مجمل عنها بواجه عام، بما يمكن أن يكون فيها من خطأ أو صواب، إلا أننى أكتبها من صميم القلب، وبكل صفاء نية وصدق رغبة فى المساهمة فى الخدمة العامة. وفى إطار الركب الذى تفودونه فى أصعب وأقسى الظروف وطوال عشرين عاماً من الكتابة المتصلة، كان لابد أن يكون فيما أكتب ما هو خطأ، وما هو صواب، وما هو موفق وما يجانبه التوفيق، ولكن الذى أؤكد أنه ممن يكدرن الذهن فيما يكتبون، وإن ما أكتبه أحاول قدر جهدى أن يكون فى طابع الدراسة والتأمل والاقتراح. وليس طابع التعليقات العابرة، وفى ذهنى

دائماً أننى أننى حسن النية فيما أقول لأننى لا أجد أى خلاف بين ما أؤمن به من منطلقات أساسية للسياسة العامة للبلاد، وحين يكون لى رأى آخر فى بعض التفاصيل لا أكتفه عن المسؤولين الذين أستطيع أن أتصل بهم، معتقداً أن هذا هو الأسلوب الصحيح للإخلاص فى الخدمة العامة، كما حدث على سبيل المثال، بعد قرار قطع العلاقات السياسية مع الأردن إذ قابلت السيد حافظ إسماعيل وشرحت له وجهة نظرى كاملة لأن هذا هو أسلوب الصدق والإخلاص فى العمل.

وفى نفس الوقت، عندما طلب منى المهندس السيد مرعى، رغم إرادتى أن أذهب وأمثل الاتحاد الاشتراكى فى مؤتمر بيروت للقوى المناصرة للثورة الفلسطينية، وكان لى رأى خاص فيه، وقال لى إن المعلومات لديه أن سيكون منبراً للتهجم على مصر ورئيسها. ذهبت بمفردى إلى المؤتمر العاصف، وكان دورى أن لا يمس أحد مصر أو رئيسها بكلمة وهذا ما حدث، وحين عدت شكرنى المهندس سيد مرعى، بناء على ما تلقاه من معلومات على ما قمت به من مجهود فى جو متحيز وعاصف..

أما غير ما أكتبه وأقوله، فقد كان قرار نقلى من دار الهلال مفاجأة لى، كنت شاعراً ببداية حملة البلاغات والدسائس من أناس مشكلتى معهم أننى بحكم عملى أعرف عنهم رسمياً

وثائق

وبالأدلة ما يشينهم، وهم بالتالى لا يطيقون وجودى فى الساحة، فهم فى حالة تعقب دائم لى ظناً منهم أننى قد أشهر بهم أو أتعقبهم وهو ما لم أفعله قط.

ووقتها اتصلت بالسيد فوزى عبدالحافظ، وطلبت موعداً من سيادتكم فلم أتلّق أى رد حتى قرار النقل، والتزمت الصمت وكنت راغباً فى ترك مسئولية رئاسة مؤسسة، وقد سبق أن عبرت لسيادتكم عن ذلك واعتريت موافقة سيادتكم على عملى فى الأهرام إكراماً لى ومن يومها لم أشغل نفسى بغير عملى المحدود.

وقد سمعت مؤخراً أن التقرير الذى كان مقدماً على لى لجنة النظام ينطوى على معلومات لا أعرف هل هى حقاً فيه أم لا: سمعت أن فيه أننى كنت مستشاراً صحفياً لعلى صبرى! والأستاذ هيكى يعلم أن علاقتى كانت سيئة مع اثنين بالتحديد : على صبرى، وسامى شرف.

الأول لأنه طلب منى مرة أن أعمل معه عضواً فى الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكى فرفضت. ولأنه طلب منى مرة أخرى أن أتولى إدماج دار الهلال والجمهورية تحت إشرافه فرفضت، وكان دائم التنديد بى، لأننى صديق للأستاذ هيكى الذى كان يعتبره خصماً لدوداً.

وسمعت أن فيه أننى قابلت على صبرى ليلة عزله أو ليلة

اعتقاله ساعتين، وهذا ما لم يحدث قط، ولكن الذى حدث أنه بعد سنوات من الانقطاع ذهبت فى رحلة صحفية إلى سوريا فى أوائل الحديث عن الوحدة الثلاثية، وأنا متهم بمبادئ الوحدة وعدت فكتبت مقالاً منشوراً فى المصور عن سوريا، ومحبذا مشروع الاتحاد الثلاثى فاتصل بى السيد محمد فائق، وقال لى إن على صبرى يريد أن يرانى لسمع منى عن أحوال سوريا.

وحدد لى موعداً ذهبت فيه إلى الاتحاد الاشتراكى، وكان مدير مكتبه يومها السيد عبدالمجيد شديد، وفى هذا اللقاء بدأه بالتهكم على بما سماه مرضى السورى المزمن، ثم سألتى عما رأيت وأنا خالى الذهن تماماً من أى خلفية أخرى، وكان هذا هو اللقاء الوحيد، وكان قبل موضوع الخلاف بزمن.

أما سامى شرف فقد فوجئت به قبل سنوات من عزله يطلب منى تليفونياً فصل محرر فى روز اليوسف اسمه محمود ذهنت لأنه يشنع عليه، واعتذرت له عن ذلك قائلاً: إنه يمكن أن يرسل لى مذكرة أحقق فيها معه، أما أن أفصله دون إبداء أسباب، وكان الفصل صادراً منى فهذا يضعنى أمام سائر المحررين فى موضع مريب ومن يومها كانت القطيعة والمحاربة.

وحين كنت نقيباً طلب منى عن طريق السيد على خشبة

وثائق

فصل عدد من الصحفيين من النقابة لتطهيرها فرفضت، ثم جاءت أحداث ١٩٦٨، وكتب سامى شرف ضدى تقريراً للرئيس الراحل ينتهى إلى طلب القبض على، ولم يحدث هذا ولكن الرئيس الراحل أرسل لى سامى الدروبي حاملاً عتاباً، وقد قرأ على فقرات من تقرير سامى شرف.

وأنا آسف أن أذكر هذا اسم محمود العالم لأنهم قرروا جعله الصحفى الذى يدفعونه للصدارة. وتجسم هذا فى انتخابات اللجنة المركزية إذ طلب منى الأستاذ هيكى نقلاً عن الرئيس الراحل أن أشرح نفسى بعد بيان ٣٠ مارس فقلت له إنهم سيمنعوننى من دخول اللجنة المركزية وشرحت، ويوم انتخاب اللجنة المركزية وزعت القوائم السرية وفيها اسم محمود العالم، الصحفى المطلوب دخوله ونبه على الناخبين بعدم انتخابى، وأشرف على العملية عياناً بياناً سعد زايد وكان معى يومها الدكتور مراد غالب الذى رأى هذا معى بعينيه، أما التنظيم السياسى فقد وضعت فيه فى لجنة القاهرة الرئيسية وبعد جلستين تجرأ فيها اثنان على المناقشة والاعتراض، أنا والدكتور إبراهيم الشربيني، أسقطنا من اللجنة ولم نعد نحضرها، وبين المسئولين الحاليين شهود على.

يومها قاطعت التنظيم، لقد وقعت حرب ٥ يونيو واتصل بى محمد فائق من جديد طالباً أن أشرف على التنظيم السياسى فى الصحافة كلها أنا وأحمد فؤاد، فرفضت بصراحة أولاً

لعدم موافقتي على الطريقة وثانياً لأنني قلت له أن أحمد فؤاد غريب عن الصحافة، حتى القلائل الذي اختارهم في دار الهلال لم ترد عليهم واحد، وجمدنا نشاطه، وطلبت أن يتولاهم مصطفى بهجت بدري شكلياً، ولم أعد أحضروا ولا غيري هذه الاجتماعات.

وفي خلال الفترة الأخيرة منذ ذهابي للأهرام، تفرغت للبحث في قضايا تهمني، إسرائيل والصراع العربي الإسرائيلي، وسائل الإفادة من رأى المال العربي في مصر، وإعادة تخطيط مصر، ومشروع إعادة بناء القرية المصرية، ولم أشتري لا في اجتماع ولا وقعت على بيان أو عريضة، معتزراً بأنني لا صلة لي بحكم طبيعتي بالعمل الجماهيري، ومقتنعاً أن ما تبقى لي من وقت للإنتاج سوف أنفقه في تأليف بعض الكتب عن القضايا الشاملة الأساسية التي تواجه المجتمع المصري والعربي بوجه عام. وكان هذا وما زال أملي وطموحي الحقيقي.

وبعد فصل الصحفيين، حاولت نقابات عربية كثيرة أن تدعو لاجتماع اتحاد الصحفيين العرب الذي أرساه لاستغلال الموقف، ويعرف الدكتور حاتم الذي أعلمته بالأمر الجهود التي بذلتها لإحباط هذا كله، منعاً للاستغلال، آخر الأمر على عاتقي حتى هاجمتني بعض الصحف في لبنان والكويت، لهذا السبب..

وثائق

السيد الرئيس:

الواقع أنني مضطر أن أعود إلى القول بأننى عاجز عن الكتابة لأننى حقيقة لا أعرف تماماً ماذا على أن أوضحه، وإننى قابل تماماً أن يقابلنى أى مسئول تثقون فى تجرده ويواجهنى بأى شئ وسوف أعترف بأى خطأ لا أدريه، وأوضح أى قضية تحتاج إلى إيضاح، ولا أعفى نفسى من مسئولية هذا أو ذاك، وأنا لا أطلب شيئاً وإذا كانت هناك أسباب تقتضى إنهاء عملى الصحفى، فليس لى طلب أكثر من صيغة تحفظ لى كرامتى، تمكننى من أن أجد فى الوقت المناسب عملاً مناسباً يجعلنى قادراً على تحمل مسئولية حياتى وحياة الذين يعتمدون علىّ فى حياتهم.

ولسيادتكم أطيب التحية وأخلص الشكر..

أحمد بهاء الدين

(توقيع)

بسم الله الرحمن الرحيم

محكمة عابدين

حكم

باسم الشعب

محكمة عابدين - بجلستها العلنية المنعقدة في يوم الثلاثاء

الموافق ٢٦/٤/١٩٨٣

برئاسة السيد الأستاذ / محمد درويش رئيس المحكمة

وحضور الأستاذ / شريف حشمت وكيل النيابة

ويحضور السيد / أحمد المنشاوي أمين السر

وأصدر الحكم الآتي بيانه في قضية النيابة العمومية رقم

٤٢٠٦ لسنة ٨٢ جنح بولاق المقيدة برقم ٥٢٢٥ لسنة ٨٢ جنح

عابدين.

ضد

١ - أحمد بهاء الدين شحاته، وشهرته أحمد بهاء الدين

٢ - إبراهيم نافع بصفته رئيس تحرير جريدة الأهرام

٣ - عبدالله عبدالباري بصفته رئيساً لمجلس إدارة جريدة

الأهرام

المحكمة

بعد الإطلاع على الأوراق وسماع المرافعة ورأى النيابة العامة:

حيث أن الوقائع - على ما بين من سائر الأوراق - تتحصل في أن المدعى بالحق امدنى الصحفى أحمد زين العابدين المحرر بجريدة الأخبار ومدير تحريرها ورئيس مجلة اللواء الإسلامى أقام الدعوى رقم ٤٢٠٦ لسنة ٨٢ جنح بولاق - المحالة إلى محكمة عابدين لنظرها مع الدعوى رقم ٤٣٢٦ لسنة ١٩٨٢ جنح عابدين - المقيدة برقم ٥٢٢٥ لسنة ٨٢ جنح عابدين ضد الصحفى أحمد بهاء الدين عبدالعال شحاته، وشهرته أحمد بهاء الدين، والصحفى إبراهيم نافع بصفته رئيساً لتحرير جريدة الأهرام، والصحفى عبدالله عبدالبارى (المسئول عن الحقوق المدنية) بصفته رئيساً لمجلس إدارة جريدة الأهرام بصحيفة أعلنت إليهم فى ١٣/١٠/١٩٨٢ طلباً للحكم بمعاينة الأول والثانى جنائياً عملاً بالمواد ١٩٥ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٦ - ٣٠٧ من قانون العقوبات، والتزامهما بالتضامن مع المسئول بالحقوق المدنية عبدالله عبدالبارى بصفته أن يؤدى للمدعى عليه بالحق المدنى على سبيل التعويض المؤقت مبلغ ١٠١ جنيهاً، والمصروفات والأنعاب مع النفاذ لأنهما فى يومى ٢، ٣/ ٨/ ١٩٨٢ بدائرة بولاق، المتهم الأول نشر بجريدة الأهرام مقالين يومى ٢/ ٨ - ٨٢/ ٨/ ٣ فى عمود يرميات تضمنتا وقائع قذف وسب على

وثائق

فى حق المدعى بالحق المدنى وأسند إليه تلميحاً وتصريحاً عن سوء قصد وبإحدى الطرق العلنية المبينة فى المادة ١٧١ عن طريق النشر فى مقالیه سالفی البیان وقائع لوصحت لاستوجبت معاقبته جنائياً أو احتقاره عدد أهل وطنه وقراءه .

٢ - والمتهم الثانى سمح بنشر هذه الوقائع فى جريدة الأهرام حال كونه رئيس تحريرها والمسئول عما ينشر فيها عملاً بالمادة ١٩٥ عقوبات . وقال شارحاً لدعواه إنه يكتب - إلى جانب إدارته لتحرير جريدة الأخبار ورئاسته لتحرير مجلة اللواء الإسلامى - مقالاً يومياً فى جريدة الأخبار تحت عمود «بلا مشاكل، كما يكتب المتهم الأول مقالاً يومياً فى جريدة الأهرام فى عمود يوميات، وما إن هل على الأمة الإسلامية شهر رمضان المعظم سنة ١٤٠٢ هجرية (يونيو/ يوليو ١٩٨٢ حتى شارك كثير من الكتاب فى إحياء ذكره ، وقد أثر المتهم الأول أن أشار فى إحياء هذه المناسبة - وهو كاتب مقرر يحظى كل ما يكتبه باهتمام القراء عامة والمثقفين خاصة - فاختار لعموده اليومى فى جريدة الأهرام (يوميات) عنواناً فرعياً أسماه «رمضانيات، وعرض فيه لثلاث من القضايا الكبرى المعاصرة فى الفكر الإسلامى، وهى قضية التراث، وقضية الشورى، وقضية الحكم الدينى فى الإسلام وجميعها قضايا تثير بطبيعتها كثير من الجدل والخلاف وتحظى قبل غيرها باهتمام الكثيرين من مفكرى العالم وعلى الأخص، العلماء المسلمين وتفجر

الصراع الفكرى بين علماء المسلمين وكتابهم ومفكريهم، فأزهرهم فريق منهم وفريق خالفه وثار على نهجه حتى وصل الصراع إلى ذورته عندما فجر المتهم الأول مسألة غيبية هى فضل ليلة القدر وخيرتها وتعرض لروايات التراث فيها وهاجم بعضها فى سخرية، وانزلق قلمه فوصف بعض رأى أولئك من علماء التراث بالعبارة التالية.. «وكان الله - غفر لنا - يقيم أوكازيوناً. العبادة فيه بسعر الجملة، أسهل وأرخص، وكان ذلك فى عدد الأهرام الصادر فى ٨٢/٧/١٧ وإذا استفسرت المدعى هذه العبارة - لما استشعره فيها من مساس بالعقيدة الدينية لدى المسلمين - واستغزته للرد عليها فنشر فى جريدة الأخبار فى اليوم التالى ٨٢/٧/١٨ فى عموده بلا مشاكل مقالاً قال فيه «أعود مرة أخرى إلى الكاتب الذى يتحدث عن الإسلام فى الفترة الأخيرة حديث المجدد فيه، المصلح الذى يريد إصلاحاً فى الأرض، يأتى فضيلة الكاتب ليقول عن ليلة القدر أنها دخل عليها أشياء كثيرة ربما للزيادة فى جلالها، ولكن هذا لا يعجبه.. ثم يمضى الكاتب فى سخرية تكشف عما فى الصدور، أن العلماء قالوا إن قيام ليلة القدر يساوى عبادة ألف شهر ويتساءل فى سخرية.. هل الله يقيم أوكازيوناً كل ليلة قدر، هكذا وفى رمضان.. ويضيف المدعى أنه لم ينسب إلى المتهم - كاتب المقال المذكور شيئاً لم يقله فهو عندما قال إن الأخير تساءل فى سخرية هل الله يقيم أوكازيوناً كل ليلة قدر

وثائق

كان ينقل نفس عبارته، «وكان الله يقيم أوكازيوناً». ذلك أن لفظ كان في هذه العبارة لا يحمل إلا معنى التساؤل الساخر الذى ذكره المدعى فى مقاله، إلا أنه فوجئ بالمتهم الأول ينشر مقالين فى جريدة الأهرام يومى ٨/٢. ٨/٣. ٨/٢ فى عموده اليومى تحت باب يوميات، خرج فيها على حدود النقد المباح حين بدأهما بعبارة «أخيراً ضبطنا الصحفى الدجال متلبساً بالتزوير وإنهال على المدعى المدنى يكيل له الاتهامات وعبارات القذف والسباب العلنى بأن نعتة بأنه صحفى مزور ودجال خائن لمهنته الصحافة ومزور محترف واتهمه بأنه حرف كلامه المنشور فى جريدة الأهرام ونسب إليه ما لم يقله كما سبق أن حرف كلام رئيس الدولة السابق الذى أعد طلباً لفصله من نقابة الصحفيين لولا تدخله - المتهم الأول - شخصياً لدى الرئيس السابق لوقف طلب الفصل، كما وصفه بأنه لا يجيد غير أسلوب التهريج الصحفى الذى لم يتعلم غيره، واتهمه بأنه يسئ إلى شرف المهنة ولا يستطيع بنفسه وإنما يستطيع بغيره... وما إلى ذلك من عبارات القذف والسب العلنى، التى تضمنتها المقاليتين المذكورتين على نحو يتوافق معه فى حقه أركان جرائم القذف والسب العلنى المؤتممة بمواد الاتهام، كما يعد المتهم الثانى فاعلاً أصلياً مع المتهم الأول فى ارتكاب تلك الجرائم بحكم مسئوليته الافتراضية عملاً بالمادة ١٩٥ عقوبات إذ سمح للمتهم الأول بنشرها فى الجريدة التى يرأس الثانى

تحريرها، ونظراً لأن المدعى بالحق المدني قد أصابته أضرار مادية وأدبية من جراء عمل المتهمين الأول والثاني غير المشروع وهو ما يقدر مؤقتاً بمبلغ ١٠١ جنيه، كما تتحقق مسؤولية المدعى عليه الثالث بصفته عن تعريض هذا الضرر بحكم رئاسته وإشرافه للمتهمين الأول والثاني استناداً إلى أحكام مسؤولية المتبرع عن أعمال التابع ومن ثم - وبعد أن حصل المدعى بالحق المدني على إذن نقابة الصحفيين باختصاص المتهمين - أقام دعواه للحكم له بطلباته واختصم ممثل النيابة العامة بصفته لتحريك الدعوى الجنائية قبل المتهمين الأول والثاني وقدم تأييداً لها حافظتى مستندات طويت الأولى على إذن نقابة الصحفيين المؤرخ ٨٢/٨/١٦ باختصاص المتهم الأول وإذنها المؤرخ ٨٢/١١/١٦. باختصاص المتهم الثاني والمسئول بالحقوق المدنية بصفته. وطويت الحافظة الثانية على مقالة المتهم الأول المنشورة بجريدة الأهرام يوم ٨٢/٧/٢٧ فى شأن تفسيره لسورة ليلة القدر، ومقالة المدعى المدني المنشورة فى جريدة الأخبار يوم تعليقاً على مقالة المتهم الأول سالف الذكر، ومقالتي المتهم المؤرختين ٨٢/٨/٣، ٨٢/٨/٢ المتضمنتين لعبارات القذف والسبق العلنى المقول بها. وإذ تداولت الدعوى على النحو المبين بمحاضر جلساتها أمام محكمة بولاق، وحضر وكيل المتهم ودفع بعدم قبول الدعوى الجنائية لعدم سبقها بشكوى من المجنى عليه لشخصه أو من وكيله الخاص، خاصة وأنه

لم يوقع على صحيفة افتتاح الدعوى حتى تعتبر الصحيفة بمثابة شكرى، وتغنى عنها، وقدم أربع حواظ مستندات طويت الأولى على صورة من التوكيل الصادر له من المتهم الأول وطويت الثانية على عشرون نسخة من المقالات المنشورة والتي تحكى قصة الصراع بين طرفا التذاعى. وطويت الثالثة على تجميع من بعض المقالات المقدمة بالحافطة الثانية يكشف عن مواضع التزوير المقبل به وطويت الرابعة على بعض مقالات تؤيد وجهة نظر المتهم الأول وفكره فى قضية الشورى والتراث الإسلامى وطلب إثبات بيانات التوكيل الخاص بالحاضر عن المدعى المدنى فتبين أن توكيله برقم ٦١٠ لسنة ٨٢ رسمى عام جنوب القاهرة صادر بتاريخ ١٣/١١/٨٢ وقدم الحاضر عن المتهم الثانى والمسئول بالحق المدنى مذكرة شارحة للدفع بعدم قبول الدعوى بشقيها لعدم سبقها بشكرى وطلب الحاضرون جميعاً إحالة الدعوى إلى محكمة عابدين لنظرها مع الدعوى رقم ٤٣٢٦ لسنة ٨٢ جنح عابدين المرفوعة من ذات الخصوم. وأحيلت الدعوى إلى هذه المحكمة وصار قيدها برقم ٥٢٢٥ لسنة ٨٢ جنح عابدين وجلسة ٨/٣/٨٣ حضر المدعى المدنى بشخصه ومعه محام قدم حافطة مستندات طويت على صورة رسمية من شكواه المقدمة إلى نيابة بولاق فى ١٠/٨/٨٢ من ذات الواقعة والتي قيدت برقم ٢٠٩ لسنة ٨٢ وأقر بأن موكله سبق أن وقع على أصل صحيفة افتتاح

الدعوى واعترض الحاضرون عن المتهم الأول ودفع بأن توقيع المدعى المدنى على أصل الصحيفة محشر بالإضافة بعد إعلانها وقدم صورتها المعلنة للمضاهاة فتبين خلوها من توقيع المدعى المدنى على خلاف الأصل، وبالجلسة الختامية طلب الحاضرون حجز الدعوى للحكم مع الدعوى رقم ٤٣٢٦ لسنة ٨٢ مع التصريح لهم بتقديم مذكرات فى الدفع والموضوع، فقررت المحكمة حجزها للحكم بجلسة ٨٣/٤/١٦، وصرحت بتقديم مذكرات لمن يشاء فى أربعة أسابيع، وخلال الفترة المحددة أودع وكيل المدعى بالحق المدنى مذكرة رد فيها على الدفع بعدم قبول الدعوى بإيراد حكم حديث لمحكمة النقض صدر فى الطعن رقم ١٤٩٥ لسنة ٤٥ قضائية السنة ٢٧ جلسة ٢٩/٣/١٩٧٦، جاء فيه أن الدفع بعدم قبول الدعوى لأن محامى المدعى بالحق المدنى قدم صحيفة الإدعاء المباشر دون أن يصدر له توكيل خاص منه ليس بصائب، ذلك أن المادة الثالثة من قانون الإجراءات لا تشترط ذلك إلا فى حالة الشكوى، ولا ينسحب حكمها للإدعاء المباشر، وبالإضافة إلى ذلك فإن المدعى المدنى تقدم بشكوى فى الميعاد ووقع صحيفة الإدعاء المباشر وهى المعول عليها، وردد ما جاء فى صحيفة دعواه بالنسبة للموضوع وصمم على الطلبات، كما أودع وكيل المتهم الأول مذكرة بدفاعه تضمنت شرحاً لأوجه دفاعه الخاص، بعدم قبول الدعوى وتمسك بحرفية نص المادة ١٣.ج التى

استوجبت تقديم الشكوى من المجنى عليه أو من وكيله الخاص دون أعمال حكم النفس لأن حكم النص أولى بالتطبيق وأضاف إلى الدفع دفعا آخر بعدم قبول الدعوى لرفعها قبل الا وان بمقوله أنه إن صح أن المجنى عليه تقدم بشكواه إلى نيابة بولاق فى ١٠/٨/٨٢ وقيدت برقم ٢٠٩ لسنة ٨٢ - وإن كان ذلك على خلاف الوارد بالصورة المقدمة ضمن حافظة المدعى الثابت أنها مقيدة برقم ٢٠٩ لسنة ٨٢ على افتراض أنه خطأ ماذى فإنه كان يتعين على المجنى عليه أن يترىث فى إقامة دعواه إلى أن يصدر قرار النيابة العامة فى الشكوى سواء بالحفظ وقيدتها بدفتر الشكاوى أم بتقديمها إلى المحاكمة. أما أن يتعجل ويرفع دعواه المباشرة قبل صدور قرار النيابة العامة فى الشكوى فإن دعواه تكون غير مقبولة لأن شرط قبول الادعاء المباشر ألا يكون الأمر قد اتصل بسلطة التحقيق ولم يبت فيه بعد. ثم عرض إلى الموضوع وطلب البراءة، ورفض الدعوى المدنية تأسيساً على أن المتهم تعرض لحملة من الافتراءات والأكاذيب تغيت اغتيال شخصيته ومركزه كصحفى وكاتب ومفكر له مكانته، فاضطر إلى الدفاع عن نفسه وعن شخصيته الأدبية وهو حق مقرر له عملاً بالمادة ٦٠ عقوبات، وكانت وسيلته إلى الدفاع عن نفسه هو استخدام حق الرد على ما نشر ضده من أكاذيب عن طريق نشر تصحيح لما نشره عنه جريدة المدعى بالحق المدنى وطبيعى

والحال كذلك أن يكون الرد بذات الأسلوب الذى اتخذه ضده - فلم يكن مقبولا أن يقول للمدعى المدنى (جرحنى لحظك) فاضطر اضطرارا لا خيار له فيه إلى أن يعرى المدعى بالحق المدنى ويكشف أغراضه ومآربه وأن يفصح التزوير المحترف الذى باشره ضده وتوسده، فيما كاله إليه بما وقعه به .

كما أودع الحاضر عن المتهم الثانى والمسئول عن الحقوق المدنية بصفته مذكرة تمسك فيها بالدفع بعدم قبول الدعوى وبعدم الإعتداء بالشكوى المقدمة بحافظة المدعى لصورتها وتقديمها بعد انقضاء الثلاثة شهور المقررة بالمادة ٣ أ.ج وإن أعطيت تاريخا سابقا عليها لينقذ بها دعواه من عدم القبول وعرض للموضوع وطلب براءة المتهم الثانى . ورفض الدعوى المدنية استنادا إلى أن المتهم الأول لم يرتكب خطأ وإنما كان يدافع عن نفسه، ويكشف التزوير الواقع على مقالته وانضم فى ذلك دفاع المتهم الأول وطلب احتياطيا إعادة الدعوى إلى المرافعة لضم أصل الشكوى رقم ٢٠٩ لسنة ٨٢ إدارى بولاق .

وحين أنه عن الدفع بعدم قبول الدعوى بشقيها لعدم سبقها بشكوى من المجنى عليه أو من وكيله الخاص فمردود بأنه من المقرر فى قضاء النقص الجنائى - الذى تتبعه هذه المحكمة وتأخذ به - أن اشتراط تقديم الشكوى من المجنى عليه أو من وكيله الخاص فى الفترة المحددة بالمادة الثالثة من قانون الإجراءات الجنائية عن الجرائم المبينة بها . ومن

بينها جريمة القذف والسب العلني المقامة عنها الدعاوى المطروحة، هو في حقيقته قيد وارد على حرية النيابة العامة في استعمال الدعوى الجنائية ولا يمس حق المدعى بالتحقيق المدنية أو من ينوب عنه - بأي صورة من الصور في حدود القواعد العامة - في أن يحرك الدعاوى أمام محكمة الموضوع مباشرة عن طريق الدعوى المباشرة في خلال الثلاثة أشهر التي نص عليها القانون - ولو بدون شكوى سابقة - لأن الادعاء المباشر هو بمثابة شكوى (نقص جنائي ٥٦/٢/٦ الطعن رقم ١١٩٦ لسنة ٢٥ قضائية مجموعة الأحكام س ٧ ص ١٣٨، نقص جنائي ١٩٨٠/٤/٢١ الطعن رقم ٢٣٨٦ لسنة ٤٩ قضائية مجموعة الأحكام س ٣١، ض ٥٤٤).

وحيث إنه عن الدفع بعدم قبول الدعوى لعدم توقيعتها من وكيل المدعى الخاص خلال الثلاثة شهور المقررة فمردود بدوره بأن قضاء النقص قد استقر على أن ما يثيره المدعى عليه من عدم قبول الدعوى لأن محامي المدعى بالحق المدني قدم صحيفة الإدعاء المباشر دون أن يصدر له توكيل خاص منه ليس بصائب، ذلك أن المادة الثالثة من قانون الإجراءات الجنائية لا تشترط ذلك إلا في حالة تقديم الشكوى، ولا ينسحب حكمها على الإدعاء المباشر (نقص جنائي ١٩٧٠/٤/٦) مجموعة الأحكام س ٢١ ق القاعدة رقم ١٣١ ص ٥٥٢، نقص ١٩٧٦/٣/٢٩ الطعن رقم ١٤٩٥

لسنة ٤٥ قضائية س ٣٧ ص ٣٦٩. يضاف إلى ذلك أن المدعى بالحق المدني باشر دعواه بنفسه ووقع أصل الصحيفة إلى جانب محاميه وقدمها إلى المحكمة في الميعاد. وحيث أنه عن الدفع بعدم قبول الدعوى لرفعها قبل الأوان بمقولة أن المدعى المدني تسرع في رفع دعواه ولم ينتظر قرار النيابة العامة فيها ومن شروط قبول الإدعاء المباشر إلا يكون الأمر قد اتصل بسلطة التحقيق ولم تبت فيه فمردود بدوره بأن قيد الشكوى، برغم إدارى وحفظها بدفتر الشكاوى الإدارية هو في حقيقته تصرف في الشكوى من قبل جهة التحقيق يملك مقدم الشكوى بعد إقامة دعواه بالطريق المباشر. ومن ثم تضحى جميع الدفوع الخاصة بعدم قبول الدعوى - المبداه من وكلاء المتهمين والمسئول بالحقوق المدنية غير مستندة إلى سببها من صحيح القانون متعين القضاء برفضها.

وحيث أن المحكمة إذ تعرض لموضوع الدعوى وقد أحاطت بمقالات المتهم المنوه عنها بصحيفة الدعوى والعبارات الواردة بها - المقول بخروجها عن حدود النقد المباح إلى القذف والسب العلنى فى حق المدعى المدني، ورد المتهم على ذلك وما تضمنته مذكرة دفاعه من أنه استعمل حقه فى الرد وكان فى مجال الدفاع عن شخصيته الأدبية والمعنوية.. لا يفترها أن تشير فى عجالة إلى ما سبق أن وضحته تفصيلاً فى الحكم الصادر فى الدعوى رقم ٤٣٢٦ لسنة ٨٢ جنح

عابدين المنظورة مع هذه الدعوى بين ذات الخصوم من أن حرية الرأي مكفولة طبقاً للمادة ٤٧ من الدستور الدائم وإن لكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول والكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير في حدود القانون، وإن القانون قد بين حدود النقد المباح منها وغير المباح. وتطلب لكي يكون النقد مباحاً:

- ١ - أن يرد على واقعة ثابتة أو مسلمة إذ لا يبيح حق النقد التصدى إلى الوقائع المستورة بقصد كشفها.
- ٢ - وأن يتمثل النقد في صورة رأى أو تعليق على عمل أو واقعة صدرت من المجنى عليه هي وعاء النقد.
- ٣ - وأن يكون التصرف أو الواقعة وعاء النقد ذات أهمية اجتماعية بحيث يؤدي انتقادها إلى تحقيق مصلحة عامة.
- ٤ - وأن يلتزم الناقد العبارة الملائمة والألفاظ المناسبة للنقد على النحو الذي يطلب من الناس احتمالها أخذاً بمعيار الرجل العادى - وسقنا في ذلك أمثلة من قضاء النقص الجنائي التي انتهى إلى أنه: «وإن كان للإنسان أن يشتد في نقد أعمال أخصامه ويقسو عليهم ما شاء إلا أن ذلك كله يجب ألا يتعدى حد النقد المباح، فإذا خرج بذلك إلى حد الطعن والتشهير والتجريح فقد حقت عليه كلمة القانون ولا يبرر عمله أن يكون خصومه قد سبقوه في صحفهم إلى استجابة حرمان القانون».

٥ - وأن يتوافر لدى الناقد حسن النية بأن يلتزم حدود الغرض الذي أبيح من أجله حق النقد وهو تحقيق المصلحة العامة غير مستند إلى «هوى أو مدفوع بباعث شخصي».

وحيث أنه بتطبيق المبادئ سالفة البيان على واقعات الدعوى يتبين أن المتهم الأول حين كتب مقالیه المنشورين بجريدة الأهرام يومى ٢٠٢/٨/٨٢ تحت عامود يوميات، قد خرج على حدود النقد المباح إلى حد الطعن والتشهير والتجريح لشخص المدعى بالحق المدنى إذ نعته بأنه صحفى مزور ودجال، ولم يكتف بذلك بل نقب فى ماضيه وكشف مستور حياته بأن اتهمه بأنه معتاد التزوير (مزور محترف) سبق له أن زور كلام رئيس الدولة الذى رأى فصله من نقابة الصحفيين لولا تدخل - المتهم - كاتب المقالة للعفو عنه. والإبقاء عليه فى جريدته وما إلى ذلك من الألفاظ والعبارات الجارحة التى لا تخدم رأياً ولا قضية والتى وجهها المجنى عليه وهو عالم بمدلولها ووقعها فى نفوس العامة من القراء على نحو يظهر القصد الجنائى لديه من أنه استهدف المجنى عليه النيل من شرفه واعتباره على نحو يوفر فى حقه أركان جرمتى القذف والسب العلنى المؤثمين بالمواد ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٦ - ٣٠٧ من قانون العقوبات مما يتعين معه والحال كذلك معاقبته جنائياً بمواد الاتهام للثبوت عملاً بالمادة ٢٠٤/٣٠٤ أ.ج.

ولا ينال من هذا إلا القضاء ما دفع به المتهم الأول من أنه

كان فى مجال الدفاع عن نفسه مستخدماً فى ذلك حقاً من حقوق الشريعة الإسلامية عملاً بالمادة ٦٠ من قانون العقوبات لأن ذلك مردود بأن شروط استخدام حق الدفاع الشرعى كمانع من العقاب يتطلب أن يكون ثمة اعتداء وشيك الوقوع على نفس المدافع أو ماله أو نفس الغير ولم يكن لإرادة المدافع دخل فى حدوثه ولا فى قدرته منعه بطريقة أخرى، فليس من بين أسباب الدفاع ما يسمى باغتتيال الشخصية المعنوية والحال أن ألفاظ السباب وقعت بالفعل من الطرف الآخر والرد عليها بمثلها ليس درءاً لها وإنما هو من قبيل الانتقام وهو ما يقره القانون . كما لا ينال من هذا القضاء ما دفع به المتهم من أنه استعمل حق الرد على المدعى بالحق المدنى عما كاله له من ألفاظ السباب والقفز ووقائع التزوير التى أفرد لها دعوى مستقلة فى الدعوى رقم ٤٣٢٦ لسنة ٨٢ جنح عابدين المنظورة مع هذه الدعوى لأن ذلك مردود بأن ما بدر من المتهم لا يبرره أن يكون خصمه قد سبقه فى صحيفته إلى استباحة حرمان القانون فى هذا الباب وكان أحرى به أن يتمثل قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الحديث الشريف: «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن، فلا يرد العيب عيباً.

وحيث جرى نص المادة ١٩٥ من قانون العقوبات على أنه مع عدم الإخلال بالمسئولية الجنائية بالنسبة لمؤلف الكتاب أو واضع الرسم أو غير ذلك من طرق التمثيل يعاقب رئيس

تحرير الجريدة أو المحرر المسئول عن قسمها الذي خصل فيه النشر إذا لم يكن ثمة رئيس تحرير بصفته فاعلاً أصلياً للجرائم التي ترتكب بواسطة صحيفته، ومع ذلك يقف من المسؤولية الجنائية إذ أثبت أن النشر حصل دون علمه وقدم منذ بدء التحقيق كل ما لديه من المعلومات والأوراق للمساعدة على معرفة المسئول عما نشر، وإذا أرشد في أثناء التحقيق عن مرتكب الجريمة وقدم كل ما لديه من المعلومات والأوراق لإثبات مسئوليته وأثبت فوق ذلك أنه لو لم يتم بالنشر لعارض نفسه لخسارة وظيفته في الجريدة أو لضرر جسيم آخر ومن ثم فمسئولية رئيس التحرير عما ينشر في جريدته مسئولية مفترضة مبناهما صفته ووظيفته في الجريدة فهي تلازمه متى ثبت أنه يباشر عادة وبصورة عامة دوره في الإشراف، ولو صادف أنه لم يشرف بالفعل على إصدار هذا العدد أو ذلك من إعداد الجريدة ولا يزعم هذه المسئولية عن عائقه أن يكون قد عهد ببعض اختصاصه لشخص آخر ما دام قد استبقى لنفسه حق الإشراف عليه، ذلك لأن مراد الشارع من تقرير هذه المسئولية المفترضة إنما مردوده في الواقع هو افتراض علم رئيس التحرير بما تنشره جريدته التي يشرف عليها، فمسئوليته إذن مفترضة نتيجة افتراض هذا العلم ما لم يثبت أن النشر تم بدون علمه أو أنه ما كان يقدر على منع النشر دون فقد وظيفته أو إلحاق خسارة مادية بالجريدة (نقض جنائي ١٧/١١/١٩٦٤، الطعن رقم ٤٨٢

وثائق

لسنة ٣٤ ق.ص. ٨٦٧، نقص ١٩٧٥/٦/٢٣ الطعن رقم ١٧٧ لسنة ٤٥، ق.ص. ٥٦٧). إذ كان ذلك وكان مسئولية المتهم الثاني بصفته رئيساً لتحرير جريدة الأهرام ثابتة على النحو السالف بيانه ولم يدفع المتهم عن نفسه بئمة دفع أو دفاع ومن ثم يعين معاقبته بمواد الاتهام للثبوت عملاً بالمادة ٣٠٤/٢.أ.ج.

وحيث أنه عن الدعوى المدنية المقامة بالتبعية للدعوى الجنائية وقد قضى بإدانة المتهمين الأول والثاني لثبوت ارتكابهما للعمل غير المشروع وهو ما يشكل في جانبيهما ركن الخطأ في المسئولية التقصيرية المؤسسة عليهما دعوى التعويض، وكان ضرر المدعى بالحق المدني ثابت من المساس بشرفه واعتباره والنيل من كرامته بين أهل وطنه ومحبيه من قرائه، وقد ارتبط ما أصابه من ضرر بخطأ المتهمين ارتباط السبب بالمسبب على نحو يحقق أركان المسئولية التقصيرية - من خطأ وضرر وعلاقة سببية - في جانب المتهمين ويتعين والحال كذلك مساءلتهم مدنياً عن جهر الضرر الذي أصاب المدعى بالحق المدني عملاً بالمادة ٢٥١ من قانون الإجراءات الجنائية والمادة ١٦٢ من القانون المدني.

وحيث أنه وقد ثبتت مسئولية المتهمين عن الخطأ والضرر على النحو السالف بيانه ومن ثم تتحقق مسئولية رئيس مجلس إدارة جريدة الأهرام بصفته المسئول بالحق المدني

عن أخطاء تابعيه عملاً بالمادة ١٧٤ من القانون المدني .
 وحيث أن المدعى بالحق المدني قد اكتفى بتقدير التعويض
 المدني الجابر لما أصابه من ضرر بمبلغ ١٠١ جنيه على سبيل
 التعويض المؤقت ومن ثم يتعين القضاء له به .
 وحيث أنه عن المصروفات شاملة أتعاب المحاماة فإن
 المحكمة تلزم بها المتهمين عملاً بالمواد ١٣٢٠ ج، ١٨٤،
 مرافعات .

فلهذه الأسباب

حكمت المحكمة حضورياً بالنسبة للمتهم الأول وحضورياً
 اعتبارياً بالنسبة للمتهم الثاني بتغريم كل منهما مائتي جنيه
 والزمتهما والمسئول بالحقوق المدنية بصفته بأن يؤدوا
 للمدعى بالحق المدني - بالتضامن فيما بينهم وعلى سبيل
 التعويض المؤقت مبلغ ١٠١ جنيهًا . والمصروفات ومائتي
 قرش مقابل أتعاب المحاماة .

رئيس المحكمة

رسالة جبهة النضال الشعبي الفلسطيني

الاستاذ أحمد بهاء الدين المحترم

لقاهرة

تحية لنضال والثورة وبعد،

اطلعت قيادة جبهة النضال الشعبي الفلسطيني عل مقالكم المنشور في جريدة الاهرام بتاريخ ١٢/١٩٦٩ تحت عنوان (بعد قنبلة أثينا) وترجو الجبهة أن تعملوا علي نشر هذه الكلمة المتعلقة بالموضوع في أول عدد يصدر عن الاهرام، تحقيقاً للفائدة المرجوة . وحبذا لو نشرت أيضاً في مجلة المصور.

نود قبل كل شئ تسجيل النقاط التي نتفق معك عليها «مستخدمين نفس عباراتك الواردة في المقال المشار اليه، ونرددها معك وهي:

١ - الامر الذي يجب ان نقاومه جميعاً في نفوسنا هو، ان يصبح موضوع (المقاومة الفلسطينية) موضوعاً مقدساً لا يجوز التعرض له أو مناقشته) .

٢ - ان من حق المقاومة الفلسطينية أن تتصدي لاسرائيل أينما كانت ومن حق المقاومة الفلسطينية ان تسمع العالم كله

صوتها. بل وأقول - عن عقيدة - أكثر من ذلك : ان من حقها ان تجعل العلم كله مجتمع انساني ... يدفع الثمن .

فاسرائيل هي الدولة الوحيدة التي أقامها المجتمع الدولي بقرار من الامم المتحدة علي أرض شعب آخر وعلي أشلائه . فالمجتمع الدولي كله مسئول وإذا قيل - كم يقال في الخارج - ان المقاومة الفلسطينية تخرج علي قوانين العالم فالسبب هو أن العالم نفسه خرج علي القانون الطبيعي .

٣ - وإن كانت الحركة الصهيونية قد استطاعت ان تشعر العالم كله بذنب اضطهاد اليهود ... فلا بد أن يشعر العالم بالذنب الذي ارتكبه ويرتكبه الي الان في حق الشعب الفلسطيني .

ولكن ليسمح لنا الاستاذ الكبير أن نقول بأن ما يرد في باقي المقال المشار اليه متناقض الي حد غير قليل مع النقطتين الثانية والثالثة السالفتي الذكر . والانطباع العام الذي يخرج به القارئ للمقال ، ان الاستاذ أحمد بها الدين لا يوافق علي التعدي علي اسرائيل اينما كانت . أو أنه يضع لذلك شروطاً حساسة لدرجة ان تلغي الشروط المبدأ . وكنا نفضل ان يكون الاستاذ أكثر صراحة حول هذه النقطة - وهو الذي دعا في أول المقال الي ضرورة حرية المناقشة وابداء الرأي - اذن لكانت مناقشة الرأي أسهل وأدق . يؤيد هذا الاستنتاج ما جاء

وتناق

في المقال من كلام طويل حول المناقشات التي أوردتها الاستاذ مع بعض المقاتلين الفلسطينيين ليسوا من المنظمة صاحبة القنبلة الاخيرة علي أي حال - حول هذا النوع من العمليات .

في رأينا أن الموافقة علي أي مبدأ يجب أن تعني ممارسة ما ينطون عليه من أعمال ، مع التسليم بأن أي عمل يقوم به الانسان معرض لان تقع فيه بعض الامور الغير متوقعة ، والا فإن الامر يكون مجرد فكر خيالي ، أو موافقة شكلية .

ويطبيعة الحال يبقى بعد ذلك ان تكون الممارسة مدروسة ومخططة لكي تحقق الغاية الاساسية . وفي رأينا ويقدر ما لمسه من ردود فعل شعبية عربية او علي المستوي السياسي العالمي أو علي مستوي العدو نفسه فان ردود الفعل التي ترتبت علي حادثة اثينا كانت اجابية اكثر منها سلبية

نود في هذه المناسبة ، أن نطرح بعض الحقائق والمعلومات لتوضيح الامر ، ولتنوير الاستاذ أحمد بها الدين ببعضها ولتذكيره بالبعض الآخر . كما نطرحها لاطلاع الجميع :

١ - إن جبهة النضال الشعبي الفلسطيني ، التي حرص الاستاذ أحمد بها الدين علي عدم ذكر اسمها في كل مقاله ، بشكل مقصود - علي ما يبدو - نشأت مباشرة بعد حرب حزيران سنة ١٩٦٧ داخل الارض المحتلة . ثم امتد تنظيمها

الي الضفة الشرقية والي كثير من الاقطار العربية وغير العربية .

ان جبهة النضال الشعبي بسبب ذلك قد ركزت نشاطاتها - وخاصة العسكري منها - داخل الارض المحتلة قديماً والمحتلة حديثاً . وقامت بعدة عمليات عسكرية كبيرة نذكر منها علي سبيل المثال ما يلي :

* عملية قطع الارسال الاناعي عن مدينة بيت لحم أثناء حفلاء عيد الميلاد سنة ١٩٦٧ .

* عملية حريق مطار اللد الكبير يوم ٢٤/١٠/١٩٦٨ (وقد نشرت أخبارها في جريدة الاهرام في حينه مع الاشارة الي جبهة النضال الشعبي الفلسطيني .

* معركة (جبال الخليل) يوم ٤/٢/١٩٦٩ (والتي دارت رحاها يوماً كاملاً بين قوات العدو وبين مجموعة من مقاتلي الجبهة كانت تقود جملاً محملة بالسلاح والعتاد لاعضاء الجبهة في الداخل ، والتي استشهد فيها عدد من أعضاء جبهة النضال الشعبي الفلسطيني وأسروا آخرون من بينهم المناضل (نبيل قبلاني) الذي يحاكم الان أما محاكم العدر ، وهو الذي تحدي سلطات الاحتلال أثناء محاكمته بشكل لم يسبق له مثيل . كما ورد في جريدة (الاتحاد) التي تصدر في الارض المحتلة .

* نسف خط سكة الحديد الذي يربط القدس مع يافا ، يوم
١٩٦٩/٢/١٦ .

* معركة (جرون الحمص) شمالي مدينة بيت لحم يوم
١٩٦٩/٥/١٤ التي دمر فيها للعدو خمس سيارات عسكرية ،
وقتل وجرح معظم من فيها ومن بينهم ضابط برتبة ميچور
(صاغ) .

* نسف وتدمير ابراج وخطوط كهرباء التوتر العالي شمالي
ميناء ايلات يوم ١٩٦٩/٧/١٧ ، ومرة أخرى يوم
١٩٦٩/٩/١٣ .

* معركة (شتولا) في الجليل الاعلي يوم ١٩٦٩/١٠/١٥
التي استمرت ١٢ ساعة ودمر فيها للعدو ثلاث سيارات
عسكرية وقتل وجرح معظم من فيها ، واستشهد أثناءها
المناضلون لابطال : رزق علي عبد الرحمن - وحسن
الجنوب - وحسن حسين كرديه - صارم - وجمعة حسن
البتي - ابو الحسن - من مقاتلي جبهة النضال الشعبي
الفلسطيني .

٢ - أن جبهة النضال الشعبي الفلسطيني قد لا تكون معروفة
كثيراً لدى الصحافة لأنها تتجنب الضجيج الاعلامي لنفسها ،
ولكنها معروفة تماماً لعرب المنطقة المحتلة من فلسطين ،
والمقاتلين عموماً ، وللعدو الصهيوني بالذات - معروفة

بأعمالها القتالية ويمتازنيها الذين وقفوا ويقفون اليوم امام المحاكم والتعذيب وفي السجون ، واذا كان الاستاذ احمد بهاء الدين يرغب في تدوين قصة واكثر من اروع قصص البطولة والصمود امام التحقيق والتعذيب ، فليسأل عن قصة البطل (عبد المطلب ابو ارميله) عضو جبهة النضال الشعبي الفلسطيني الذي اتهم بحرق مطار اللد يوم ٢٤/١٠/١٩٦٨ والذي يحتجز الان داخل مستشفى المجانين ، بعد ما اصابه من التعذيب الوحشي أو فليدون اعمال المناضل كمال النمري المهندس المحكوم بالسجن ١٦٣ سنة والموجود حالياً في سجن العدو .

٣ - حبذا لو يطلع الاستاذ أحمد بهاء الدين علي ميثاق جبهة النضال الشعبي الفلسطيني ليتعرف علي تفكير اعضائها وقيادتها والي أن يتحقق ذلك ندون هنا أسطراً من هذا الميثاق تضمنها البلاغ العسكري الذي أصدرته الجبهة حول عملية أثينا الاخيرة .

* من حق الثورة الفلسطينية ومن واجبها ان توجه ضرباتها للصهيونية العالمية اينما وجدت ، في فلسطين او في أية ارض عربية ، أو غير عربية من اجل توسيع ساحة الكفاح وتشثيت قوي العدو .

* جبهة النضال الشعبي الفلسطيني حركة جماهيرية عربية

مستقلة تستمد قوتها من القوة الشعبية العاملة ، الفلسطينية والعربية .

* الثورة الشعبية المسلحة وحرب التحرير الشعبية الطويلة المدي ، وعدم التراجع ، بل التقدم الي ميادين نضالية جديدة هي الاستراتيجية العسكرية التي تعتمد عليها جبهة النضال الشعبي الفلسطيني .

* قضية الحرية والكفاح ضد المعسكر الامبريالي - الصهيوني - الرجعي قضية واحدة في جميع أنحاء العالم .

* الثروة الفلسطينية العربية حركة تقديم اخلاقية انسانية تقوم ضد كل اشكال الظلم والاستغلال والاحتكار .

* ان العلم هو السلاح الحقيقي للارادة الثورية ، ارادة التغيير التقدمي .. نحن نؤمن بالتخطيط ونرفض الارتجال والمراهقة والمزاودات والعفوية ، فالتخطيط هو الذي يتصدي لرسم حركة التغيير والتقدم في جميع المجالات .

٤ - نؤكد للاستاذ احمد بهاء الدين ان عملية أثينا كانت :

أ - تنفيذاً عملياً لما تؤمن به الجبهة من مبادئ واستراتيجية .

ب - كانت العملية مدروسة تماماً وسبقها استطلاع طويل .

ج - حرصت الجبهة عند وضع لخطة ان لا تؤدي العملية الي قتل أى فرد، وكان هذه الناحية مضمونة فلما الي حد

بعيد ، وأن وفاة الطفل كانت نتيجة لمصادفة غير متوقعة ،
تؤكد ذلك مجمل وقائع العملية ونتائجها .

د - نستغرب أن يعتبر نفس مكتب شركة طيران (العال) في
أثينا يوم محاكمة فدائي الجبهة الشعبية في زيورخ مضراً
بالمحاكمة من ناحية اعلامية ، وفي رأينا كما هو رأي
الكثيرين أن عملية أثينا ألفت أنظار العالم أكثر وأكثر الي
محاكمة زيورخ ، وعبر عن اصرار شعب فلسطين علي القتال
وضرب العدو في كل مكان .

هـ - لقد أرسلت جبهة النضال الشعبي الفلسطيني برقية تعزية
رقيقة الي والدة الطفل المتوفي وزعتها علي الصحافة المحلية
والعالمية فور سماعها بوقاة الطفل . نرفق لكم صورة عنها .

ونؤكد للاستاذ احمد بهاء الدين كم اكدنا لوالدة الطفل ان
معظم أعضاء جبهة النضال الشعبي الفلسطيني ، شأنهم في
ذلك شأن معظم أبناء فلسطين ، قد نكبوا في اهلهم ، فمنهم
من فقد والده او والدته او شقيقه او شقيقته او ابنه او ابنته
الذين من بينهم اطفال صغار ، نتيجة للعدوان الامبريالي
الصهيوني الرجعي وانهم لذلك اكثر من يستشعر بالالم الذي
ينتج عن قتل طفل او حرقه وتشويهه بالنابالم او غيره .

ومع ذلك فهم مقاتلون واعون بعيدون عن المغامرة او حب
الظهور .

٦ - نرسل مع هذه الكلمة مجموعة من الصور لاطفال من أبناء فلسطين قتلوا أو شوهوا ، وبعضها لاطفال من أبناء فلسطين في عمر الزهور يتدربون علي العمل الفدائي ، ويتعرضون للموت أو التشويه ، بدلا من أن يكونوا في مدارس آمنة كل ذلك بسبب العدوان الامبريالي الصهيوني .

نرسلها لكم لتعملوا علي نشرها مع هذا المقال ، وعلي المستوي العالمي ان امكن ، لعل الضمير الانساني - الذي يهتز لقتل طفل برئ - ان يهتز ايضاً لمأساة اطفال شعب فلسطين .

٧ - اننا نؤمن ان الامر ، فيما يتعلق باندعاية علي النطاق العالمي يتوقف في الدرجة الاولى ، علي ما نقوم به كعرب ، من نشاط اعلامي وان النشاط الاعلامي الصهيوني الامبريالي قادر علي محاصرتنا في عملياتنا داخل الارض المحتلة وتشويهها واستغلالها لصالحه ان لم نقوم جميعاً بالنشاط الاعلامي اللازم . وان عملية أثينا الاخيرة تحمل في حد ذاتها ، امكانات الاستفادة منها اعلاميا اكثر من احتمالات سوء الاستغلال ، ان فكرنا وعملنا بروح ثورية تتناسب مع ما يقاسيه شعب فلسطين وما يتعرض له من ويلات وأخطار ، ومعه الشعب العربي بشكل عام .

٨ - لقد عمد العدو الصهيوني المحتل مؤخراً علي تطبيق

(العقوبات الجماعية) التي هي في الحقيقة (مذابح جماعية)
 ضد أهلنا في الوطن المحتل ، فلماذا لا نستغل اهتمام العالم
 في حادث أثينا لابرار جرائم العدو المحتل .

وأخيراً فاننا نرحب دوماً بمثل هذ النقاش من صحافتنا العربية
 شريطة ان يصاحبه توضيح اعلامي علي المستوي العالمي ،
 يمتص ما قد يستغله العدو من أقوال ترد خلال مناقشاتنا ،
 ونكرر الرجاء بنشر صور اطفالنا الضحايا والمناضلين علي
 أوسع نطاق ممكن .

ودمت للنضال

١٩٦٩/١٢/٣

قيادة جبهة النضال الشعبي الفلسطيني

وتتألف

مجرمة العصر
في ضمير التاريخ وفي طبقات المستقبل

نحن أبناء الأمة العربية في طليعة المتأدين بحقوق الإنسان، ليس لأن حقوق الإنسان جماع،
أول ما جماعت، في بلادنا غير الأديان السماوية نحسب، ولكن لأن المظلومين هم عادة أول
المطالبين بحقوق الإنسان وأخلصهم. ونحن في هذا العصر مظلومون.

إن من أول حقوق الإنسان صفه في أن يرحل إلى حيث يريد، أن يعيش حيث يريد. وتاريخ الدنيا إلا هجرات عمرت أرجاء الأرض، مكتشفة غارات جديدة بأكسليها. ولقد كانت الهجرة دائما عنوة اختيارية غير منظمة، خالصة من أي نية غزو أو عدوان، ولكن تهجير مئات الألوف من اليهود السوفيت لامتزج في هذا الإطار، فهذه أول مرة في التاريخ يتم التهجير بتواطؤ دولي، وعلى يد الأقوياء، واغتصاب لأرض الآخرين، وعدوانا بحق حقوق الإنسان الفلسفية في أرضه الأصلية. فحق الإنسان لم يقتصر أبدا بإجراءات ترغسه على الذهاب إلى مكان معين، وليس سرا أن المهاجر اليهودي السوفيت يريد أن يذهب أساسا إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو غيا من دول الغرب، بينما كافة الإجراءات اتخذت لكي ترغم المهاجرين على الذهاب رأسا من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل، دون توقف في مكان يقررون فيه بقاء حريتهم إلى أين يريدون الذهاب، كما كان يحدث من قبل.

إليها عملية غزو متكاملة أركان الغزو. وإذا كانت أسلحة القتال لم نستخدم فيها، لأن المستخدم فيها هو أسلحة العذرات المادية الطاغية الأخرى، من مال غيرهم وطائرات كثيرة وسطوة دولية غير حدود، هدفها الأساسي طرد العرب من أرضهم، لئلا تساحتها إلى واحد من المئة من أراضي الدولتين الأكبر، يمكنها ثلاثة ملايين مواطن، وذلك في عملية إيجابية الرقعة من دولتين بهما أكثر من خمسمائة مليون مواطن، لئلا نضعهم القلاصا وهوحد عوا، ولا تتراجع أرض مقدسة، ولد فيها أنبياء، ن شئ الأديان، من ذاكرة البشرية جمعاء، استنادا إلى أسطورة في شياطين التاريخ عن وعد بين الله وبين شعب مختار، منحه بمقتضاه قلب الدنيا، ما بين النيل والفرات، وإلى كذبة غاشمة عن "أرض بلا سكان".

والأخطر من هذا كله أن هذا يجري في إطار من الدجل السياسي على مستوى فريده من
حكام العالم المتجربين وتحت عنوان حقوق الإنسان، إن الترجمة الصحيحة والوحيدة لحقوق
الإنسان في هذه القضية هي الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في إقامة دولته
المستقلة على أرضه، وحقوق اليهودي السوفيتي أن يهاجر إلى حيث يشاء.

وما هذا البيان إلا لتسجيل الجريمة في ضمير التاريخ، ولتأكيد أن ما يحتفظ الجريدة الميكروفيث في صفحة من صفحات التاريخ سوف ينقلب عليهم ذات يوم في صفحة أخرى من صفحاته الكثيرة.

صورة لبيان جريمة العصر، وقد أجرى عليه الأستاذ أحمد بهاء الدين بعض التعديلات بخطه.

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق

أ - غير المنشورة:

- دار الكتب المصرية ، محافظ عابدين ، محفظة رقم ٧ من محافظ مجلس الوزراء المصري رقم ٨٤ في جلسة ١٩٤٦/٩/٢٠ .
- محضر اجتماع مجلس نقابة الصحفيين المصريين في ١٩٦٨/٢/٢٨ ، في عام ١٩٦٨ .
- حكم محكمة عابدين ، الجلسة العلنية في ١٩٨٣/٤/٢٦ في قضية النيابة العمومية برقم ٤٢٠٦ .
- خطاب جبهة النضال الشعبي الفلسطيني الي احمد بهاء الدين في ١٩٦٩/١٢/٣ .
- الملف الطبي الخاص بتاريخ امراض احمد بهاء الدين وتطور الحالة الصحية له ، بجريدة الاهرام .

ب - المنشورة:

- بيان (جريمة العصر) منشور اخبار اليوم ١٩٩٠/٢/٢٣ .
- خطاب احمد بهاء الدين الي الرئيس انور السادات ١٩٧٣/٤/٥ .

ثانياً: الدوريات والصحف

- أخبار اليوم: ٥٩. ٦١، ٦٢، ١٩٦٣
- آخر ساعة (أسبوعية): ١٩٦٣، ٦٢ :
- الدستور : ١٩٨٩
- رابطة الشباب : ١٩٤٧
- روزاليوسف (شهرية) ٥٢، ٥٦، ١٩٧١
- الأهرام : ٦٢، ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٤، ١٩٧٨
- :(اليوميات) بين ٨١ - ١٩٩٠
- الأهرام المسائي: ١٩٩٢
- المستقبل العربي (شهرية) : ١٩٨٦
- الشباب (شهرية) : ٨٨، ١٩٩٠
- العربي (شهرية) : ٧٦ - ١٩٨١
- صباح الخير : ٥٦ - ١٩٨٠
- الشعب : ١٩٨٢
- المصور (شهرية) ٦٤، ٧٠، ٧١، ٧٨، ١٩٨٨
- المنتدى، شهرية : ١٩٨٩
- نصف الدنيا. (شهرية) ١٩٩٠

مصادر ومراجع

- Foreign Affairs, Autumn1992.
- Foreign Affairs, Spring83.
- Herled Tribune,14/2/1990.
- Unesco, Journal of World.
- History, off Priht. Neuchatel.
- Switzerland, VXIV1922 (The Arab Cultural Imagein World
- Contextr.
- The Middle East Journal(1960) Cheigne, A. The Use of
- History by Modern Arab Writers,14,P

ثانياً: رسائل جامعية

- حماد إبراهيم، صورة الولايات المتحدة الأمريكية في الصحافة
- المصرية اليومية - دراسة - مخطوطة مقارنة بين
- حقبتى الستينات والسبعينات، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية
- الإعلام، قسم الصحافة بجامعة القاهرة. ١٩٨٦ .
- رابعاً: قواميس وموسوعات

Grand Larousse,

Encyclopédique,2, Paris1960 p143

خامساً: حوارات شخصية

- السيدة ديزى أحمد بهاء الدين (زوجته)
- السيدة ليلي بهاء الدين (شقيقته)
- د. محمد عطية: طبيب متخصص فى القلب لأحمد بهاء
- د، مصطفى حنورة: تخصص فى علم النفس الإبداعى.
- الفنان: عبدالغنى أبو العينين

سادساً: المؤلفات والدراسات

- أ - العربية
- أحمد بهاء الدين:
- الاستعمار الأمريكى أو النقطة الرابعة، القاهرة، ١٩٥١
- مبادئ وأشخاص، دار الجمهورية، سلسلة كتب للجميع، القاهرة. العلم
- ١٩٥٦
- أزمة اتفاقية الوحدة الثلاثية، كتب قومية، القاهرة ١٩٥٩
- إسرائيليات، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة ١٩٦٥
- أفكار معاصرة، كتاب الهلال، دار من حولها من مناقشات، دار
- الآداب، بيروت ١٩٦٨
- الثورة الاشتراكية، قضايا ومناقشات، دار القلم، القاهرة ١٩٦٢
- أيام لها تاريخ، دار الشروق، القاهرة ط ٣ ١٥٥١
- ثلاث سنوات (يونيو ٦٧ - يونيو ١٩٧٠)

مصادر ومراجع

- قوميتنا فى امتحان جديد، القاهرة، الدار القومية، ١٩٥٩
- شهر فى روسيا، دار النديم، جريدة الصباح، القاهرة، بدون
- أبعاد فى المواجهة العربية الإسرائيلية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢ .
- وتحطمت الأسطورة عند الظهر، دار الشروق ، القاهرة ١٩٧٤
- شرعية السلطة فى العالم العربى، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٤
- محاوراتى مع السادات، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٧
- يوميات هذا الزمان، تقديم محمد حسنين هيكل، الأهرام ١٩٩٢
- أحمد عبدالله
- الطلبة والسياسة فى مصر، ترجمة إكرام يوسف، دار سينا، القاهرة، ط ١ / ١٩٩١
- باربولسكو، لوك - وكاردينال، فيليب
- رأيهم فى الإسلام تعريب ابن منصور العبد الله، دار الساقى، ١٩٨٧،
- وقد قمت بمراجعة الترجمة على النص الفرنسى فى الفقرات التى استفدت بها وأثبتها، وذلك بالعودة للنص الأصلى بعنوان
- مصرى حنورة
- الخلق الفنى، كتابك رقم (٣٢) من السلسلة دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧
- سيكولوجية التذوق الفنى، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥

مصطفى عبدالغنى:

- عبدالرحمن الشرفاوى متمرداً، دار التعاون، القاهرة ١٩٨٨
 - طه حسين والسياسة، دار المستقبل العربى ١٩٨٠
 - المثقفون وعبدالناصر، دار سعار الصباح، القاهرة ١٩٩٢
 - زكى نجيب محمود، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٢
 - المثقفون والخليج (دراسة حالة للمثقفين المصريين) تحت الطبع.
- طارق البشرى:

الحركة السياسية فى مصر ١٩٥٢/٤٥، دار الشروق ط٢/١٩٨٣

طه حسين

- مستقبل الثقافة فى مصر، القاهرة، ١٩٣٨

محمد ليبيب شقير

- الوحدة الاقتصادية العربية، تجاربها وتوقعاتها، ج١. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٦.

البرت حورانى

- الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩، دار النهار، ترجمة إلى العربية كريم عزقول، بيروت، بدون

ليفين، ز، ١٠

- المكارثية والمثقفون (إعداد وشهادات) ت رجمة أحمد حسان، دار ابن خلدون. بيروت ١٩٨٠.

نازك سابيارد

-الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة الحديثة، مؤسسة

نوفل، بيروت ١٩٧٩

ب - الأجنبية

-Eugene R. Black. The Revolution of Great Expectations.

-The Intellectuals A. Constrovesiel Portrait George, B. de Huszor Amirca, 1960

سابعاً: ندوات ومحاضرات

- ندوة (الوحدة العربية) بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، وأعاد نشرها فى سلسلة المركز فى نوفمبر

١٩٨٩

- محاضرة عن الوحدة العربية لأحمد بهاء الدين، فندق ماريوت،

الأردن، ديسمبر ١٩٨٩

- ندون معرض الكتاب الدولى بالقاهرة، يناير ١٩٩٠

- الندوة العلمية لدار الهلال - الذكرى المئوية، ٣ - ١٦ سبتمبر ١٩٩٢

-Confrence International Saciologteal associations, Canada, 1982.

لـ: مصطفى عبدالغنى

- ١ - مؤرخو الجزيرة العربية: دار الموقف العربى: القاهرة ١٩٨٠
- ٢ - المؤثرات الفكرية فى الثورة العربية: الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٨٢
- ٣ - شهرزاد فى الفكر العربى الحديث: الطبعة الأولى . دار الشروق، القاهرة ١٩٨٥
- الطبعة الثانية، دار شرقيات، القاهرة ١٩٩٥
- ٤ - الحصار: مسرح شعري، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٤
- ٥ - الخروج من المدينة، مسرح شعري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٥
- ٦ - اللاعب: مسرح شعري، هيئة الكتاب، ١٩٩٦
- ٧ - الوداع.. ترجمة آخر أشعار أراجون ، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٦
- ٨ - فى دائرة النقد.. قطاع الآداب بالمركز القومى للفنون التشكيلية، القاهرة ١٩٨٦
- ٩ - الشرقاوى متمرداً: درار التعاون القاهرة ١٩٨٧
- ١٠ - اعترافات عبدالرحمن الشرقاوى: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٦
- ١١ - طه حسين والسياسة: دار المستقبل العربى. القاهرة ١٩٨٦
- ١٢ - تحولات طه حسين: هيئة الكتاب. ١٩٩٠.
- ١٣ - طه حسين وثورة يوليو، دار التراث الإسلامى، القاهرة ١٩٨٩
- ١٤ - المسرح المصرى فى السبعينات (١) هيئة الكتاب، المكتبة

مصادر ومراجع

- الثقافية، القاهرة ١٩٨٧
- ١٥ - المسرح المصرى فى الثمانينات: الطبعة الأولى، دار الوفاء، القاهرة ١٩٨٤.
- الطبعة الثانية، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٥
- ١٦ - البنية الشعرية عند فاروق شوشة، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٢
- ١٧ - المثقفون وعبد الناصر: دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٢
- ١٨ - زكى نجيب محمود (سلسلة نقاد الأدب) هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٩٢
- ١٩ - الخروج من التاريخ (دراسة فى مدن الملح لعبد الرحمن منيف) هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٣
- ٢٠ - نجيب محفوظ الثورة والتصوف، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٣
- ٢١ - الاتجاه القومى فى الرواية (سلسلة عالم المعرفة) الكويت، ١٩٩٤
- ٢٢ - نقد الذات فى الرواية الفلسطينية، دار سيناء، القاهرة ١٩٩٤
- ٢٣ - الجبرتى والغرب (دراسة حضارية مقارنة)، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٩٥
- ٢٤ - المثقفون وأزمة الخليج. تحت الطبع، القاهرة ١٩٩٦
- ٢٥ - عنصر المكان عند أبى سنة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٦
- ٢٦ - الجات.. والتبعية الثقافية - (تحت الطبع)
- ٢٧ - نقاد الرواية فى نهاية القرن العشرين فى مصر (تحت الطبع).
- ١٨ الفريسة والصياد - وثائق اغتيال حسن البنا.

هذا كتاب جديد عن أحمد بهاء الدين وهو سيرة ذاتية بقدر ما هو سيرة قومية، أراد صاحبها أن يمزج بين الخاص والعام، بما يؤكد أمرين اثنين: التزام المثقف بهوميه - أولا - ثم انصهاره كالفراشة بها - فيما بعد -.

وقد خلف الصراع بين الذات والعام هذا المصير الذي انتهى إليه بهاء الدين.

فالكاتب (الجالس القرفصاء) رفض الصمت، وانطلق ليعيش هذا الصراع، بين مثال الكاتب، ومأساة الواقع؛ ولأن هذا الصراع يدمي صاحبه، راح في (إغماءة دماغية) طويلة استمرت من شتاء ١٩٩٠ إلى صيف ١٩٩٦، أسلم الروح بعدها.

وقد حاول مؤلف الكتاب - تلميذ بهاء وصديقه - تسجيل جزئيات هذا الواقع ومأساته حين اقترب منه في السنوات الأخيرة، خاصة، وقد شهد صدمة اغتيال الكاتب، من مثقفيه وهو يحثهم على المشاركة في التنديد بـ (جريمة العصر) أو هجرة اليهود السوفيت إلى أرض فلسطين. الناشر

